تفسير

البيضاوى

١

للإمام البيضاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير البيضاوي

المسمى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

إمام المحققين وقدوة المدققين

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله

ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

المتوفي ٧٩١ هجرية

تحقيق

أ.د. حمزة النشرتي

الشيخ / عبد الحفيظ فرغلي

أ.د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الأول

١٤١٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنَّ هذَا القُرْآنَ يهْدي للَّتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمنِينَ الَّذيـــــن يَعْمَلُونَ الصَّالحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبيراً ﴾

الإسراء : ٩

« خيركم من تَعلَّم القرآن وعلَّمه »

حديث شريف : الجامع الصغير عن سعد

أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن عن طريق عثمان بن عفان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فنقدم لقرائنا الكرام كتاباً من أعظم كتب التفسير ، هو كتاب « **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** » المعروف **بتفسير البيضاوي** ، الذي اتسعت شهرته ، وارتفعت منزلته ، وأقبل عليه الناس إقبالا شديدا لما أدركوا من فضله ، وعرفوا من علو قدره . مما حدا بصاحب كشف الظنون أن يقول فيه : **هذا الكتاب رُزِق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية ، فمنهم من علق على سورة منه ، ومنهم من حَشَّى تحشية تامة ، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه** . وما أكثر الحواشي والتعليقات التي جاءت عليه ، وسنشير إليها فيما بعد إن شاء الله .

إنه كتاب عظيم الشأن ، غني عن البيان ، جمع فيه ما أخذ ممن سبقه فأضاف إليه ما استخرجه من ثاقب فكره ، من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة ، فجلا ـ كما قال صاحب كشف الظنون ـ بذلك رَيْن (١) الشك عن السريرة ، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، وكان جديراً بأن يقول فيه القائل :

أولو الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يُتْلى
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لا تبلى

ونظراً لأهمية هذا الكتاب وما يحتوي عليه من قرائد وفوائد ، وما يتضمنه من حكم وأحكام رأينا أن نقدمه لقرائنا الذين تعودوا منا أن نقدم لهم كل جليل وفريد، وعظيم ومفيد ، وذلك التزام منا بإحياء التراث ومساهمة عملية في تيسير اقتناء ما عَزَّ اقتناؤه ، وصعُب شراؤه ، وتقريب العلم إلى ذويه ، وإدناء منابعه إلى طلابه والراغبين في الانتفاع به .

(١) الرين : الطَّبَع والدَّنَسُ .

إنه كتاب قال صاحبه في مقدمته ـ وهو يعني ما يقول ـ : **يحتوى على صفوة ما بلغه من عظماء الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف الصالحين وينطوي على نكت بارعة ، ولطائف رائعة ، استنبطها ومن قبله من أفاضل المحققين ، وهو يعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوة إلى الأئمة الثمانية المشهورين ، وغيرهم من القراء المعتبرين .**

فهو كتاب جمع فأوعى ، وأشبع وأروى .

وقد رأينا أن نقدم بين يديه نبذة عن علم التفسير وتطوره حتى بلغ ما بلغه من تقدم وارتفاع .

علم التفسير

علم التفسير علم يبحث عن معني نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية ، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية .

وكلمة التفسير لغويا معناها البيان ، وأصلها الفَسْر وهو كشف المغطى ، ومعناها اصطلاحًا : بيان كلام الله عز وجل بذكرمفهومات الكلمات والعبارات الموجودة في القرآن .

وقال بعضهم : التفسير في الاصطلاح هو علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيِّها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفصلها، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها(١) .

التفسير والتأويل

وقد يتساءل البعض هل التفسير هو التأويل أم بينهما فرق ؟

قال صاحب كشف الظنون : التأويل أصله من الأول وهو الرجوع ، فكأن المؤول صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني ، وقيل : من الإيالة وهي السياسة ، فكأنه ساس الكلام ووضع المعنى موضعه .

واختلف في التفسير والتأويل ، فقال بعضهم : هما بمعني ، وقد أنكر ذلك قوم.

---

(١) قصة التفسير ـ دكتور أحمد الشرباصي ص ٦ .

وقال الراغب الأصفهاني : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل .

وقال غيره : التفسير بيان لفظ لا يحتاج إلا وجها واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة (١) .

ويتدخل صاحب لسان العرب في ذلك فيقول : التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر .

وقد ضرب بعضهم الأمثلة لبيان الفرق بين التفسير والتأويل ، من أن التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً ، والتأويل تفسير باطن اللفظ ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد . مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر : ١٤] تفسيره إنه من الرصد ـ أى يرصد عمل كل إنسان حتي يجازيه به .

وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله . وهكذا .

وقال قوم : ما وقع مبينا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يسمى تفسيرا ، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ، بل يحمل على المعني الذي ورد فلا يتعداه.

أما التأويل فهو ما استنبطه العلماء العالمون بمعني الخطاب ، الماهرون في آلات العلوم .

تطور علم التفسير

والقرآن الكريم هو أول تفسير للقرآن الكريم ، لأن كلام الله تعالى يفسر بعضه بعضا والله عز وجل هو أول مبين لكتابه ، لأنه الأعلم بكلامه ومراده ، وقد قال الله تعالي : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّه** ﴾ آل عمران : ٧ .

وهناك تفسير مشهور يحمل اسم التفسير القرآني للقرآن ، وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى أن الله يبين آياته للناس ، منها قوله تعالي : ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ البقرة : ١٨٧ .

ويقول الله تعالي مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** (١٦) **إِنَّ**

(١) كشف الظنون ـ مادة علم التأويل .

عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ القيامة ١٦ ـ ١٩ .

ويقول مطمئنا للنبي ﷺ أنه سيتولى تفسير ما أشكل علي الكافرين : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ الفرقان : ٣٣ .

وكان النبي ﷺ يقوم بتفسير بعض الآيات لأصحابه ، وقد قال الله تعالى في ذلك : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل : ٤٤ .

وكان تفسير النبي ﷺ لما ينزل من الآيات لونا من الوحي ، فقد كان يسأل جبريل عليه السلام عن المعني فيجيبه بعد أن يسأل الله تعالي عن ذلك .

وقد ألف السيوطي رحمه الله كتاباً ضخماً يتناول ما أثر عن النبي ﷺ في تفسير القرآن الكريم سماه : « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » جاء في مقدمته : لما ألفت كتاب ترجمان القرآن وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، وتم بحمد الله في مجلدات ، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله ، فلخصت منه هذا المختصر مقتصراً فيه على متن الأثر، مُقَدَّراً بالعز والتخريج إلى كل كتاب معتبر ، وسميته بالدر المنثور في التفسير بالمأثور .

ومن أمثلة ما جاء فيه في تفسير قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله** ﴾ في أول سورة الفاتحة :عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « **أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله** » .

تفاسير الصحابة

جاء في كشف الظنون : أما المفسرون من الصحابة فمنهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم أجمعين .

وأكثر من رُوِى عنه من الخلفاء الأربعة الراشدين علي بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والرواية عن الثلاثة الآخرين نادرة . ولعل السبب في ذلك تقدمُ وفاتهم .

ومما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قوله : لو أردت أن أملي وقر [١] بعير على الفاتحة لفعلت .

ويعد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما صاحب أول تفسير محفوظ بعد النبي ﷺ فهو صاحب كتاب : « **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس** » وهو مطبوع ومتداول ، وإن كان بعضهم يشكك في نسبة هذا التفسير لابن عباس وينسبه إلى **الفيروزبادي** صاحب القاموس المحيط .

وقد روي عن أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أنه قال : « **إن في مصر تفسيرا عن ابن عباس رواه علي بن أبي طلحة ، وليس بكثير أن يرحل إلى مصر من أجله** »[٢] .

وتشير هذه العبارة إلى نسبة هذا الكتاب إلى ابن عباس ، ولعل سبب وجوده في مصر أن ابن صالح أحد كتاب الليث بن سعد الفقيه المصري كتب نسخة من هذه المجموعة المنسوبة إلى ابن عباس لنفسه .

وليس عجيبا أن يكون هناك تفسير لابن عباس ، فهو الملقب بترجمان القرآن ، والمعروف بحَبْر الأمة ، وقد دعا له النبي ﷺ قائلا : « **اللهم علمه الكتاب** » و في رواية « **اللهم علمه التأويل** » .

وقال فيه مجاهد : كان إذا فسر آية من القرآن رأيت النور علي وجهه .

وقال فيه ابن مسعود رضي الله عنه : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . .

وكان ابن عباس عالما ورعا تقيا واسع المعرفة ، يستعين على تفسير القرآن بأسفار العرب القديمة ، لأن الشعر في رأيه ديوان العرب ، وقد دارت محاورة واسعة بينه وبين نافع الأزرق [٣] حول كلمات من القران الكريم أيد ابن عباس تفسيره لها بما يحفظه من شعر العرب ، نذكرمثالا لها بما أورده السيوطي رحمه الله في كتابه «**الإتقان في علوم القرآن** » .

قال : بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن

---

(١) وقر بعير : حمل بعير .

(٢) قصة التفسير ، د . أحمد الشرباصي ص ٦٨ .

(٣) هو زعيم الأزارقة وهم فرقة من الخوارج .

تفسير القرآن ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به . فقاما إليه ، فقالا : أنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالي إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين .

فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما .

فقال نافع : اخبرني عن قول الله تعالي : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ المعارج : ٣٧ .

قال ابن عباس : العزون : الحلق الرقاق .

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت عُبَيْد بن الأبرص يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا ؟

قال : أخبرني عن قوله تعالي : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة : ٣٥ .

قال : الوسيلة الحاجة .

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قال نافع أخبرني عن قوله تعالي : ﴿ شرعة ومنهاجا ﴾

قال ابن عباس : الشرعة الدين ، والمنهاج الطريق .

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول :

لقد نطق المأمون بالصدق والهدي ... وبين للإسلام دينا ومنهجا ؟ (١)

إلى آخر ما جاء في هذه المحاورة ..

وعلى هذا فيعد ابن عباس صاحب مدرسة في التفسير اعتمدت علي اللغة والشعر في التفسير .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٦٨ ، ط الهيئة المصرية للكتاب

وكان يعتمد كذلك علي ما روي عن النبي ﷺ والصحابة من أحاديث في تفسيره ويلي ابن عباس في كثرة ما روي عنه من تفسير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو الذي يقول فيه النبي ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب » رواه البخاري عن عبد الله بن عمر .

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه هو الذي يقول عن نفسه : والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »(١).

وقد روي عن عبد الله بن مسعود في التفسير أكثر مما روي عن علي بن أبى طالب .

وقد توفي عبد الله بن مسعود في عصر عثمان بالمدينة سنة ٣٢ هـ (٢) .

ومن الصحابة الذين ورد عنهم اليسير من التفسير أنس بن مالك المتوفي بالبصرة سنة ٩١ هـ ، وأبوهريرة عبد الرحمن بن صخرالمتوفي بالمدينة سنة ٥٧ هـ ، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب المتوفي بمكة المكرمة سنة ٧٣ هـ ، وجابر بن عبد الله الأنصاري المتوفي بالمدينة سنة ٦٤ هـ ، وأبو موسى الأشعري المتوفي سنة ٤٤ هـ ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص المتوفي نسة ٦٣ هـ ، وزيد بن ثابت الأنصاري المتوفي سنة ٤٥هـ .

المفسرون من التابعين

من التابعين الذين أثرعنهم تفسير بعض الآيات مجاهد بن جبر المكي المتوفي سنة ١٠٣ ، وقد روي عن ابن عباس ، وقال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقد اعتمد على تفسيره كل من البخاري والشافعي .

وسعيد بن جبير المتوفي سنة ٩٤ هـ .

وعكرمة مولي ابن عباس المتوفي سنة ١٠٥ هـ .

وطاووس بن كيسان اليماني المتوفي سنة ١٠٦ هـ .

وعطاء بن أبي رباح عالم مكة ومفتيها المتوفي سنة ١١٤ هـ .

(١) قصة التفسير ، د . أحمد الشرباصي ص ٦٩ .

(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة ـ مادة التفسير .

وعلقمة بن قيس المتوفي سنة ١٠٢ بالكوفة وهو من أصحاب عبد الله بن مسعود .

والأسود بن يزيد المتوفي سنة ٧٥ هـ .

وإبراهيم النخعي المتوفي سنة ٩٥ هـ .

والشعبىّ المتوفي سنة ١٢٥ هـ .

وغيرهم كثيرون ممن اعتمدوا على أقوال صحابة رسول الله ﷺ .

طبقة أخرى تلي هؤلاء

وجاء بعد هؤلاء طبقة أخرى اعتمدت علي أقوال الصحابة والتابعين ، ومن هؤلاء سفيان بن عُيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج وعبد الرزاق بن همام الصنعاني ، وغيرهم .

ثم جاء بعدهم طبقة أخري تليهم منهم علي بن أبى طلحة وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

ثم جاءت بعد هؤلاء طبقة أخرجت تفاسير مليئة بالفوائد محذوفة الأسانيد مثل أبي اسحاق الزجاج وأبي علي الفارسى وأبي بكر النقاش وأبي جعفر النحاس ثم تتابعت بعد ذلك كتب التفسير التي اصطبغت بآراء المفسرين واتجاهاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ، فمنهم من غلب عليه النحو ، ومنهم من غَلَبَ عليه الفقه ، ومنهم من غلبت عليه الفلسفة ومنهم من غلبت عليه الأخبار والقصص . وهكذا .

أشهر المفسرين عبر القرون

وعلى ذلك فأشهر المفسرين في القرن الأول هم الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم .

وأشهر المفسرين في المائة الثانية شعْبة بن الحجاج وجابر بن يزيد الجعف وسفيان بن عيينه ومجاهد وغيرهم .

وأشهر المفسرين في المائة الثالثة شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير المشهور وعليه اعتمد من جاء بعده من المفسرين .

وأشهر المفسرين في المائة الرابعة أبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة ، وابن حبان، وعلي بن عيسي الرماني النحوي المشهور .

وأشهر المفسرين في المائة الخامسة أبوجعفر محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب « البيان الجامع لكل علوم القرآن » والثعالبي والجويني .

وأشهر المفسرين في المائة السادسة جار الله الزمخشري صاحب الكشاف والبغوي وأبو البقاء العكبري وابن الدهان .

وأشهر المفسرين في المائة السابعة البيضاوي صاحب التفسيرالذي بين أيدينا وهو « أنوار التنزيل » الذي تناوله العلماء بالشروح والتعليقات واتخذه الطلاب منارا لهم، والقرطبي صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن ، وقد تُوفِيَ القرطبي سنة ٦٧١هـ .

وأشهر المفسرين في المائة الثامنة بدر الدين الزركشي الفقيه الشافعي ، وابن كثير صاحب كتاب التفسير العظيم ، وأبوحيان الأندلسي صاحب كتابي « البحر » و « النهر » في التفسير .

وأشهر المفسرين في المائة التاسعة البقاعي ، صاحب كتاب « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » والسيوطي صاحب كتاب « الإتقان في علوم القرآن » وغيرها من كتب التفسير وما يتعلق بالقرآن الكريم .

وأشهر المفسرين في المائة العاشرة علي بن يونس السنباطي صاحب مختصر « مجمع البيان » وهذا الكتاب « مجمع البيان » من تأليف أبي علي الفضل بن الحسن الطرسي من علماء القرن السادس الهجري .

وأشهر المفسرين في المائة الحادية عشر الشيخ علي القاري ، والشهاب الخفاجي صاحب الحاشية العظيمة على تفسير البيضاوي ، وهي الحاشية المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي في ثمانية مجلدات .

وأشهر المفسرين في المائة الثانية عشرة : الإمام عبد الغني النابلسي صاحب التفسيرا لمشهور : التحرير الحاوي في شرح تفسير البيضاوي .

والإمام البحراني صاحب كتاب البرهان في تفسير القرآن .

وأشهر المفسرين في المائة الثالثة عشرة : الألوسي ، صاحب التفسير المشهور المسمي بروح المعاني .

وأشهر المفسرين في المائة الرابعة عشرة : الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية

في عصره ، وصاحب دروس التفسير التي كان يلقيها على طلابه في الجامع الأزهر ، وآراؤه في التفسيرواضحة في تفسير المنار الذي سجله قلم تلميذه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار (١) ثم جمعه في كتاب بعد ذلك ولكنه لم يكتمل .

وللشيخ طنطاوي جوهري من علماء القرن الرابع عشر كتاب قيم في التفسير يطلق عليه تفسير الجواهر ، وهو يعنى بالنواحي العلمية ، ويربط فيه بعض الظواهر العلمية الحديثة بالقرآن الكريم .

وكتاب الشيخ سيد قطب « في ظلال القرآن » من الكتب القيمة في التفسير التي جدت في القرن الرابع عشر .

ويتناول الشيخ الشعراوي في عصرنا هذا ـ ونرجو الله أن يمد في عمره ـ خواطره حول القرآن الكريم ، في حلقات متواصلة تبثها الإذاعة المسموعة والمرئية ، وتصدر بعد ذلك في مطبوعات باسم تفسير الشعراوي .

وما زال المد العلمي يمدنا بالمزيد من عطاء القرآن الثرىّ المتجدد الذي يدل على عظمة هذا القرآن وإعجازه وبركاته التي تزداد على الأيام فيضا وتتضاعف علي توالي الأزمان طولا وعرضا .

وجه الحاجة إلى التفسير

ولا يخفى وجه الحاجة إلى التفسير ، لأنه يبين المقصود من كلام الله تعالى المنزل على قلب رسوله ﷺ ، وهو دستوره الخالد ، وبيانه المعجز ، وفيه هداية البشر وطريقهم إلى معرفة الله تعالي ونيل رضوانه لمن أراد الله له الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة .

وقد قال العلماء : من المعلوم أن الله تعالى خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك جاء كل رسول بلسان قومه ، وأنزل كتابه على لغتهم ، وإنما احتيج التفسير لتقرير قاعدة وهي أن كل من وضع من البشر كتابا فإنما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح ، وإنما احتيج الشرح لأمور .

منها : كمال فضيلة المصنف فإنه بقوته العلمية يجمع المعاني الرقيقة في اللفظ الوجيز ، فربما عسر فهم مراده فقصده بالشرح ظهور تلك المعاني الرقيقة ، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة لتصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له .

---

(١) من كتاب قصة التفسير للمرحوم الدكتور أحمد الشرباصي .

ومنها : إغفاله بعض متممات المسألة أو شروطها اعتمادا علي وضوحها ، أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارح لبيان المتروك ومراميه .

ومنها : احتمال اللفظ لمعان مختلفة كما في المجاز والاشتراك ودلالة الالتزام فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه .

وقد نزل القرآن في زمن فصحاء العرب بلسان عربي مبين ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما رقائق باطنه فكانت تظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي ﷺ . كسؤالهم لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ الأنعام : ٨٢ . فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ ففسره النبي ﷺ بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان : ١٣ . وغير ذلك مما سأل الصحابة عنه رسول الله ﷺ .

ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه مع أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم ، فنحن الآن أشد احتياجا إلى التفسير من أى وقت مضى (١) .

شرف هذا العلم

وشرف علم التفسير لا يخفي ، فهو من الحكمة التي قال الله فيها : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ البقرة : ٢٦٩ .

وقال الراغب الأصفهاني : شرف علم التفسير من وجوه : أحدها من جهة الموضوع فإن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع الحكمة ومعدن الفضيلة .

وثانيها : من جهة الغرض ، فإن الغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي هي الغاية القصوي .

وثالثها : من جهة شدة الحاجة إليه ، فكل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة علي العلم بكتاب الله تعالى (٢) .

---

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ، د . فاطمة المحجوب ، مادة التفسير جـ ١٠ ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق .

هذا التفسير

والكتاب الذي نقدمه هو كتاب « أنوارالتنزيل وأسرار التأويل » .

ولا نجد في تقديمه أفضل مما كتبه حاجي خليفة في كشف الظنون عنه ، فننقل للقارئ الكريم ما كتبه حول هذا التفسير :

قال : أنوارالتنزيل وأسرار التأويل في التفسير للقاضي الإمام العلامة ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفي بتبريز سنة ٦٧٥ هـ وقيل : سنة ٦٩٢ هـ .

ذكر التاج السبكي في الطبقات الكبرى للشافعية أن البيضاوي لما صرف عن قضاء شيراز رحل إلى « تبريز » وصادف دخوله إليها مجلس درس لبعض الفضلاء، فجلس في أخريات القوم بحيث لم يعلم به أحد .

فذكر المدرس نكتة زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر علي جوابها، وطلب من القوم حلها والجواب عنها، فإن لم يقدروا فالحل فقط ، فإن لم يقدروا فإعادتها .

فشرع البيضاوي في الجواب ، فقال المدرس : لا أسمع حتي أعلم أنك فهمت .

فخيره البيضاوي بين إعادتها بلفظها أو معناها .

فبهت المدرس ، فقال : أعدها بلفظها ـ فأعادها البيضاوي بلفظها ، ثم حلَّها ، وبيَّن له أن في ترتيبه إياها خلَلاً ، ثم أجاب عنها ، وقابلها في الحال بمثلها ، ودعا المدرس إلى حلها فتعذر عليه ذلك .

وكان الوزير حاضراً في ذلك الوقت ، فأقام البيضاوي من مجلسه ـ في آخر الصفوف ـ وأدناه إلي جانبه ، وسأله : من أنت ؟

فأخبره أنه البيضاوي ـ وكانت له شهره ـ وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز .

فأكرمه الوزير وخلع عليه في يومه وردَّه ـ إلى القضاء في شيراز .

وقيل : إنه طالت مدة ملازمته للوزير في تبريز . فاستشفع البيضاوي بأحد العلماء الفضلاء وهو الشيخ محمد بن محمد الكحنائى إلى الوزير ليحقق له بغيته .

فجاء هذا الشيخ كعادته إلى الوزير فقال له : إن هذا الرجل ـ وأشار إلى البيضاوي ـ عالم فاضل يريد أن يشترك مع الأمير في السعير ، يعنى أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار ، وهي مجلس القضاء الذي يطلبه .

فتأثر البيضاوي من كلام الشيخ ، وترك المناصب الدنيوية ، ولازم الشيخ حتى مات . وصنف هذا التفسير بإشارة شيخه . ولما مات دفن عند قبره .

قال حاجي خليفة : وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن غني عن البيان لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان ، ومن التفسيرالكبير ـ أى تفسير الفخر الرازي ـ ما يتعلق بالحكمة والكلام ، ومن تفسير الراغب الأصفهاني المتوفي في رأس المائة الخامسة ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات .

وختم إلى ذلك ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة ، فجلا رَيْن الشك عن السريرة ، وزاد في العلم بسطة وبصيرة

منهجه في تفسيره

ولكون البيضاوي متبحرا في ميدان الكلام ، أظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام ، فقد كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة وملح الاستعارة ، وهتك الأستار تارة أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها وترجمان المعرفة وبنائها ، فحل ما أشكل على الأنام ، وذلّل لهم صعب المرام ، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة ، وأوضح لهم مناهج الأدلة ، والذي ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثا أو رابعا بلفظ « قيل » فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود ، وأما الوجه الذي تفرد به وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية كقوله : وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ، ونحوه ، فهو ظن من لعلمه يقصر فهمه عن تصور مبانيه ، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه .

فمن اعترض بمثله علي كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء ، ويروم أن يقنص نسر الشماء ، لأنه مالك زمام العلوم الدينية والفنون اليقينية على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد اعترفوا له قاطبةً بالفضل المطلق ، وسلموا إليه قصب السبق .

فكان تفسيره يحتوي فنونا من العلم وَعْرَةَ المسالك ، وأنواعا من القواعد مختلفة الطرائق ، وقلَّ من برز في فَنٍّ إلا وصَدّهَ عن سواه وشغله ، والمرء عدو ما جهله ، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره ، وأعمى عين هواه ، واستعبد نفسه في طاعة مولاه ، حتى يسلم من الغلط والزلل ، ويقتدر على رد السفسطة والجدل .

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور فإنه لكونه ممن صَفَتْ مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه تسامح فيه ، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل ، ونحا نحو الترغيب والتأويل ، عالمًا بأنها مما فاه صاحبه بزور ، ودلّى بغرور ، والله عليم بذات الصدور .

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية . فمنهم من علق تعليقة على سورة منه ، ومنهم من حَشَّى تحشية تامة ، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه

من الحواشي التي ألفت حول الكتاب

نذكر هنا بعض الحواشي التي ذكرها حاجي خليفة للاستدلال على فضل هذا الكتاب ومنزلة صاحبه .

أولا : حاشية العالم الفاضل محيي الدين محمد ابن الشيخ مصلح الدين مصطفى القوجوي المتوفي سنة ٩٥١هـ .

وهي من أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعا وأسلسها عبارة ، كتبها أولا على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدي ، وهي في ثمانية مجلدات ، ثم استأنفها ثانيا بنوع تصرف فيه وزيادة عليه ، فانتشرت هاتان النسختان ، وتلاعبت بها أيدي النساخ حتى كاد أن لا يفرق بينهما .

ثانيا : حاشية العالم مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم المشهور بابن التمجيد معلم السلطان محمد خان الفاتح .

وهي حاشية مفيدة جامعة أيضًا لخصها من حواشي الكشاف في ثلاث مجلدات.

ثالثا: حاشية القاضي زكريا بن محمد الأنصاري المصري المتوفي سنة ٩٢٦ هـ وهي في مجلد ، سماها الفتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل .

ونبه فيها على الأحاديث الموضوعة التي في أواخر السور .

رابعا : حاشية الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ وهي في مجلد ، واسمها « نواهد الأبكار وشوارد الأفكار » .

خامسا : حاشية أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكارزوني

المتوفي سنة ٩٤٠ أو ٩٤٥ هـ وهي حاشية لطيفة في مجلد ، أورد فيها من الدقائق والحقائق ما لا يحصى .

سادسا : حاشية شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني المتوفي سنة ٧٨٦ هـ أو ٧٧٥ هـ وهي في مجلد أيضا .

سابعا : حاشية الفاضل العالم محمد بن جمال الدين بن رمضان الشرواني في مجلدين .

ثامنا : حاشية الشيخ الفاضل صبغة الله ، وهي صغري وكبري ، جمعها من ثماني عشرة حاشية .

تاسعا : حاشية الشيخ الفاضل جمال الدين إسماعيل القراماني المتوفي سنة ٩٣٣هـ وهي حاشية مفيدة جامعة .

عاشرا : حاشية الشيخ محمود بن الحسين الأفضلي الحازقي الشهير بالصادقي الكيلاني المتوفي في حدود سنة سبعين وتسعمائة ، وهي من سورة الأعراف إلى آخر القرآن، سماها : هداية الرواة إلى الفاروق المداوي للعجز عن تفسير البيضاوي ، فرغ من تحريرها سنة ٩٥٣هـ .

حادي عشر : حاشية الشيخ بابا نعمة الله بن محمد النخجوانى المتوفي في حدود سنة تسعمائة ، وغير ذلك من الحواشي .

ونضيف إلى ما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون حاشية الشهاب الخفاجي المعروفة بعناية القاضي وكفاية الراضي وهي في ثمانية مجلدات كبار .

وهناك تعليقات كثيرة ذكرها صاحب كشف الظنون تشير إلى أهمية الكتاب وذيوع فضله وانتشار ذكره .

ثم اتبع ذكر ذلك بقوله : وصنف الشيخ الإمام محمد بن يوسف الشامي مختصرا سماه الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف .

وقد قام الشيخ عبد الرءوف المنادي بتخريج أحاديث البيضاوي في كتاب أوله : الله أحمد أن جعلني من خدام أهل الكتاب . . وسماه الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي .

شهرة الكتاب

ولشهرة الكتاب تجد مخطوطاته ومطبوعاته في مختلف الأقطار العربية .

فمن المخطوطات : مخطوطة بمكتبة المتحف العراقي ببغداد ، وهي نسخة جيدة تتضمن الجزء الأول مكتوبة بخط النسخ وبالمدادين الأسود والأحمر ، يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الهجري ـ السابع عشر الميلادي ، وهي برقم ٢٢٣٤٤ .

وتوجد نسخة أخرى تتضمن الجزء الثاني وهي برقم ٢٢٣٤٣ وهي ضمن مخطوطات الخزانة العمرية في مكتبة المتحف العراقي .

وفي دمشق يوجد ست وعشرون نسخة ، في دار الكتب الظاهرية وهي مكتبة الأسد الآن .

منها نسخة برقم ٤١٨ تفسير ، وهي نسخة جيدة يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الهجري بخط نسخ معتاد ، وأسماء السور وألفاظ القرآن الكريم مكتوبة بالمداد الأحمر، ومن المطبوعات مطبوعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م ومطبوع بأسفل الصفحات تفسير الجلالين .

ومطبوعة محمد علي صبيح يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م .

ومطبوعة المكتبة التجارية الكبرى يرجع تاريخها لنفس التاريخ المتقدم (١) .

وهناك مطبوعات أخرى في بعض العواصم العربية .

التعريف بالمؤلف

لقد تضمن الحديث عن الكتاب بعض معلومات عن المؤلف ، ونزيد ذلك إيضاحا حوله فيما يأتي :

اسمه ونسبه

هو الإمام العالم الحجة عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ، ويكني أبا سعيد ، وأبا الخير ، ويلقب بناصر الدين البيضاوي .

والبيضاوي نسبة إلى مدينة البيضاء ، وهي مدينة مشهورة بفارس سميت بذلك

---

(١) راجع الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ـ ترجمة البيضاوي .

لأن لها قلعة تظهر من بعد ويرى بياضها ، وكانت معسكرا للمسلمين يقصدونها في فتح « اصطخر » .

وينسب إليها جماعة من الأعلام النابهين منهم هذا الإمام المفسر .

كان أبوه قاضي قضاة فارس في عهد الأتابك أبي بكر بن سعد (٦١٣ ـ ٦٥٨ هـ، ١٢٢٦ ـ ١٢٦٠ م)

وتفقه البيضاوي علي أبيه وعلى علماء عصره حتى برز واتسعت شهرته . وولى قضاء شيراز فترة ، ثم صرف عنها فرحل إلي تبريز واستقر بها حتى توفي فيها سنة ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٢م .

وقال السبكي في طبقات الشافعية : توفي سنة ٦٩١ هـ ـ ١٢٩١ م .

وقال بعضهم : بل إن وفاته كانت سنة ٧١٦ هـ ـ ١٣١٦ م ، ولكن ذلك وهم من الرواه كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية .

ويذكر ابن تغري بردي في كتابه « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي جـ ٧ ص ١١٠ أن وفاته كانت سنة ٦٨٥ هـ . وهذا هو ما ذكره ابن كثير أيضا في حديثه عنه في « البداية والنهاية » جـ ١٣ ص ٣٠٩ .

علمه ومنزلته

يجمع المؤرخون علي وفرة علم البيضاوي وعظم منزلته . ويشهد لذلك كثرة مؤلفاته ودقتها وعمق معانيها .

وأهم تصانيفه التي أوردتها دائرة المعارف الإسلامية هي :

١ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل .

وهو التفسير الذي بين أيدينا . وتقول دائرة المعارف عنه : انه اعتمد فيه علي تفسير الزمخشري ـ الكشاف ـ ولكنه توسع كثيرا في التفسير مستعينا على ذلك بمصادر أخرى .

قالت : ويعتبر أهل السنة تفسير البيضاوي أحسن التفاسير جميعا ، وله في أنفسهم مكانة عظيمة .

وأضافت : ويمتاز البيضاوي في مصنفاته بتركيز الكثير من المعلومات في أسلوب مقتضب لا إسهاب فيه .

وقد طبع هذا التفسير عدة مرات في الشرق ، في مطبعة بولاق سنة ١٢٨٢ هـ وفي استانبول سنة ١٢٨٥ هـ ، وفي القاهرة سنة ١٣١٣ هـ وسنة ١٣٢١ هـ ، وطبع في فارس سنة ١٢٨٣ هـ ، وفي لكنهو سنة ١٨٦٩ م ، وسنة ١٨٧٣ م ، وفي بومباي سنة ١٨٦٩ م .

قالت دائرة المعارف : وألفت حوله حواشي كثيرة طبع بعضها منها : حاشية ابن التمجيد التي ألفت سنة ٨٨٠ هـ ـ ١٤٧٥ م ، و طبعت في استانبول سنة ١٨٢٧ م في سبعة مجلدات .

وحاشية القوجوي التي سبقت الإشارة إليها ـ وقد طبعت في استانبول سنة ١٨٢٣ هـ في أربعة مجلدات .

وحاشية عبد الحاكم السيالكوني المتوفي عقيب سنة ١٠٦٠ هـ ـ ١٦٢٦ م وطبعت في استانبول سنة ١٢٧١ هـ .

وحاشية أحمد شهاب الدين الخفاجي المتوفي سنة ١٠٦٩ هـ ـ ١٦٥٨ م ، وطبعت في بولاق سنة ١٢٨٣ هـ في ثمانية مجلدات .

وحاشية إسماعيل بن محمد القونوي المتوفي سنة ١١٩٥ هـ ـ ١٧٨١ م وقد طبعت علي حاشية ابن التمجيد .

وصنف البيضاوي علاوة على تفسيره هذا عدة رسائل صغيرة في النحو والفقه من ذلك .

٢ ـ منهاج الوصول إلى علم الأصول . قال حاجي خليفة في « كشف الظنون »: هو مختصر للقاضي الإمام ناصر الدين البيضاوي ، وهو مرتب علي مقدمة وسبعة كتب، أوله : تقدس من تمجد بالعظمة والجلال . . . الخ . وقال فيه : كتابنا هذا يسمى منهاج الوصول إلى علم الأصول الجامع بين المشروع والمعقول ، والمتوسط بين الفروع والأصول .

ولهذا الكتاب شروح وتعليقات ذكرها صاحب كشف الظنون ، تشير إلى أهميته على الرغم من صغر حجمه .

٣ ـ طوالع الأنوار من مطالع الأنظار . قالت دائرة المعارف الإسلامية عنه : هو كتاب في الإلهيات يُرْجَع إليه .

وقد شرحه محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني المتوفي سنة ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨م.

وطبع هذا الشرح بالقاهرة سنة ١٢٢٣ هـ مع حواشٍ للجرجاني المتوفي سنة ٨١٦ هـ - ١٤١٣ م .

وطبعت هذه الحواشي بمفردها في استانبول سنة ١٣٠٥ .

وقال صاحب كشف الظنون عن هذا الكتاب : هو مختصر في علم الكلام ، أوله : الحمد لمن وجب وجوده ، وهو متن متين ، اعتنى العلماء في شأنه ، وذكر عدة مؤلفات في شرحه والتعليق عليه .

٤ ـ تاريخ العالم . قالت دائرة المعارف في كتب البيضاوي تاريخا للعالم باللغة الفارسية من عهد آدم حتى سنة ٦٧٤ هـ ـ ١٢٧٥ م ، واسم هذا المصنف « نظام التواريخ » .

وأشار حاجي خليفة إلى هذا الكتاب وقال عنه : « نظام التواريخ ، فارس مختصر للقاضي ناصر الدين البيضاوي ، أوله : الحمد لله ذي العظمة والكبرياء .. ذكر فيه الأنبياء والخلفاء ، والدولة الأموية والعباسية ثم الدولة الصفارية والسامانية والغزنوية والديالمة والسلجوقية والسلغرية والخوارزيقة والمغولية .

٥ ـ وذكرت الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية من مؤلفات البيضاوي : كتاب الغاية القصوي في دراية الفتوى ، وقام بتحقيقه على محيي الدين القرة داغي ، ط دار الإصلاح للطباعة والنشر والتوزيع بالدمام ، ودار النصر للطباعة الإسلامية بالقاهرة .

وقد أشار صاحب كشف الظنون إلى هذا الكتاب فقال : إنه في فروع الشافعية اختصره من كتاب الوسيط المحيط بأقطار البسيط لحجة الإسلام الغزالي ، وهو كتاب معتبر اعتني عليه الفقهاء ، وذكر شروحهم عليهم .

وأشار ابن تغري بردي إلى مصنفات أخرى للبيضاوي منها :

٦ ـ المنهاج في أصول الفقه . . ولعله هو الذي سبقت الإشارة إليه وهو منهاج الوصول إلى علم الأصول .

قال : وله أيضا منهاج في الفروع وقد شرحه .

٧ ـ شرح التنبيه في أربعة مجلدات .

والتنبيه كتاب في فروع الشافعية ألفه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفقيه الشيرازي المتوفي سنة ٤٧٦ هـ وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية بل هو أكثرها تداولا .

ولكنه لم يذكر أحد غير ابن تغرى بردي هذا الشرح للبيضاوي ، وقد ذكر حاجي خليفة شروح التنبيه ولم يذكر من بينها هذا الشرح الذي ذكره ابن تغري بردي للبيضاوي .

٨ ـ وله : شرح المنتخب . ذكر ذلك ابن تغري بردي ولم يذكره غيره .

٩ ـ شرح الكافية في المنطق . ذكر ذلك ابن تغري بردي أيضا ، ولم يذكر ذلك غيره .

وأشار البغدادي في كتابه هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون إلى بعض مؤلفات أخري هي :

١٠ ـ تحفة الأبرار في شرح المصابيح .

والمصابيح هي مصابيح السنة للبغوي الشافعي المتوفي سنة ٥١٦ هـ وقد أشار حاجي خليفة في كشف الظنون إلى هذا الشرح المذكور .

١١ ـ تذكرة في الفروع على مذهب الشافعي ، وهي للسراج بن الملقن الشافعي المتوفي سنة ٨٠٤ هـ قال حاجي خليفة : ويقال إن البيضاوي المفسر له تذكرة فيها أيضا .

١٢ ـ رسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها .

ولم يذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون .

١٣ ـ لب الألباب في علم الإعراب ـ مختصر الكافية في النحو .

وقد أشار إلى ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون قال : واختصر الكافية القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي وسماه اللب وهو الكتاب المشار إليه.

قال : وهو منطو على فوائد جليلة ومتكفل لغرائب النحو بوجازة ألفاظ عبقرية ، وقد ذكر فيه ما هو الواجب مما تركه ابن الحاجب .

وقد شرح هذا الكتاب جماعة من العلماء ذكرهم كشف الظنون وذكر أسماء شروحهم .

والمعروف أن الكافية هي مؤلف مشهور في النحو ألفه الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي النحوي المتوفي سنة ٦٤٦ هـ .

١٤ ـ مرصاد الإفهام إلى مرقاة الأحكام .

وقد أشار إليه حاجي خليفة دون أن يذكر مؤلفه .

١٥ ـ منتهي المنى في شرح أسماء الله الحسنى .

وأشار إليه حاجي خليفة في كشف الظنون . قال : وقد ذكر البيضاوي هذا الكتاب في أواخر تفسير سورة الحشر .

فهذه الثروة العلمية تشير إلى منزلة البيضاوي العلمية .

قال ابن تغري بردي : تصدي البيضاوي عدة سنين للفتيا والتدريس ، وانتفع به الناس وبتصانيفه إلى أن مات .

وقد أوصى القطب الشيرازي أن يدفن إلى جانبه رحمهما الله تعالى .

والقطب الشيرازي هو الإمام العالم الشيخ قطب الدين محمو بن مسعود الشيرازي له مؤلفات عدة توفي بتبريز سنة ٧١٠ هـ وهو في عَشْر الثمانين من عمره. ذكر ذلك الذهبي في كتابه دول الإسلام جـ ٢ ص ٢١٦ .

ووصاية الشيرازي بأن يدفن بجوار البيضاوي شهادة ضمنية بصلاح هذا الإمام وفضله وورعه .

وقد رأينا أنه عزف عن تولي القضاء حين فهم من إشارة شيخه الكحنائى أن القاضي لن يسلم من النار ، بل عزف عن تولي المناصب الدنيوية ولزم العلم والتأليف فيه وآثره على كل شيء حتي حانت وفاته رحمه الله .

وهذه لفتة ذكية نهديها إلى كل المشتغلين بالعلم بأن ما هم فيه أعظم من كل شيء فلا يؤثروا أي شيء عليه ، وسوف تأتيهم الدنيا صاغرة دون أن يسودوا وجوههم في طلبها . فمن طلب الدنيا فاتته ومن طلب وجه الله بعلمه أعطاه فوق ما

يريد . . ورحم الله الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه حيث يقول :

ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صيرته لي سُلَّما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأَخدم من لاقيت لكن لأُخدما

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً ؟ إذاً فابتياع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس تعظما

سلامٌ على سلفنا الصالح من العلماء الأجلاء الذين تركوا لنا تراثًا من الأخلاق قبل أن يتركوا لنا تراثهم العلمي الذي تتصاغر هممنا عن اللحاق به ، وقصاري جهدنا أن نعيش في ضوئه ونقتبس من لألائه . ونحمد الله على أن جعلنا من محبي العلم وأهله ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تفسير البيضاوي

المسمى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾

« قرآن كريم ـ النحل ٤٤ »

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا ، فتحدي باقصر سورة من سوره مصاقع (١) الخطباء من العرب العرباء (٢) فلم يجد به قديرا ، وأفخم من تصدي لمعارضته من فصحاء عدنان وبلغاء قحطان حتي حسبوا أنهم سحروا تسحيراً ، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عنّ لهم من مصالحهم ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب تذكيرا ، فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات هن رموز الخطاب تأويلا وتفسيرا ، وأبرز غوامض الحقائق ولطائف الدقائق ، ليتجلي لهم خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت ليفكروا فيها تفكيراً ، ومهد لهم قواعد الأحكام وأوضاعها من نصوص الآيات وألماعها (٣) ، ليذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا ، فمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد ، فهو في الدارين حميد وسعيد ، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه (٤) ، يعش ذميما ويصل سعيراً فيا واجب الوجود ، ويافائض الجود ، ويا غاية كل مقصود ، صل عليه صلاة توازي(٥) غناءه ، وتجازي عناءه ، وعلي من أعانه وقرر تبيانه تقريرا ، وأفض علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم ، وسلم عليهم وعلينا تسليما كثيرا .

(**وبعد**) فإن أعظم العلوم مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا ، علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها ، ومبني قواعد الشرع وأساسها ، لا يليق لتعاطيه

---

(١) مَصاقع : جمع مِصقع ـ بكسر الميم ـ البليغ الذي يتفنن في مذاهب القول .

(٢) العرب العاربة والعرباء : الصُّرَحاء الخُلّص ، والعرب المتعربة : هم بنو قحطان بن عابر الذين نطقوا بلسان العاربة وسكنوا ديارهم . والعرب المستعربة : أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(٣) ألماعها : إشاراتها ، يقال : ألمع بثوبه ويده سيفه : أشار ، وكذلك ألمع إليه : اشار إليه .

(٤) نبراسه : المصباح . (٥) توازي : تناسب .

والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها ، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها . ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتابا يحتوي علي صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة ، وعلماء التابعين ، ومن دونهم من السلف الصالحين ، وينطوي علي نكت بارعة ، ولطائف رائعة ، ، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين ، وأماثل [١] المحققين ، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوة [٢] إلي الأئمة الثمانية المشهورين[٣] ، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين ، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني [٤] عن الإقدام ، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام حتي سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي علي الشروع فيما أردته ، والإتيان ، بما قصدته ، ناويا أن أسميه بعد أن أتمه « **بأنوار التنزيل وأسرار التأويل** » فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه . أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول .

---

(١) أماثل : جمع أَمْثَل وهو الأفضل . (٢) المعزوة : المنسوبة .

(٣) أئمة القراء المشهورون هم :

- نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي ت سنة ١٦٩ هـ .
- قالون : روي عن نافع، وهو أبو موسى عيسى بن منيا ، توفي سنة ٢٢٠ هـ .
- ورش : وهو عثمان بن سعد المصري وكنيته أبو سعيد ، وقيل : أبو القاسم توفي بمصر سنة ١٩٧ هـ .
- ابن كثير :هو أبو معبد عبد الله بن كثير بن عمرو بن زادان توفي سنة ١٢٠ هـ ، وكان إمام الناس في القراءة بمكة .
- البزّي : وهو أحمد بن عبيد الله بن القاسم مؤذن المسجد الحرام وإمامه ومقرئه ويكني أبا الحسن ، توفي سنة ٢٥٠ هـ .
- قنبل : وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومي المكي وكنيته أبو عمرو ، وقنبل لقب له ، توفي سنة ٢٩١ هـ .
- أبو عمرو أبان بن العلاء بن عمار ، كان أعلم الناس بالعربيةوالقراءة مع الصدق والثقة ، توفي سنة ١٥٤ هـ .
- ابن عامر : وهو عبد الله بن عامر اليحصبي وكنيته أبو نعيم ـ كان إمام مسجد دمشق وقاضيها ، توفي سنة ١١٨ هـ ـ كتاب في صحبة النبي . د محمد صالح البنداق ص ١٧٨ .

(٤) يثبطني : يثقلني ويضعفني .

سورة فاتحة الكتاب

مكية وآياتها سبعٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

أسماء السورة (١)

وتسمي أم القرآن ، لأنها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه ولذلك تسمي أساسا أو لأنها تشتمل علي ما فيه من الثناء علي الله سبحانه وتعالي، والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده . أو علي جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع علي مراتب السعداء ومنازل الأشقياء . وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة لاشتمالها عليها ، والصلاة لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها، والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام: « هي شفاء من كل داء » (٢) .

---

(١) هذا الهامش وأمثاله من وضع المحققين .

(٢) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٧ بلفظ : « فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » وقال رواه البيهقي في الشعب عن عبد الملك بن عمير مرسلا ، ورمز له السيوطي =

* الإعجاز العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فى عصرنا هذا بعد أن حصلنا من العلم قدرا يجعلنا نستفيد منه في تفسير بعض المعانى العلمية التى كانت غامضة على المفسرين القدامى الأجلاء آن لنا أن نخوض تجربة التفسير =

والسبع المثاني لأنها سبع آيات بالاتفاق ، إلا أن منهم من عد التسمية دون أنعمت عليهم ، ومنهم من عكس ، وتثني في الصلاة ، أو الإنزال إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة ، وبالمدينة حين حولت القبلة ، وقد صح أنها مكية لقوله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ (١) .

وهو مكي بالنص ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من الفاتحة ، ومن كل سورة ، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك رحمه الله تعالي والشافعي . وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك والأوزاعي ، ولم ينص أبو حنيفة رحمه الله تعالي فيه بشيء فظن أنها ليست من السورة عنده . وسئل محمد ابن الحسن عنها فقال : (ما بين الدفتين (٢) كلام الله تعالي) . ولنا أحاديث كثيرة : منها ما روي أبو هريرة رضي الله تعالي عنه ، أنه عليه الصلاة والسلام قال : « **فاتحة الكتاب سبع آيات ، أولا هن بسم الله الرحمن الرحيم** ». وقول أم سلمة رضي الله عنها « **قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعد « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية** » ومن أجلها اختلف في أنها آية برأسها أم بما بعدها ، والإجماع علي أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالي ، والوفاق علي إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتي لم تكتب آمين.

والباء متعلقة بمحذوف تقديره : بسم الله أقرأ لأن الذي يتلوه مقروء . وكذلك

= بالضعف ورواه القرطبي في تفسيره ، وعزاه إلى أبي سعيد الخدري ، وقال رواه الدارمي ولفظه عنده « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(١) الحجر : ٨٧ .

(٢) الدفتين : مثني دفة وهي الجنب .

* الإعجاز العلمى

= **العلمى وإصلاح القواعد الثابتة فى العقول والتى بنيت على أسس غير صحيحة .**

وهذا التفسير العلمى تستمد مصادره من كتاب الله الذى هو المعين الأول ثم كتب الصحاح فى الأحاديث النبوية ثم الاستعانة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ثم بموسوعة علم الحيوان وعلم الحشرات والعلوم الطبية وكتب التفاسير على مختلف أنواعها .

=

يضمر كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له ، وذلك أولي من أن يضمر أبدأ لعدم ما يطابقه ويدل عليه، أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه ، وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا ﴾ (١) وقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (٢) لأنه أهم وأدل علي الاختصاص ، وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالي مقدم علي القراءة ، كيف لا وقد جعل آلة لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعا ما لم يصدر باسمه تعالي لقوله عليه الصلاة والسلام « **كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أبتر** » (٣) ، وقيل الباء للمصاحبة ، والمعني متبركا باسم الله تعالي اقرأ، وهذا وما بعده إلي آخر السورة مقول علي ألسنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه ، ويحمد علي نعمه ، ويُسأل من فضله ، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح ، لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر ، كما كسرت لام الأمر ولام الإضافة داخلة علي المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء ، والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال ، وبُنيتْ أوائلها علي السكون ، وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل ، لأن من دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا علي الساكن. ويشهد له تصريفه علي أسماء وأسامي وسمي وسميت ومجيء سمي كهدي لغة فيه قال :

---

(١) هود : ٤١ . (٢) الفاتحة : ٥ .

(٣) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٩٧ بلفظ : « كل امر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو اقطع » وقال : رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة ، ورمز له بالضعف .

* الإعجاز العلمى

= **فنقدم للقارئ الكريم عملا عظيما فى هذه السلسلة ينتفع به كل دارس وواع ، وكذلك يستعين به أبناء الإسلام فى كل مكان من بقاع الأرض.**

تأمل معى أيها القارئ قوله تعالي ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ البقرة: ٢٢٥

إن أى عالم من العلماء إذا توصل إلى شيء من العلم فى أى موضوع من الموضوعات لن يكون علمه صحيحا إلا إذا وافق ما جاء به القرآن والحديث النبوى . . =

والله أسماك سمي[١] مباركا آثرك الله به إيثاركا

والقلب بعيد غير مطرد ، واشتقاقه من السمو لأنه رفعة للمسمي وشعار له . ومن السمة عند الكوفيين ، وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلاله . ورد بأن الهمزة لم تعهد داخلة علي ما حذف صدره في كلامهم ، ومن لغاته سِم وسم قال :

[٢] بِسْمِ الذي في كُلِّ سُورةٍ سِمُهْ

والاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمي ، لأنه يتألف من أصوات متقطعة غير قارة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار ، ويتعدد تارة ويتحد[٣] أخري والمسمي لا يكون كذلك ، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمي لكنه لم يشتهر بهذا المعني وقوله تعالي﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾[٤] و﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾[٥] المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالي وصفاته عن النقائص ، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر:[٦]

---

(١) في تفسير القرطبي : سما ـ بالألف .

(٢) في تفسير القرطبي : باسم الذي . وهو الأصح إملائيا . لأن ألف اسم لا تحذف إلا مع لفظ الجلالة (الله) .

(٣) يتحد : ينفرد . (٤) الرحمن : ٧٨ . (٥) الأعلى : ١ .

(٦) الشاعر هو لبيد بن ربيعة العامري ، شاعر جاهلي وأدرك الإسلام ، لكنه هجر الشعر حين أسلم .
والشطر المذكورة ، صدر بيت قاله من قصيدة وهو يحتضر ، يخاطب ابنتيه ويوصيهما، يقول في قصيدته :

تمني ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فإن حان يوما أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر =

* **الإعجاز العلمي**

= **أما إذا خالفهما فلا ولن يكون صحيحا ، ذلك أن القرآن والحديث وحى الله تعالى الذى هو أعلم بكل شيء . .**

وكم من النظريات العلمية آمن بها العلماء قرونا طويلة وخالفت ما جاء به الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوي . . وجاء الزمان بعد ذلك واكتشف الإنسان فيه أن =

إلي الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكُما

وإن أريد به الصفة ، كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعري ، انقسم انقسام الصفة عنده : إلي ما هو نفس المسمي ، وإلي ما هو غيره ، وإلي ما ليس هو ولا غيره . وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله ، لأن التبرك والاستعانة بذات اسمه . أو للفرق بين اليمين والتيمن . ولم تكتب الألف علي ما هو وضع الخط لكثرة الاستعمال وطولت الباء عوضاً عنها .

والله أصله إله ، فحذفت الهمزه وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل : يا ألله، بالقطع إلا أنه مختص بالمعبود بالحق . والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب علي المعبود بالحق . واشتقاقه من أله ألهة وألوهة وألوهية بمعني عبد ومنه تأله واستأله ، وقيل من أله إذا تحير لأن العقول تتحير في معرفته. أو من ألهت إلي فلان أي سكنت إليه، لأنَّ القلوب تطمئن بذكره ، والأرواح تسكن إلي معرفته أو من أله إذا فزع من أمر نزل عليه ، وآلهه غيره أجاره إذ العائذ يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو بزعمه . أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه ، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد أو من وله إذا تحير وتخبط عقله ، وكان أصله ولاه فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها استثقال الضمة في وجوه ، فقيل إله كإعاء وإشاح ، ويرده الجمع علي آلهة دون أولهة . وقيل أصله لاه مصدر لاه يليه ليها ولاها ، إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه وتعالي محجوب عن إدراك الأبصار ، ومرتفع علي كل شيء وعما لا

= وقولا هو المرء الـذي لا حليفـه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلي الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية ص ٢٦٢ .

* **الإعجاز العلمي**

= **تلك النظريات لم تكن صحيحة . . وأن ما وافق القرآن والحديث النبوى كان هو الصحيح . . وكان هو الحق .**

ولو كان القرآن الكريم من عند بشر لجاء الحديث فى الموضوعات العلمية المختلفة موافقا لما كان الناس يعتقدون فى العصور السالفة من الأفكار والافتراضات والظنون والتى =

يليق به ويشهد له قول الشاعر :

كحلفةٍ من أبي رباحٍ يُشهدُها لاهُ الكبار (١)

وقيل : علم لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به ، ولأنه لا بد له من اسم تجري عليه صفاته ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه ، ولأنه لو كان وصفا لم يكن قول : لا إله إلا الله ، توحيدا مثل : لا إله إلا الرحمن ، فإنه لا يمنع الشركة ، والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل : الثريا والصعق أجري مجراه في إجراء الأوصاف عليه ، وامتناع الوصف به ، وعدم تطرق احتمال الشركة إليه ، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر ، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ ، ولأنه لو دل علي مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ (٢) معني صحيحا ، ولأن معني الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركا للآخر في المعني والتركيب ، وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة ، وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة ، وإدخال اللام عليه ، وتفخيم لامه إذا انفتح ما قبله أو انضم سنة ، وقيل مطلقا ، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ، ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر :

---

(١) ذكره صاحب اللسان ورواه : لا هُمَّ .

وقال : إنشاد العامة : يسمعها لاهة الكبار ، وأنشده الكسائى :

يسمعها الله والله كبار

راجع لسان العرب مادة أله

(٢) الأنعام : ٣

* الإعجاز العلمي

= **أثبت العلم فى عصرنا هذا أنها كانت مخطئة تماما . أمَا أن يرفض القرآن كل هذه الظنون والافتراضات ويذكر الحقائق العلمية الثابتة والتى لم يكتشف العلم بعضا منها إلا فى عصرنا هذا بعد نزول القرآن بخمسة عشر قرنا من الزمان وبعد اختراع أدق الأجهزة فإن ذلك يضع كل إنسان أمام حقيقة لا شك فيها وهى أن القرآن الكريم كلام الله المعجز ،** =

الا لا بارك الله في سهيل إذا ما الله بارك في الرجال (١)

والرحمن الرحيم : اسمان بنيا للمبالغة من رحم ، كالغضبان من غضب ، والعليم من علم ، والرحمة في اللغة : رقة القلب ، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان ، ومنه الرحم لانعطافها علي ما فيها وأسماء الله تعالي إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات والرحمن أبلغ من الرحيم ، لأن زيادة البناء تدل علي زيادة المعني كما في قَطَع وقَطّع وكبَّار وكبار ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية ، وأخري باعتبار الكيفية ، فعلي الأول قيل : يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن ، وعلي الثاني قيل : يا رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا ، لأن النعم الأخروية كلها جسام ، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة ، وإنما قدم والقياس يقتضي الترقي من الأدني إلي الأعلي ، لتقدم رحمة الدنيا ، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها ، وذلك لا يصدق علي غيره لأن من عداه فهو مستعيض بلطفه وإنعامه يريد به جزيل ثواب أو جميل ثناء أو مزيح رقة الجنسية أو حب المال عن القلب ، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها ، والقدرة علي إيصالها ، والداعية الباعثة عليه ، والتمكن من الانتفاع بها، والقوي التي بها يحصل الانتفاع ، إلي غير ذلك من خلقه لا يقدر عليها أحد غيره أو لأن الرحمن لما دل علي جلائل النعم وأوصلها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها ، فيكون كالتتمة والرديف له أو للمحافظة علي رؤوس الآى .

---

(١) البيت ذكره ابن منظور في لسان العرب مادة إله واستشهد به علي حذف ألف « الله » ضرورة قال : إنما أراد الله فقصر ضرورة .

* الإعجاز العلمى

= وأن المعجزات العلمية فى القرآن كثيرة وكثيرة وهى فى كل شىء من حولنا بل فى أنفسنا وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ .

ولو نظرت مثلا إلى سر خلق النطفة لوجدت أن ذلك لم يكن معروفا فى عصر نزول =

والأظهر أنه غير مصروف وأن حظر اختصاصه بالله تعالي أن يكون له مؤنث علي فعلي أو فعلاتة إلحاقا له بما هو الغالب في بابه وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور ، هو المعبود الحقيقي الذي هو مولي النعم كلها عاجلها وآجلها ، جليلها وحقيرها ، فيتوجه بشرِّ أشَرِه(١) إلي جناب القدس ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره .

﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ الحمد : هو الثناء علي الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها ، والمدح : هو الثناء علي الجميل مطلقا . تقول حمدت زيدا علي علمه وكرمه ، ولا تقول حمدته علي حسنه . بل مدحته . وقيل هما أخوان . والشكر : مقابلة النعمة قولا وعملا واعتقادا قال :

أفادَتْكُمُ النُّعْماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضَميرَ المُحجَّبا (٢)

فهو أعم منهما من وجه ، وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعمة، وأدل علي مكانها لخفاء الاعتقاد ، وما في آداب الجوارح من الاحتمال

---

(١) أشَرِه : الأَشَر البَطَر والاستكبار .
ولعل العبارة : « فلا يتوجه بِشَرِّ أشَرِه » وسقط حرف النفي من العبارة سهوا أو خطأ من الناسخ .

(٢) هذا البيت ذكره الزمخشري في الكشاف وذكر قبله بيتا هو :
وما كان شكري وافيا بنوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا
ولم ينسبهما لقائل .

* الإعجاز العلمى

القرآن وقبله بقرون وبعده بقرون كذلك ، ولم يكتشف العلماء شيئا من حقائق العلم فى علم الأجنة إلا فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ومازال العلم يكتشف الجديد من الحقائق العلمية .

لقد كانت الأفكار السابقة عن خلق الأجنة مخطئة تماما فقد ذهبوا إلى أن مني الرجل =

جعل رأس الشكر والعمدة فيه فقال عليه الصلاة والسلام : « **الحمد رأس الشكر ، وما شكر الله من لم يحمده** »(١) .

والذم نقيض الحمد والكفران نقيض الشكر . ورفعه بالابتداء وخبره لله وأصله النصب وقد قرئ به وإنما عدل عنه إلي الرفع ليدل علي عموم الحمد وثباته له دون تجدده وحدوثه . وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، والتعريف فيه للجنس ومعناه: الإشارة إلي ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو؟ أو للاستغراق ، إذ الحمد في الحقيقة كله له ، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالي: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾(٢) وفيه إشعار بأنه تعالي حي قادر مريد عالم . إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه . وقرئ الحمد لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلا لهما من حيث إنهما يستعملان معا منزلة كلمة واحدة .

﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ الرب في الأصل مصدر بمعني التربية : وهي تبليغ الشئ إلي كماله شيئا فشيئا ، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل . وقيل : هو نعت من ربَّه يربه فهو رب ، كقولك نم ينم فهو نم ، ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق علي غيره تعالى إلا مقيدا كقوله ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ (٣) والعالم اسم لما يعلم به ، كالخاتم والقالب ، غلب فيما يعلم به الصانع تعالي ، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض ، فإنها لإمكانها وافتقارها إلي مؤثر واجب لذاته تدل علي وجوده ، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة ، وغلب العقلاء منهم

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ١ ص ١٥٦ وقال : رواه البيهقي في الشعب وعبد الرزاق في الجامع عن عبد الله بن عمرو ، ورمز له بالحسن .
(٢) النحل ٥٣ . (٣) يوسف : ٥٠

* الإعجاز العلمي

يأتى من الدم وما إن يصل إلى نقطة دم من الحيض فى الرحم حتى تدب فيه الحياة ويخلق جنين حى . . وبعد اكتشاف الدورة الدموية توصل العلماء إلى أن منى الرجل لا يأتى من الدم مباشرة كما اعتقد السابقون لهم ولكنه يأتى من الغدد التناسلية فى جسم الرجل ، كذلك توصلوا إلى أن الجنين لا ينشأ من دم الحيض ولكنه ينشأ من تلقيح بويضة من الأم =

فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين ، وتناوله لغيرهم علي سبيل الاستتباع . وقيل : عني به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث انه يشتمل علي نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعْلَمُ بها الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم الكبير ، ولذلك سوي بين النظر فيهما ، وقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) . وقرئ رب العالمين بالنصب علي المدح أو النداء أو بالفعل الذي دل عليه الحمد ، وفيه دليل علي أن الممكنات كما هي مفتقرة إلي المحدث حال حدوثها فهي مفتقرة إلي المبقي حال بقائها .

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كرره للتعليل على ما سنذكره .

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قراءة عاصم والكسائي ويعقوب ويعضده قوله تعالي : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (٢) . وقرأ الباقون : مَلِك وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله تعالي : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ (٣) . ولما فيه من التعظيم والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك . والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك وقرئ ملك بالتخفيف وملك بلفظ العمل . ومالكا بالنصب علي المدح أو الحال ، ومالك بالرفع منونا ومضافا علي أنه خبر مبتدأ محذوف ، وملك مضافا بالرفع والنصب . ويوم الدين يوم الجزاء ومنه « كما تدين تدان » وبيت الحماسة (٤) :

---

(١) الذاريات : ٢١ (٢) الانفطار : ١٩ . (٣) غافر : ١٦ .

(٤) البيت للشاعر الجاهلي الفِنْد الزماني وهو شهل بن شيبان بن ربيعة من قصيدة مطلعها :

صفحنا عن بني ذُهْلٍ وقلنا القوم إخوان

* الإعجاز العلمي

بحيوان منوى من الأب وبذلك تنشأ النطفة التي سرعان ما تنمو وتكبر فى رحم الأم .

ولاحظ العلماء أن تكوين الجنين فى كل نوع من الكائنات الحية من حيوان وطير وحشرة ونبات كلها بنفس النظام المحكم .. مما يدل على وحدة نظام الخلق فى هذا الوجود الذى يقوم دليلا واضحا على وحدانية الخالق تعالى ... إن الحيوانات المنوية =

ولم يبق سوي العدوا ن دناهم كما دانوا

أضاف اسم الفاعل إلي الظرف إجراء له مجري المفعول به علي الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار ، ومعناه ، ملك الأمور يوم الدين علي طريقة ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ (١) أوله الملك في هذا اليوم ، علي وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة ، وقيل الدين : الشريعة ، وقيل : الطاعة . والمعني يوم جزاء الدين ، وتخصيص اليوم بالإضافة : إما لتعظيمه ، أو لتفرده تعالي بنفوذ الأمر فيه ، وإجراء هذه الأوصاف علي الله تعالي من كونه موجدا للعالمين ربا لهم منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها ، مالكا لأمورهم يوم الثواب والعقاب ، للدلالة علي أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه علي الحقيقة سواه ، فإن ترتيب الحكم علي الوصف يشعر بعليته له ، وللإشعار من طريق المفهوم علي أن من لم يتصف بعليته له ، وللإشعار من طريق المفهوم علي أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد فضلا عن أن يعبد ، فيكون دليلا علي ما بعده ، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد ، وهو الإيجاد والتربية . والثاني والثالث للدلالة علي أنه متفضل بذلك مختار فيه ، ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتي يستحق به الحمد . والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما ، وتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميز عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ، أي : يا من

---

(١) الأعراف : ٤٤ .

*** الإعجاز العلمي**

والبويضات وتلك الحقائق العلمية الدقيقة لم تكن معروفة قط قبل القرن الثامن عشر ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة التى لا تعرف إلا بالميكروسكوب قبل اختراعه بأكثر من أحد عشر قرنا من الزمان وذلك قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ لقد نزلت هذه الآية الكريمة تتحدى علم الإنسان =

هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل علي الاختصاص ، وللترقي من البرهان إلي العيان والانتقال من الغيبة إلي الشهود ، فكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهدا والغيبة حضورا ، بني أول الكلام علي ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه علي عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفي بما هو منتهي أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عيانا ويناجيه شفاها .

اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلي آخر تطرية له وتنشيطا للسامع ، فيعدل من الخطاب إلي الغيبة ، ومن الغيبة إلي التكلم وبالعكس ، كقوله تعالي : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (١) وقوله ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ (٢) وقول امرئ القيس (٣) :

---

(١) يونس : ٢٢ . (٢) فاطر : ٩

(٣) امرؤ القيس : شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ، ونسبته إليه خطأها ابن هشام وصوبه بأن نسبه إلى امرئ القيس بن عابس الصحابي ، وقال بعضهم هو لعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

والأثمد على وزن أحمد اسم موضع .

والعائر : اسم جامد يطلق على قذي تدمع منه العين ، وعلى الرمد وعلى كل ما أمرض العين.

وأبو الأسود كنية عن الشاعر وهو ظالم بن عمرو ، وهو أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو المشهور .

وقيل : إن الأسود صفة لأبي ، ويكون أبي مضافا إلي ياء المتكلم ، وهناك روايه للبيت هي بني الأسود . ـ راجع تعليق محقق الكشاف ـ .

* الإعجاز العلمى

في زمن كان الاعتقاد فيه أن الجنين يخلق من نقطة دم حيض . . إنها آية كريمة تعلم الإنسان بحقيقة خلقه قبل أن يعلم الإنسان شيئًا صحيحا عنها بأكثر من ألف ومائتى عام .

وتأمل هذه الآيات القرآنية الكريمة .

قال تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ الفرقان : ٢ .

تطاوَل ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقُـــد
وبات وباتت له ليلـةٌ كليلة ذي العائر الأرمدِ
وذلك من نبأ جاءَني وَخبرته عن أبي الأسودِ

وإيا ضمير منصوب منفصل وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب ، كالتاء في أنت والكاف في أرأيتك . وقال الخليل : إيا مضاف إليها واحتج بما حكاه عن بعض العرب

إذا بلغ الرجل الستين فاياه وإيا الشواب .

وهو شاذ لا يعتمد عليه . وقيل : هي الضمائر ، وإيا عمدة فأنها لما فصلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فضم إليها إيا لتستقل به ، وقيل : الضمير هو المجموع . وقرئ أياك بفتح الهمزة وهياك بقلبها هاء .

والعبادة : أقصي غاية الخضوع والتذلل ومنه طريق معبد أي مذلل ، وثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة (١) ، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالي .

والاستعانة : طلب المعونة وهي إما ضرورية أو غير والضرورية مالا يتأتي الفعل دونه كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها وعند استجماعها يوصف الرجل بالاستطاعة ويصح أن يكلف بالفعل وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر علي المشي أو يقرب الفاعل إلي الفعل ويحثه عليه ، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف والمراد طلب المعونة في المهمات كلها ، أو في أداء العبادات ، والضمير المستكن في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة ، وحاضري صلاة الجماعة . أوله ولسائر الموحدين . أدرج عبادته

(١) الصفاقة : يقال صَفُق الثوب صفاقة : أي كثف نسجه .

*** الإعجاز العلمى**

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ القمر : ٤٩ .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ الطلاق : ٣ .

﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ الرعد ٨ .

﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ الحجر : ١٩ .

في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها ، ولهذا شرعت الجماعة .

وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة علي الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما (معناه نعبدك ولا نعبد غيرك) وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه علي أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلي المعبود أولا وبالذات ، ومنه إلي العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة سنية بينه وبين الحق ، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه ، حتي إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومنتسبة اليه ، ولذلك فضل ما حكي الله عن حبيبه حين قال ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (١) . علي ما حكاه عن كليمه حين قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢) . وكرر الضمير للتنصيص علي أنه المستعان به لا غير ، وقدمت العبادة علي الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي ، ويعلم منه أن تقديم الوسيلة علي طلب الحاجة أدعي إلي الإجابة .

وأقول : لما نسب المتكلم العبادة إلي نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه ، فعقبه بقوله وإياك نستعين ليدل علي أن العبادة أيضا مما لا يتم ولا يستتب له إلا بمعونة منه وتوفيق ، وقيل : الواو للحال والمعني نعبدك مستعينين بك . وقرئ بكسر النون فيهما وهي لغة بني تميم فإنهم يكسرون حروف المضارعة سوي الياء إذا لم ينضم ما بعدها .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال : كيف أعينكم

---

(١) التوبة : ٤٠ . (٢) الشعراء : ٦٢ .

*** الإعجاز العلمى**

= **إن هذه الآيات وغيرها كثير تدل على الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وتدلنا أيضا على أن الله سبحانه وتعالى إنما ينشر النظام والانسجام بقوانينه وسننه أما الإنسان فينشر الاضطراب والفوضى والتلوث بعقله وفعله .**

إن هناك سننا كونية تعمل وتجرى فى خفاء وتعمل دائبة على حفظ التوازن العجيب =

فقالوا اهدنا . أو إفراد لما هو المقصود الأعظم . والهداية دلالة بلطف ولذلك تستعمل في الخير وقوله تعالي ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (١) وارد علي التهكم . ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها ، والفعل منه هدي ، وأصله أن يعدي باللام ، أو إلي ، فعومل معاملة اختار في قوله تعالي ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ (٢) وهداية الله تعالي تتنوع أنواعا لا يحصيها عد كما قال تعالي : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (٣) ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة :

الأول إفاضة القوي التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلي مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة .

والثاني نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد وإليه أشار حيث قال ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٤) وقال ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ (٥) .

والثالث الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإياها عني بقوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (٦) وقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾(٧) .

والرابع أن يكشف علي قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي ، أو الإلهام والمنامات الصادقة ، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عني

---

(١) الصافات : ٢٣ . (٢) الأعراف : ١٥٥ .

(٣) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ . (٤) البلد : ١٠ . (٥) فصلت : ١٧ .

(٦) الأنبياء : ٧٣ . (٧) الإسراء : ٩ .

*** الإعجاز العلمي**

= **المعجز للمخلوقات ، حتى يتقوى الضعيف ويضعف القوى ، وحتى لا تطغى قوة على قوة ، ولا تبتلع حضارة حضارة ولا يفنى نوع من الأحياء نوعا آخر .**

ترى مثلا لذلك فى عالم الحشرات فكلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلاتها أوجد الله لها عدوا طبيعيا يلتهمها ليعود التوازن إلى البيئة ولتجد جميع المخلوقات فرصا متكافئة =

بقوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (١) وقوله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدي ، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه . فإذا قاله العارف بالله الواصل عني : أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا ، وتميط غواشي أبداننا ، لنستضئ بنور قدسك فنراك بنورك . والأمر والدعاء يتشاركان لفظا ومعني ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل ، وقيل : بالرتبة .

والسراط : من سرط الطعام إذا ابتلعه فكأنه يسرط السابلة . ولذلك سمي لقما لأنه يلتقمهم . والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء في الإطباق . وقد يشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلي المبدل منه . وقرأ ابن كثير برواية قنبل عنه ، ورويس عن يعقوب بالأصل ، وحمزة بالإشمام ، والباقون بالصاد وهو لغة قريش ، والثابت في الإمام (٣) وجمعه سُرُطْ ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث .

والمستقيم : المستوي والمراد به طريق الحق وقيل : هو ملة الإسلام .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بدل من الأول بدل الكل ، ، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته التوكيد والتنصيص علي أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة علي آكد وجه وأبلغه لأنه جعل كالتفسير والبيان له فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون

---

(١) الأنعام : ٩٠ . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) الإمام : أي المصحف الإمام الذي كتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه . وفيه الصراط بالصاد لا بالسين .

*** الإعجاز العلمي**

= للحياة..وهذا ما نراه فى جنوب السودان حيث يتوالد البعوض بكثرة هائلة فى الأماكن الموبوءة بالملاريا فتظهر لها حشرة مضادة هي الحباحب المضيئة التى تغطى الأشجار بالملايين وتضيئ لتجذب البعوض وتأكله وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر ٤٩] وحينما تدخل الإنسان بالمبيدات الحشرية فإنه أخل بهذا التوازن الدقيق وأدى =

طريق المؤمنين . وقيل الذين أنعمت عليهم : الأنبياء ، وقيل : النبي ﷺ وأصحابه وقيل : أصحاب موسي وعيسي عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ . وقرئ صراط من أنعمت عليهم . والإنعام : إيصال النعمة ، وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين ، ونعم الله وإن كانت لا تحصي كما قال ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (١) تنحصر في جنسين : دنيوي وأخروي .

والأول قسمان : وهبي وكسبي والوهبي قسمان : روحاني كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوي كالفهم والفكر والنظر ، وجسماني كتخليق البدن والقوي الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء، والكسبي تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والملكات الفاضلة ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلي المستحسنة وحصول الجاه والمال .

والثاني أن يغفر له ما فرط منه ويرضي عنه ويبوئه(٢) في أعلي عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين والمراد هو القسم الأخير وما يكون وصلة إلي نيله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر .

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ بدل من الذين علي معني أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال أو صفة له مبينة أو مقيدة علي معني أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهي نعمة الإيمان ، وبين السلامة من الغضب والضلال وذلك إنما يصح بأحد تأويلين ، إجراء الموصول مجري النكرة إذا لم يقصد به معهود كالحلي في قوله :

---

(١) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ . (٢) يبوئه : ينزله .

* الإعجاز العلمي

= **بتدخله إلى كارثه تلوث البيئة . . . وذلك لأن المبيدات قتلت الحشرات ، وقتلت الطيور التى تأكل الحشرات ولوثت الحشائش والمزروعات ، وأمرضت البهائم التى ترعى هذه الحشائش ثم أمرضت الإنسان الذى يأكل لحوم تلك البهائم ، كما لوثت مجارى الماء وقتلت الأسماك ، فأفسدت البيئة كلها وأتلفت علاقاتها بضربة واحدة .. ثم إنها قتلت** =

ولَقَد أمرُّ علي اللئيمِ يَسبُّني (١)

وقولهم : إني لأمر علي الرجل مثلك فيكرمني . أو جعل غير معرفة بالإضافة لأنه أضيف إلى ماله ضد واحد وهو المنعم عليهم ، فيتعين تعين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نصبه علي الحال من الضمير المجرور والعامل أنعمت أو باضمار أعني أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين ، والغضب : ثوران النفس إرادة الانتقام ، فإذا أسند إلي الله تعالي أريد به المنتهي والغاية علي ما مر ، **وعليهم** في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول ، ولا مزيدة لتأكيد ما في غير من معني النفي ، فكأنه قال : لا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب ، كما جاز أنا زيدا لا ضارب ، وإن امتنع أنا زيدا مثل ضارب .

وقرئ وغير الضالين : والضلال : العدول عن الطريق السوي عمدا أو خطأ ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير .

قيل : المغضوب عليهم اليهود لقوله تعالي فيهم ﴿ **مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ** ﴾(٢) والضالين : النصاري لقوله تعالي ﴿ **قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً** ﴾(٣) وقد روي مرفوعا ، ويتجه أن يقال : المغضوب عليهم العصاة والضالين

---

(١) صدر بيت عجزه هو :

فمضيت ثمت قلت لا يعنيني .

وبعده :

غضبان ممتلئ عليَ إهابه إني وربِّكَ سخطه يرضيني

وهذان البيتان لرجل من سلول ـ من تعليق محقق الكشاف ـ .

(٢) المائدة : ٦٠ . (٣) المائدة : ٧٧ .

* الإعجاز العلمي

= الحشرة الضارة والحشرة المفيدة معا .

وهذا هو الفرق بين الحكمة الإلهية والحماقة البشرية وبين علم الله الشامل وعلم الإنسان المحدود .

= **ألم نقل إن الله ينشر النظام والانسجام بقوانينه وسننه وأن الإنسان ينشر الاضطراب**

الجاهلون بالله ، لأن المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ، وكان المقابل له من اختل إحدي قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمدا ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ (١) . والمخل بالعقل جاهل ضال لقوله ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلال ﴾ (٢) . وقرئ : ولا **الضألين** بالهمزة علي لغة من جدفي الهرب من التقاء الساكنين .

﴿ **آمين** ﴾ اسم الفعل الذي هو استجب وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال : افعل بني علي الفتح كأين لالتقاء الساكنين ، وجاء مد ألفه وقصرها قال :

ويرحم الله عبدا قال آمينا (٣)

وقال :

أمين فزاد الله ما بيننا بعدا (٤)

---

(١) النساء : ٩٣ .

(٢) يونس : ٣٢ .

(٣) هذا عجز بيت لقيس بن الملوح العامري من أبيات له ، وصدر البيت هو :

يا رب لا تسلبني حبها أبداً

وكان قد اشتد وجده بمحبوبته ، فأخذه أبوه إلى الكعبة ليدعو ربه هناك بأن ينسيه حب ليلى . فدعا بعكس ذلك .

(٤) هذا عجز بيت لشاعر اسمه جُبَير ، وصدره هو :

تباعد عني فطحل إذ دعوته .

وكان فطحل الأسدي يعرض عن جبير حين يسأله أو يدعوه .

والشاهد في البيت قصر همزه أمين وعدم مدها .

*** الإعجاز العلمي**

= **والفوضى والتلوث بعقله وعمله تأمل الآيات الكريمة التى ذكرناها ودقق النظر في قوله تعالي: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ الفرقان : ٢ . وانظر إلى الأرض كيف قدرها الله بمقدار فى الكتلة والحجم والبعد المكانى عن الشمس وأن الأرض لو كانت أبعد لماتت الأحياء عليها من البرد ولو كانت أقرب لاحترقت من حرالشمس . . بل لو كانت الأرض** =

وليس[1] من القرآن وفاقا ، لكن يسن ختم السورة به لقوله ﷺ **« علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة وقال إنه كالختم على الكتاب »** [2] . وفي معناه قول علي رضي الله عنه : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده . يقوله الإمام ويجهر به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر **« أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته »** [3] .

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله ، و المشهور عنه أنه يخفيه كما رواه عبد الله بن مغفل وأنس ، والمأموم يؤمن معه لقوله ﷺ : **« إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »** [4] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي **« ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها : قال : قلت بلي يا رسول الله قال : فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »**[5] .

---

(١) أى ليس لفظ آمين من القرآن .

(٢) ذكره الكشاف في تفسيره بلفظ « لقنني جبريل » وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده هكذا ، وفي الدعاء لابن أبي شيبة قال : اقرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ فاتحة الكتاب ، فلما قال : ولا الضالين ، قال له قل : آمين، فقال آمين . وهكذا رواه السيوطي في الدر المنثور في التأثير بالمأثور .

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ٣٢ .

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ ١ ص ٣٣ .

(٥) رواه الترمذي والنسائي والحاكم من رواية عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

* الإعجاز العلمي

= أصغر حجما وكتلة لفقدت جوها وماءها (بسبب ضعف الجاذبية كما هو حال القمر) ولأصبحت الحياة مستحيلة . . . ولو كانت أكبر حجما وكتلة لتضاعفت الجاذبية ولتضاعف وزن الكائنات عليها ولما استطاعت الحركة .

= وقل مثل ذلك في موقع كل نجم فجميع الأجرام السماوية مرتبطة ببعضها البعض

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **بينما رسول الله ﷺ جالس إذ أتاه ملك فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتيهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته** »

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « **إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيسمعه الله تعالي فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة** » (١) .

---

(١) أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربعي عنه .

* الإعجاز العلمي

= ارتباط الحبات فى مسبحة ، واقرءوا قوله تعالي : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ الواقعة ٧٥ .

وسوف تقرأ أيها القارى الكريم عن هذه الآية وأمثالها الكثير والكثير فى كتابنا هذا .

ولو انتقلنا إلى قوله تعالى : ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ =

سورة البقرة مدنية
وآياتها ست وثمانون ومائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ وسائر الألفاظ التي يتهجي بها ، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم ، واعتوار ما يخص به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها ، وبه صرح الخليل وأبو علي . وما روي ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف** » فالمراد به غير المعني الذي اصطلح عليه ، فإن تخصيصه به عرف مجدَّد بل المعني اللغوي ، ولعله سماه باسم مدلوله .

ولما كانت مسمياتها حروفاً وحداناً وهي مركبة ، صدرت بها لتكون تأديتها بالمسمي أول ما يقرع السمع ، واستعيرت الهمزة مكان الألف لتعذر الابتداء بها وهي ما لم تلها العوامل موقوفة خالية عن الإعراب لفقد موجبه ومقضيه ، لكنها قابلة إياه ومعرضة له إذ لم تناسب مبني الأصل ولذلك قيل ﴿ ص ﴾ و ﴿ ق ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين ولم تعامل معاملة (أين) و(هؤلاء) . ثم إن مسمياتها لما كانت عنصر الكلام وبسائطه التي يتركب منها ، افتتحت السورة بطائفة منها

*** الإعجاز العلمي**

الذاريات : ٤٩ ، فإنك ستجد هذا فى جميع خلق الله سبحانه وتعالى فالحيوانات كلها من ذكر وأنثى . . والحشرات كلها من ذكر وأنثى . . . والنبات كله من ذكر وأنثي . . ولا يوجد مخلوق من ذكر دون أنثى . . أو من أنثى دون ذكر إلا فى المعجزات التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت فيها طلاقة قدرته فى الكون وفى الخلق . . أما غير ذلك فكل =

إيقاظاً لمن تحدي بالقرآن وتنبيهاً علي أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم ، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه ، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز ، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس ، فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة سيما وقد راعي في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه ، وهو أنه أورد في هذه الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصف أسامي حروف المعجم ، إن لم يعد فيها الألف حرفاً برأسها في تسع وعشرين سورة بعددها إذا عد فيها الألف الأصلية مشتملة على أنصاف أنواعها، فذكر من المهموسة وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها « ستشحثك خصفه » نصفها الحاء والهاء والصاد والسين والكاف ، ومن البواقي المجهورة نصفها يجمعه « لن يقطع أمر » . ومن الشديدة الثمانية المجموعة في (أجدت طبقك) أربعة يجمعها (أقطك) . ومن البواقي الرخوة عشرة يجمعها « خمس علي نصره » ، ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها ، ومن البواقي المنفتحة نصفها ، ومن القلقلة وهي : حروف تضطرب عند خروجها ويجمعها (قد طبج) نصفها الأقل لقلتها ، ومن اللينتين الياء لأنها أقل ثقلاً ، ومن المستعلية وهي : التي يتصعد الصوت بها في الحنك الأعلي ، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء نصفها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفها ، ومن حروف البدل وهي أحد عشر على ما ذكره سيبويه ، واختاره ابن جني ويجمعها « أحد طويت » منها الستة الشائعة المشهورة التي يجمعها « أهطمين » وقد زاد بعضهم سبعة أخرى وهي اللام في (أصيلال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجداف) والعين في

*** الإعجاز العلمي**

= شيء في الكون مخلوق من ذكر وأنثى ، ولا بد من التلقيح للإنجاب . . والعلم الحديث قد وصل إلى ذلك أخيرا . . . بحيث إنهم إذا أرادوا القضاء على آفة من الآفات أو حشرة من الحشرات فإنهم إما أن يقضوا على الذكور وإما أن يقضوا على الإناث فتنقرض الحشرة أو الآفة . . ولو بقى ذكر وأنثى لعادت الآفة أو الحشرة من جديد وصدق الله =

(أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في « باسمك » حتي صارت ثمانية عشر وقد ذكر منها تسعة الستة المذكورة واللام والصاد والعين . ومما يدغم في مثله ولا يدغم في المقارب وهي خمسة عشر : الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزاي والواو نصفها الأقل . ومما يدغم فيهما وهي الثلاثة عشر الباقية نصفها الأكثر : الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون لما في الإدغام من الخفة والفصاحة ، ومن الأربعة التي لا تدغم فيما يقاربها ويدغم فيها مقاربها وهي : الميم والزاي والسين والفاء نصفها .

ولما كانت الحروف الذلقيهَ التي يعتمد عليها بذلق اللسان وهي ستة يجمعها (رب منفل) والحلقية التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة ، كثيرة الوقوع في الكلام ذكر ثلثيهما . ولما كانت أبنية المزيد لا تتجاوز عن السباعية ذكر من الزوائد العشرة التي يجمعها (اليوم تنساه) سبعة أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقريت الكلم وتراكيبها وجدت الحروف المتروكة من كل جنس مكثورة بالمذكورة ثم إنه ذكرها مفرده وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، إيذاناً بأن المتحدي به مركب من كلماتهم التي أصولها كلمات مفردة ، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة ، وذكر ثلاث مفردات في ثلاث سور لأنها توجد في الأقسام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف وأربع ثنائيات لأنها تكون في الحرف بلا حذف « كبل » ، وفي الفعل بحذف ثقل كقل . وفي الاسم بغير حذف كمن ، وبه كدم في تسع سور لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة علي ثلاثة أوجه : ففي الأسماء من وإذ وذو . وفي الأفعال قل وبع وخف . وفي الحروف من وإن ومذ على لغة من جربها . وثلاث ثلاثيات لمجيئها في الأقسام الثلاثة في ثلاث عشرة

*** الإعجاز العلمي**

= **العظيم إذ يقول ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ النجم : ٤٥ .**

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ لقمان : ٣٤ . لقد قال بعض الناس إن العلم الحديث قد كشف ما في الأرحام . . لأن الأشعة تستطيع الآن أن تكتشف ما فى بطن المرأة وهي حامل قبل أن تلد وتحدد نوع الجنين إن كان ذكرا أو أنثى ! ! . =

سورة تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملة ثلاثة عشر ، عشرة منها للأسماء ، وثلاثة للأفعال ، ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً : كجعفر وسفرجل ، وملحقاً : كقردد وجحنفل ، ولعلها فرقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكرير التنبيه والمبالغة فيه .

والمعني أن هذا المتحدي به مؤلف من جنس هذه الحروف . أو المؤلف منها ، كذا وقيل : هي أسماء للسور ، وعليه إطباق الأكثر . سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها، واستدل عليه بأنها لو لم تكن مفهمة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهمل و التكلم بالزنجي مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدي . ولما أمكن التحدي به وإن كانت مفهمة ، فإما أن يراد بها السور التي هي مستهلها على أنها ألقابها ، أو غير ذلك . والثاني باطل لأنه ؛ إما أن يكون المراد ما وضعت له في لغة العرب فظاهر أنه ليس كذلك ، أو غيره وهو باطل لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (١) فلا يحمل على ما ليس في لغتهم .

من أفهام المفسرين

لا يقال : لم لا يجوز أن تكون مزيدة للتنبيه ؟ والدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر ؟ كما قاله قطرب ، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتصرت عليها اقتصار الشاعر في قوله :

---

(١) الشعراء : ١٩٥ .

* الإعجاز العلمي

= وهذه مغالطة كبري لأن علم هؤلاء بنوعية الجنين إنما يكون بعد الحمل أما علم الله فإنما يكون قبل الحمل ونحن نريد من الذين يقولون إن العلم قد وصل إلى كذا وكذا أن يأتوا لنا بأكبر أطباء العالم بل بكل أطباء العالم كبيرهم وصغيرهم ليقولوا لنا قبل أن يتم الحمل إن هذه المرأة ستحمل وستلد مولوداً ذكرا أو أنثى ، طويلا أو قصيرا ، شقيا أم سعيدا ، =

قلتُ لها قفي فقالتْ قَافْ (١)

كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الألف آلاء الله ، واللام لفظه ، والميم ملكه . وعنه أن الر وحم ون مجموعها الرحمن . وعنه أن الم معناه : أنا الله أعلم ونحو ذلك في سائر الفواتح . وعنه أن الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد أى : القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام ، أو إلى مدد أقوام وآجال بحساب الجمل كما قال أبو العالية متمسكاً بما روي : «أنه عليه الصلاة والسلام لما أتاه اليهود تلا عليهم الم البقرة . فحسبوه وقالوا: كيف ندخل في دين مدته إحدي وسبعون سنة ، فتبسم رسول الله ﷺ فقالوا: فهل غيره ، فقال : المص والر والمر ، فقالوا : خلطت علينا فلا ندري بأيها نأخذ »(٢) . فان تلاوته إياها بهذا الترتيب عليهم وتقريرهم على استنباطهم دليل على ذلك ، وهذه الدلالة وإن لم تكن عربية لكنها لاشتهارها فيما بين الناس حتى العرب تلحقها بالمعربات كالمشكاة والسجيل والقسطاس ، أو دلالة على الحروف المبسوطة مقسماً بها لشرفها من حيث إنها بسائط أسماء الله تعالى ومادة خطابه .

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره ، وذكره ابن منظور في لسان العرب بلفظ : قلت لها : قفي لنا قالت : قاف .

أراد : قالت وقفت ، فاكتفى بذكر القاف . قال ابن جني : ولو نقل هذا الشاعر إلينا شيئا من جملة الحال فقال مع قوله (قالت قاف) : وأمسكت زمام بعيرها لكان أبين لما كانوا عليه وأدل .   راجع لسان العرب مادة وقف .

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ٢٩ ، وقال رواه ابن إسحاق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر .

* الإعجاز العلمي

- مكتملا أم سقطا . . ليبقى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ لونا من ألوان الإعجاز العلمى .

ويؤيد هذا ويؤكده قوله تعالى لزكريا : ﴿ إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾ آل عمران : ٣٩ .

هذا وإن القول بأنها أسماء السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب ، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكره عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمي ، ويستدعي تأخر الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخر عن المسمى بالرتبة ، لأنا نقول : إن هذه الألفاظ لم تعهد مزيدة للتنبيه والدلالة على الانقطاع والاستئناف يلزمها وغيرها من حيث إنها فواتح السور ، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم ، أما الشعر فشاذ ، وأما قول ابن عباس ، فتنبيه على أن هذه الحروف منبع الأسماء ومبادئ الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة ، ألا ترى أنه عد كل حرف من كلمات متباينة لا تفسير ، وتخصيص بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصص لفظاً ومعني ولا بحساب الجمل فتلحق بالمعربات ، والحديث لا دليل فيه ، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم ، وجعلها مقسماً بها وإن كان غير ممتنع لكنه يحوج إلى إضمار أشياء لا دليل عليها ، والتسمية بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بعلبك ، فأما إذا نثرت نثر أسماء العدد فلا ، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم ، والمسمي هو مجموع السورة والاسم جزؤها فلا اتحاد ، وهو مقدم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً ، فلا دور لاختلاف الجهتين ، والوجه الأول أقرب إلى التحقيق وأوفق للطائف التنزيل وأسلم من لزوم النقل ووقوع الاشتراك في الأعلام من واضع واحد فانه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعلمية ، وقيل : إنها أسماء القرآن ولذلك أخبر عنها بالكتاب والقرآن .

وقيل : إنها أسماء لله تعالى ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول : يا كهيعص ، وياحمعسق ، ولعله أراد يا منزلهما .

*** الإعجاز العلمي**

= إن الحق سبحانه وتعالى أنبأ زكريا قبل أن تحمل زوجته أنها ستحمل وستضع ولدا وسيكون سيدا ونبيا وصالحا وسيموت شهيداً لأن الله سبحانه وتعالى ما دام قد سماه يحيى فإن حياته تكون بلا موت فكانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يموت شهيدا لأن الشهداء حياتهم متصلة . . ونحن نخاطب الذين يقولون إن أحد المغيبات الخمسة قد =

وقيل الألف : من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج ، واللام : من طرف اللسان وهو أوسطها ، والميم : من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماء إلى أن العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى .

وقيل : إنه سر استأثره الله بعلمه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه ، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله تعالى ورسوله ورموز لم يقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد . فان جعلتها أسماء الله تعالى ، أو القرآن ، أو السور كان لها حظ من الإعراب إما الرفع على الابتداء ، أو الخبر ، أو النصب بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن بالنصب أو غيره كما ذكر ، أو الجر على إضمار حرف القسم ،ويتأتي الإعراب لفظاً والحكاية فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحم فإنها كهابيل ، والحكاية ليست إلا فيما عدا ذلك ، وسيعود إليك ذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى ، وإن أبقيتها على معانيها فإن قدرت بالمؤلف من هذه الحروف كان في حيز الرفع بالابتداء أو الخبر علي ما مر ، وإن جعلتها مقسماً بها يكون كل كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلن ، وتكون جملة قسمية بالفعل المقدر له ، وإن جعلتها أبعاض كلمات أو أصواتاً منزلة منزلة حروف التنبيه لم يكن لها محل من الإعراب كالجمل المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقف عليها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها ، وليس شيء منها آية عند غير الكوفيين . وأما عندهم فالم في مواضعها ، والمص وكهيعص وطه وطسم وطس ويس وحم آية ، وحمعسق آيتان ، والبواقي ليست بآيات وهذا توقيف لا مجال للقياس فيه .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ذلك إشارة إلى (الٓمٓ) إن أُوِّل بالمؤلف من هذه الحروف أو فسر بالسورة أو القرآن فإنه لما تكلم به وتقضي ، أو وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يشار به إلى البعيد وتذكيره ، متي أريد بـ (الٓمٓ) السورة

*** الإعجاز العلمى**

= انكشف . . وليأتوا لنا بأكبر علماء الدنيا . . هل فى استطاعتهم أن يقولوا لنا قبل أن تحمل المرأة . . أنها ستحمل . . وستلد مولوداً ذكراً . . وأن هذا المولود سيكون مهندسا =

لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو ، أو إلى الكتاب فيكون صفته والمراد به الكتاب الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (١) . أو في الكتب المتقدمة . وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة .

وقيل فعال بمعنى المفعول كاللباس ، ثم أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب لأنه مما يكتب . وأصل الكتب الجمع ومنه الكتيبة .

﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز ، لا أن أحداً لا يرتاب فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وإن كُنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾(٢) . الآية فإنه ما أبعد عنهم الريب بل عرفهم الطريق المُريح له ، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجم من نجومه ويبذلوا فيها غاية جهدهم حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة .

وقيل : معناه لا ريب فيه للمتقين . وهدى حال من الضمير المجرور ، والعامل فيه الظرف الواقع صفة للمنفي . والريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة ، وهي قلق النفس واضطرابها ، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة ، وفي الحديث « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة ، ومنه ريب الزمان لنوائبه .

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يهديهم إلى الحق ، والهدى في الأصل كالسري والتقي ومعناه الدلالة .

وقيل : الدلالة الموصلة إلى البغية لأنه جعل مقابل الضلالة في قوله تعالى ﴿ لَعَلَىٰ

---

(١) المزمل : ٥ . (٢) البقرة : ٢٣ .

*** الإعجاز العلمي**

- أو طبيبًا أو معلما أو أى شيء آخر . . وأن يحددوا لنا كيف سيموت ومتي ؟

تأمل ودقق النظر معي في قوله تعالي :

هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) ولانه لا يقال مهدي إلا لمن اهتدى إلى المطلوب . واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر وبهذا الاعتبار قال تعالى ﴿ هدى للناس ﴾ أو لانه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات ، وتعرف النبوات . لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة ، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢) . ولا يقدح ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفك عن بيان يعين المراد منه .

والمتقي اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقي . والوقاية : فرط الصيانة . وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة ، وله ثلاث مراتب :

الأولى : التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾(٣) .

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتي الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ (٤) .

والثالثة : أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشره وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ (٥) وقد

---

(١) سبأ : ٢٤ . (٢) الإسراء : ٨٢ .
(٣) الفتح : ٢٦ . (٤) الأعراف : ٩٦ .
(٥) آل عمران : ١٠٢ .

*** الإعجاز العلمي**

﴿ فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ﴾ ١٤ المؤمنون

لقد كان العلماء قديما يعتقدون أن الجنين خلق أولا قطعة من اللحم ثم ظهر العظم

فسر قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة .

واعلم أن الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب : أن يكون الٓمٓ مبتدأ على أنه اسم للقرآن . أو السورة . أو مقدر بالمؤلف منها ، وذلك خبره وإن كان أخص من المؤلف مطلقاً ، والأصل أن الأخص لا يحمل على الأعم لأن المراد به المؤلف الكامل في تاليفه البالغ أقصى درجات الفصاحة ومراتب البلاغة والكتاب صفة ذلك .

وأن يكون (الٓمٓ) خبر مبتدأ محذوف وذلك خبراً ثانياً . أو بدلاً والكتاب صفته، ولا ريب في المشهورة مبني لتضمنه معنى من منصوب المحل على أنه اسم لا النافية للجنس العاملة عمل إنَّ ، لأنها تقتضيها ولازمة للأسماء لزومها . وفي قراءة أبي الشعثاء مرفوع بلا التي بمعني ليس وفيه خبره ولم يقدم كما قدم في قوله تعالى : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [1] لأنه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمة، أو صفته وللمتقين خبره . وهدى نصب على الحال ، أو الخبر محذوف كما في لا ، ضمير . فلذلك وقف على لا ريب ، على أن فيه خبر هدى قدم عليه لتنكيره والتقدير : لا ريب فيه ، فيه هدي ، وأن يكون ذلك مبتدأ والكتاب خبره على معنى : أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتاباً ، أو صفته وما بعده خبره والجملة خبر (الٓمٓ) .

والأولى أن يقال إنها جمل متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يدخل العاطف بينهما .فـ (الٓمٓ) ، جملة دلت علي أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم ، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدي ، ولا ريب فيه ، جملة ثالثة تشهد على كماله بأن الكتاب المنعوت بغاية الكمال إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين . وهدى للمتقين ، بما يقدر له مبتدأ جملة رابعة تؤكد كونه

---

(١) الصافات : ٤٧ .

• الإعجاز العلمي

- بعدذلك والصواب خلاف ذلك وهو ماذكره القرآن في الآية السابقة إذ أن الجنين في الأربعين يوما الأولي يكون في مرحلة العلقة وفي الأربعين يوما الثانية يدخل في مرحلة

حقاً لا يحوم الشك حوله بأنه هدى للمتقين ، أو تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، وبيانه أنه لما نبه أولاً على إعجاز المتحدي به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته ، استنتج منه أنه الكتاب البالغ حد الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة ، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين ، وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل ، وفي الثانية فخامة التعريف ، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إيهام الباطل ، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة وإيراده منكراً للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية تسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة مقيدة له إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية [1] ، والتصوير على التصقيل . أو موضحة إن فسر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [2] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « **الصلاة عماد الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام** » [3] . أو مسوقة للمدح بما تضمنه المتقين . وتخصيص الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهار لفضلها على سائر ما يدخل

---

(١) ترتب التحلية على التخلية : يقصد أن القلب لما تخلي عن غير الله أصبح صالحًا أن يُحَلىً بذكر الله والإيمان به .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث آخره والصلاة عماد الدين ، وأخرجه

* الإعجاز العلمي

= المضغة وفي هذه المرحلة لاتوجد فيه خلايا عظمية أو خلايا عضلية ..وتظهر الخلايا العضلية بعد الأربعين يوما الثانية وتظهر أول ما تظهر بجوار فقرات العمود الفقري في =

تحت اسم التقوى على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعنى أو هم الذين . وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء وخبره أولئك على هدى ، فيكون الوقف على المتقين تاما .

والإيمان في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذ من الأمن ، كأن المصدق آمن المصدَّق من التكذيب والمخالفة ، وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث إن الواثق بالشيء صار ذا أمن منه ، ومنه ما أمنت أن أجد صحابة وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب .

وأما في الشرع : فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، ومجموع ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج . فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ،ومن أخل بالإقرار فكافر ، ومن أخل بالعمل ففاسق وفاقاً ، وكافر عند الخوارج ، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة ، والذي يدل على أنه التصديق وحده أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال : ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ (١) ، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (٢) ، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (٣) ، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (٤) ، وعطف عليه العمل

= الاصبهاني في الترغيب والترهيب بلفظ : الصلاة عماد الإسلام .

وحديث « الزكاة قنطرة الإسلام » رواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وفي إسناده ضعف ـ من تعليق محقق الكشاف .

ورواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩ ، وقال رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ورمز له بالحسن .

(١) المجادلة : ٢٢ . (٢) النحل : ١٠٦ .

(٣) المائدة : ٤١ . (٤) الحجرات ١٤ .

*** الإعجاز العلمي**

= الجسم وتظهر العظام أولا ثم تظهرالعضلات بعد ذلك .. لأن العضلان لابد أن تتصل بالعظام فلامعني لوجودها إلا بوجود العظام .. لذلك يخلق الله تعالي العظام أولا ثم يخلق =

الصالح في مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصي فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (٢) ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (٣) مع ما فيه من قلة التغيير فإنه أقرب إلى الأصل وهو متعين الإرادة في الآية ، إذ المعدي بالباء هو التصديق وفاقاً . ثم اختلف في أن مجرد التصديق بالقلب هل هو كاف لأنه المقصود أم لا بد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه ، ولعل الحق هو الثاني لأنه تعالى ذم المعاند أكثر من ذم الجاهل المقصر ، وللمانع أن يجعل الذم للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه .

والغيب مصدر ، وصف به للمبالغة كالشهادة في قوله تعالى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (٤) والعرب تسمى المطمئن من الأرض والخمصة التي تلى الكلية غيبا، أو فيعل خفف كقيل ، والمراد به الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٥) وقسم نصب عليه دليل : كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية ، هذا إذا جعلته صلة للإيمان وأوقعته موقع المفعول به . وإن جعلته حالاً على تقدير ملتبسين بالغيب كان بمعنى الغيبة والخفاء . والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذي آمنوا

---

(١) الحجرات : ٩ .
(٢) البقرة : ١٧٨ .
(٣) الأنعام: ٨٢ .
(٤) التوبة : ٩٤ ، الرعد : ٩ .
(٥) الأنعام : ٥٩ .

*** الإعجاز العلمي**

بعد ذلك العضلات ... إذن فالعظام تكونت أولا بالفقرات الظهرية ثم تكونت العضلات علي جانبيها ثم ظهرت عظام الأطراف فهاجرت العضلات إليها وكستها من

قالوا آمنًا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . أوعن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ هذه الآية . وقيل المراد بالعيب : القلب لأنه مستور ، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فالباء على الأول للتعدية . وعلى الثاني للمصاحبة . وعلى الثالث للآلة .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ أي يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها ، من أقام العود إذا قومه أو يواظبون عليها ، من قامت السوق إذا نفقت وأقمتها إذا جعلتها نافقة قال(١) :

أقَامتْ غزالةُ سُوقَ الضِّرابِ   لأهْلِ العِرَاقينِ حولاً قَمِيطا

فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه ، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه ، أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد ، وضده قعد عن الأمر ، وتقاعد . أو يؤدونها .

عبر عن الأداء بالإقامة لاشتمالها على القيام ، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح . والأول أظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب ، وأفيد لتضمنه التنبيه على أن الحقيق بالمدح من راعي حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن ،

---

(١) هذا القائل هو أيمن بن خزيم ،

وغزالة المذكورة في البيت هي امرأة شبيب الخارجي الذي قتله الحجاج ، فأرادت زوجته أن تثأر له فحاربت الحجاج سنة كاملة ، فسوق الضراب مجاز عن ميدان الحرب ، أو شبه المطاعنة بالرماح ، والمضاربة بالسيوف بالأمتعة التي تباع وتشتري في السوق والمقصود بالعراقين : البصرة والكوفة وكان الحجاج واليا عليهما . والقميط : التام الكامل .

من تعليق محقق الكشاف .

*** الإعجاز العلمي**

= **كل اتجاه . . ولايمكن أن يخلق اللحم قبل العظم في الجنين لأن وظيفة العضلة الحركية هي أن ترتبط بعظمتين بينهما مفصل ، إذ انقبضت أو انبسطت تحركِ ذلك المفصل ، فإذا لم** =

وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى ؛ لا المصلون الذي هم عن صلاتهم ساهون ، ولذلك ذكر في سياق المدح والمقيمين الصلاة ، وفي معرض الذم فويل للمصلين ، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا كالزكاة من زكي ، كتبتا بالواو على لفظ المفخم ، وإنما سمي الفعل المخصوص بها لا شتماله على الدعاء .

وقيل : أصل صلي حرك الصَّلْوَين (١) لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده ، واشتهار هذا اللفظ في المعني الثاني مع عدم اشتهاره في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مصلياً تشبيهاً له في تخشعه بالراكع الساجد .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ الرزق في اللغة : الحظ قال تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢) . والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه .

وأما المعتزلة لما استحالوا على الله تعالى أن يمكن من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه ، قالوا : الحرام ليس برزق ، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلي نفسه إيذاناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق . فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح . وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ (٣) وأصحابنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريض على الإنفاق ، والذم لتحريم ما لم يحرم . واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة . وتمسكوا لشمول الرزق له بقوله ﷺ في حديث عمرو بن قرة :

---

(١) الصلوين : مثني صَلاً وهو العضو الذي على يمين الذَّنَب وشماله ، وهما صلوان بالنسبة للفرس ، وبالنسبة للإنسان : وسط الظهر ، وقيل : ما انحدر من الوركين .

(٢) الواقعة : ٨٢ . (٣) يونس : ٥٩ .

*** الإعجاز العلمي**

= تكن العظام موجودة فلامعني لوجود العضلات . .إنها حقيقة لم يكتشفها علماء الأجنة إلا في القرن الحالي فقط ولنا وقفة نشرح هذه الآية بالتفصيل حين نتعرض لها في مكانها . =

« لقد رزقك الله طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله » . وبأنه لو لم يكن رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً ، وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (١) .

وأنفق الشيء وأنفده أخوان ، ولو استقريت الألفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج ، والظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير من الفرض والنفل . ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها، وتقديم المفعول للاهتمام به وللمحافظة على رؤوس الآي ، وإدخال من التبعيضية عليه لمنع المكلف عن الإسراف المنهي عنه . ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التي أتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : « إن علماً لا يقال به ، ككنز لا ينفق منه » . وإليه ذهب من قال : ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه ، معطوفون على الذين يؤمنون بالغيب ، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصين تحت أعم (٢) ، إذ المراد بأولئك الذي آمنوا عن شرك وإنكار ، وبهؤلاء مقابلوهم فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . أو على المتقين وكأنه قال هدى

---

(١) هود : ٦ .

(٢) دخول أخصين تحت أعم : الأعم هم المتقون والأحصان هما الذين يؤمنون بالغيب .... والذين يؤمنون بما أنزل إليك ....

*** الإعجاز العلمي**

بل تأمل قوله تعالي في نفس الآية ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ لتقف علي الحقيقة المبهرة وكيف أن الأجنة في الفقاريات جميعا بعد مرحلة خلق العظام واللحم تكون متشابهة في المظهر الخارجي إلي حد بعيد.

للمتقين عن الشرك ، والذين آمنوا من أهل الملل . ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم ، ووسّط العاطف كما وسط في قوله :

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهمامِ وليْثِ الكتيبةِ في المزْدَحمْ(١)

وقوله :

يالهفَ ذؤابة للحارثِ الصَـ ـائـحِ فـالـغَـانم فـــالآيـب(٢)

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع . وكرر الموصول تنبيهاً على تغاير القبيلين وتباين السبيلين . أو طائفة منهم وهو مؤمنو أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم .

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها ، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يلتقفه الملك من الله

---

(١) القرم ـ بفتح القاف ـ أصله الفحل الكريم واستعير للسيد الرئيس ، أو للفارس البطل ، والمزدحم : ميدان المعركة .

(٢) جاء هذا البيت في الكشاف هكذا :

يا لهف زيَّابَةَ للحارث الصابح فالغانم فالآيب

وجاء في التعليق عليه :

هو لابن زيابة في جواب الحارث بن هشام وبعده بيت هو :

والله لو لاقيته خاليا لآب سيفانا مع الغالب

وكان الحارث بن هشام قد قال له :

أيا ابن زيابة إن تلقني لا تلقني في النعم العازب

وتلقى يشد بي أجرد مستقدم البركة كالراكب

من تعليق الكشاف .

* الإعجاز العلمي

= ولايستطيع أي عالم أن يفرق في هذه المرحلة من خلق الجنين بين جنين سمكة أو جنين أرنب أو جنين دجاجة أو جنين إنسان فكلها أجنة تشبه بعضها بعضا في المظهر =

تعالى تلقفاً روحانياً ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول . والمراد ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ القرآن بأسره والشريعة عن آخرها ، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقباً تغليباً للموجود علي ما لم يوجد . أو تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع ، ونظيره قوله تعالى :﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ (١) . فإن الجنَّ لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنَزَّلاً حينئذ . وبما ﴿ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة ، والإيمان بهما جملةً فرض عين ، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض ، ولكن على الكفاية . لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش .

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي يُوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصاري ، وأن النار لم تمسهم إلا أياماً معدودة ، واختلافهم في نعيم الجنة : أهو من جنس نعيم الدنيا أو غيره ؟ وفي دوامه وانقطاعه، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب ، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان . واليقين : إتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً ، لذلك لا يوصف به علم البارئ ، ولا العلوم الضرورية . والآخر تأنيث الآخرة ، صفة الدار بدليل قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ (٢) فغلبت كالدنيا ، وعن نافع أنه خففها بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وقرئ يؤقنون بقلب الواو همزة لضم ما قبلها إجراء لها مجرى المضمومة في وجوه ووقتت ونظيره :

لحبُّ المؤقد إن إلى مؤسي وجعدة إذ أضاءهما الوقود(٣)

---

(١) الأحقاف : ٣٠ . (٢) القصص : ٨٣ .

(٣) هذا البيت لجرير يمدح هشام بن عبد الملك وابنه وابنته .

*** الإعجاز العلمي**

= **الخارجي..وبعد ذلك الطور من الخلق يدخل كل جنين منها في طور آخر ويكون في شكل مختلف مميز لنوع خلقه .. وحق لله أن يقول :﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن** =

الآيات من ٥ : ٩

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الجملة في محل الرفع إن جعل أحد الموصولين مفصولاً عن المتقين خبر له ، فكأنه لما قيل هدى للمتقين قيل ما بالهم خصوا بذلك؟ فاجيب بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إلى آخر الآيات . وإلا فاستئناف لا محل لها ، فكأنه نتيحة الأحكام والصفات المتقدمة . أو جواب سائل قال : ما للموصوفين بهذه الصفات اختصوا بالهدى ؟ ونظيره أحسنت إلى زيد صديقك القديم حقيق بالإحسان ، فإن اسم الإشارة ههنا كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة، وهو أبلغ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقتصي وتلخيصه ، فإن ترتب الحكم على الوصف إيذان بأنه الموجب له . ومعني الاستعلاء في ﴿ عَلَىٰ

= واللام في الحب : للقسم ، وحب أصلها حَبُبَ علي وزن ظَرُفَ ، نقلت حركة الباء إلى الحاء ثم أدغمت الباءان ، وأصبح الفعل يفيد المدح كنعم ، أو التعجب مثل ما أحبَّه !
والمؤقدان فاعل أو نائب فاعل وموسى وجعدة ولدا هشام ، وهما بدل من « المؤقدان » .
والموقدان أى المشعلان النار للقرى ، أو المضيئان كالنار .

من تعليق الكشاف باختصار .

* الإعجاز العلمى

= الخالقين ﴾ .

ولك أيضا أن تتأمل قوله تعالي عن الشمس والقمر : =

هُدًى ﴾ تمثيل تمكنهم من الهدي واستقرارهم عليه بحال من اعتلي الشيء وركبه ، وقد صرحوا به في قولهم : امتطي الجهل وغوي واقتعد غارب الهوي ،وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نصب من الحجج والمواظبة على محاسبة النفس في العمل . وَنُكِّرَ هدي للتعظيم . وكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره ، ونظيره قول الهذلي(١) .

بلا وأبي الطيرُ المرِبَّةَ بالضُّحَي   على خالد لقدْ وقَعْتَ على لحم

وأكد تعظيمه بأن الله تعالى مَانِحهُ والموفق له ، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ كرر فيه اسم الإشارة تنبيهاً على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحدة من الأثرتين وأن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم ، ووسط العاطف لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) ، فإن التسجيل بالغفلة والتشبيه بالبهائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررة للأولى فلا تناسب العطف . وهم : فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ، أو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك . والمفلح بالحاء والجيم : الفائز بالمطلوب ، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ، وهذا التركيب وما يشاركه في

---

(١) هو أبو كبير الهذلي معدود في الصحابة وهو من شعراء الهذليين .
وهذا البيت يرثي فيه خالد بن زهير وبعده بيت آخر هو :

فلا وأبي لا يأكل الطير مثله   عشية أمي لا يبين من السلم

ذكرهما معلق الكشاف .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

* **الإعجاز العلمي**

﴿ والنجم إذا هوي ﴾ النجم: ١ ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ يس : ٣٨ .

وأقول لك إن علماء الفلك ظلوا يعتقدون بأزلية النجوم حتي القرن التاسع عشر ، ولم يكتشف -

الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشق والفتح وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة . أو الإشارة إلي ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم .

تنبيه : تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله كل أحد من وجوه شتى ، وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسيط الفصل ، لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم ، وقد تشبث به الوعيدية [1] في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب ، ورد بأن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح ، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم ، لا عدم الفلاح له رأساً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لما ذكر خاصة عباده ، وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح ، عقبهم بأضدادهم العتاة المردة ، الذي لا ينفع فيهم الهدي ولا تغني عنهم الآيات والنذر ، ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾[2] لتباينهما في الغرض ، فإن الأولى سيقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم ، وإنهماكهم في الضلال و « إن » من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه . والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين . ولذلك أعملت عمله الفرعي وهو نصب جزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيل فيه .

وقال الكوفيون : الخبر قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية ، وهي بعد باقية مقتضية للرفع قضية للاستصحاب فلا يرفعه الحرف . وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع

---

(١) الوعيدية هم الخوارج ومن لف لفهم الذين يخلدون مرتكب الكبيرة في النار .

(٢) الانفطار : ١٣، ١٤

* **الإعجاز العلمي**

- علم الفلك حقيقة الأطوار التي تمر بها النجوم وأنها كبقية المخلوقات تولد وتنمو وتكبر وتهرم وتموت إلا في القرن العشرين بينما قد قدّر الله تعالي كما هو في الآيتين السابقتين

مشروط بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان ، وقد زال بدخولها فتعين إعمال الحرف . وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها ، ولذلك يُتَلَقَّي بها القسم ويصدر بها الأجوبة ، وتذكر في معرض الشك مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [١] ، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢] قال المبرد (قولك : عبد الله قائم ، إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم ، جواب سائل عن قيامه ، وإن عبد الله لقائم ، جواب منكر لقيامه) . وتعريف الموصول : إما معهد ، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب ، وأبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأحبار اليهود . أو للجنس ، متناولاً من صمم على الكفر ، وغيرهم . فخص منهم غير المصرين بما أسند إليه . والكفر لغة : ستر النعمة ، وأصله الكَفْر بالفتح وهو الستر ، ومنه قيل للزارع والليل كافر ، ولكمام الثمرة كافور ، وفي الشرع : إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به ، وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار [٣] ونحوهما كفرا لأنها تدل على التكذيب ، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترئ عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها .

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المخبر عنه ، وأجيب بأنه مقتضي التعلق وحدوثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم .

---

(١) الكهف : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الأعراف : ١٠٤ .

(٣) الغيار : البدال ، والمقصود استبدال زي الكفار بزي المسلمين . قال الأعشي :

فلا تحسبني لكم كافراً ولا تحسبني أريد الغيارا

والزُّنار والزّنارة ما يشد على وسط المجوسي والنصراني ، وفي التهذيب : ما يلبسه الذي يشده على وسطه ، والزُّنَّير لغة فيه ـ لسان العرب .

* الإعجاز العلمي

= وغيرهما كثير – بأن النجوم تموت وأن للشمس كبقية النجوم أجلاً مسمي تنتهي عنده .

لذافقد قال بعضهم تعليقا علي قوله تعالي ﴿ والنجم إذا هوي ماضل صاحبكم وما =

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ خبر إن وسواء اسم بمعني الاستواء ، نعت به كما نعت بالمصادر قال الله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [1] رفع بأنه خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل : إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه ، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى : إنذارك وعدمه سيان عليهم ، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ ، أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة ، والإسناد إليه كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا ﴾[2] وقوله ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [3] وقولهم : تَسْمَعُ بِالْمعِيديِّ خَيرٌ مِنْ أَنْ تَرَاه[4] .

وإنما عدل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد وحسن دخول الهمزة ، وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده ، فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء ، كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم : اللهم اغفرلنا أيتها العصابة .

= ويستفاد من هذا ضرورة المحافظة على الزي الإسلامي بالنسبة للرجال والنساء ، وهو الالتزام بمراعاة الحشمة وعدم التبذل والمحافظة على الوقار الذي دعا إليه الدين الحنيف .

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) البقرة: ١٣ .

(٣) المائدة : ١١٩ .

(٤) مثل ذكره الميداني في مجمع الأمثال جـ ١ ص ١١٦ وذكر له قصة طويلة .
قال : وأول من قاله المنذر بن ماء السماء قاله لرجل اسمه « شقة » تزدريه العين ، ولكنه صاحب منطق حسن ورأى حكيم فاعجب به المنذر وسماه ضمرة باسم أبيه ضمرة بن جابر .

*** الإعجاز العلمي**

= غوي وما ينطق عن الهوي ﴾ قال «إن الذي أقسم بموت النجوم قبل أن يتبين العلم ذلك بقرون جعل من هذا القسم دليلا علي صدق رسوله فالمنطق السليم إذا يفرض علينا =

والإنذار : التخويف أريد به التخويف من عذاب الله ، وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس ، من حيث إن دفع الضر أهم من جلب النفع ، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى ، وقريء أأنذرتهم بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين بين ، وقلبها ألفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تقلب ، ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده ، وبتوسيط ألف بينهما محققتين ، وبتوسيطها والثانية بين بين وبحذف الاستفهامية ، وبحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها .

﴿ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة أو بدل عنه . أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم .

والآية مما احتج به من جوز تكليف ما لا يطاق ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان ، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً . وشمل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمع الضدان ، والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال ، لكنه غير واقع للاستقراء ، والإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره ، ، وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجع إلزام الحجة ، وحيازة الرسول فضل الإبلاغ ، ولذلك قال ﴿ سواء عليهم ﴾ ولم يقل سواء عليك. كما قال لعبدة الأصنام ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (١) . وفي الآية إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ تعليل

---

(١) الأعراف : ١٩٣ .

* **الإعجاز العلمي**

- **التسليم والالتزام بكل ماجاء من الوحي علي لسان الرسول الحبيب لأن المصدر واحد.**

بل دقق النظر والتأمل في قوله تعالي ﴿ وأنه هو أضحك وأبكي ﴾ ٤٣ النجم

للحكم السابق وبيان لما يقتضيه . والختم الكتم ، سمي الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه لأنه كتم له والبلوغ آخره نظراً إلى أنه آخر فعل يفعل في إحرازه . والغشاوة : فعالة من غشاه إذا غطاه ، بنيت لما يشتمل على الشيء ، كالعصابة والعمامة ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة ، وإنما المراد بها أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي ، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم ، وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق ، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم ، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين ، فتصير كأنه غُطي عليها . وحيل بينها وبين الإبصار ، وسماه على الاستعارة ختماً وتغشية .أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ختما وتغطية ، وقد عبر عن إحداث هذه الهيئة بالطبع في قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾(١) . وبالإغفال في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾(٢) . وبالاقساء في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾(٣) ، وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندة إلى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت إليه من حيث إنها مسببة بما اقترفوه بدليل قوله تعالى ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾(٤) وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(٥) وردت الآية ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم .

---

(١) النحل : ١٠٨ . (٢) الكهف : ٢٨ . (٣) المائدة : ١٣ .
(٤) النساء : ١٥٥ . (٥) المنافقون : ٣ .

* الإعجاز العلمي

- إن هذه الآية المعجزة توضح لنا آية من آيات الله في خلقه كما أنها توضح إعجازاً آخر في خلق الإنسان الذي يميزه عن سائر المخلوقات الأخري التي لاتستطيع الضحك والبكاء.

واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل :

الأول : أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه .

الثاني : أن المراد به تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن . أو قلوب مقدر ختم الله عليها ، ونظيره سال به الوادي إذا هلك وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته .

الثالث : أن ذلك في الحقيقة فعل الشيطان أو الكافر ، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أسند إليه إسناد الفعل إلى المسبب .

الرابع : أن أعرافهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر ، ثم لم يقسرهم إبقاء على غرض التكليف ، عبر عن تركه بالختم فإنه سد لإيمانهم . وفيه إشعار علي تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي .

الخامس : أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولون مثل : ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾ (١) تهكماً واستهزاء بهم كقوله تعالي ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ** ﴾ (٢) الآية .

السادس : أن ذلك في الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحققه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ﴾ (٣) .

---

(١) فصلت : ٥ . (٢) البينة ١ .

(٣) الإسراء : ٩٧ .

* الإعجاز العلمي

فإن سائر المخلوقات ابتداءً من وحيد الخلية وحتي الحيوانات الفقارية تتنفس وتأكل وتشرب وتخرج وتسمع وتري وتحس وتصدر الأصوات وتتحرك وتتكاثر بل إنها في

السابع : أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة ، فيبغضونهم وينفرون عنهم ، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلي الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما .

و ﴿ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ (١) وللوفاق على الوقف عليه ، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما اختص بجهة المقابلة جعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة ، وكرر الجار ليكون أدل على شدة الختم في الموضعين واستقلال كل منهما بالحكم . ووحد السمع للأمن من اللبس واعتبار الأصل ، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تجمع ، أو علي تقدير مضاف مثل وعلي حواس سمعهم .

والأبصار جمع بصر وهو إدراك العين ، وقد يطلق مجازا على القوة الباصرة ، وعلي العضو وكذا السمع ، ولعل المراد بهما في الآية العضو لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية ، وبالقلب ما هو محل العلم وقد يطلق ويراد به العقل والمعرفة كما قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٢) . وإنما جاز إمالتها مع الصاد لأن الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير . وغشاوة رفع بالابتداء عند سيبويه ، وبالجار والمجرور عند الأخفش ، ويؤيده العطف على الجملة الفعلية . وقريء بالنصب على تقدير ، وجعل علي أبصارهم غشاوة ، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى : وختم على أبصارهم بغشاوة ، وقريء بالضم والرفع ، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. وغشوة بالكسر مرفوعة ، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين الغير المعجمة .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .
(٢) سورة «ق» : ٣٧ .

* **الإعجاز العلمي**

= **بعض الأحيان تفكر وتتدرب وتتعلم بالتكرار فعل بعض الحركات المعينة ولكنها لاتضحك ولاتبكي .**

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم ﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه . والعذاب كالنكال بناء ، ومعنى تقول : عذب عن الشيء ونكل عنه إذا أمسك ، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ويردعه ولذلك سمي نقاخا وفراتا ، ثم اتسع فأطلق على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً ، أى : عقاباً يردع الجاني عن المعاودة فهو أعم منهما . وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كالتقذية والتمريض . والعظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فكما أن الحقير دون الصغير ، فالعظيم فوق الكبير ، ومعني التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه وحقر بالإضافة إليه ومعني التنكير في الآية أن على أبصارهم نوع غشاوة ليس مما يتعارفه الناس ، وهو التعامي عن الآيات ، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ، ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالي وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، وثني بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناًولم يلتفتوا لفتة رأسا ، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذي آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للقسم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء ، ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم ، وتهكم بأفعالهم وسجل علي عمههم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة المصرين .

والناس أصله أناس لقولهم : إنسان وأنس وأناسي فحذفت الهمزة حذفها في لوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجْمَع بينهما . وقوله :

---

(١) النساء : ١٤٥ .

* **الإعجاز العلمي**

وإذا كان بعض القردة والحمر يصدر منها صوت الضحك فإن هذا الصوت ربما يعبر عن شعور بالسرور ولكنه لايعبر عن انفعال كامل بالموقف وكذا فإن الأصوات الّتي =

إنَّ المنايا يَطَّلِعْنَ على الإناسِ الآمنينا (١)

شاذ . وهو اسم جمع كرجال ، إذ لم يثبت فعال في أبنية الجمع . مأخوذ من أنس لأنهم يستأنسون بأمثالهم . أو آنس لأنهم ظاهرون مبصرون ، ولذلك سموا بشراً كما سمي الجن جناً لاجتنانهم . واللام فيه للجنس ، ومن موصوفه إذ لا عهد فكأنه قال : ومن الناس ناسٌ يقولون . أو للعهد والمعهود : هم الذين كفروا ، ومن موصولة مراد بها ابن أبي(٢) وأصحابه ونظراؤه ، فإنهم من حيث إنهم صمموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم ، واختصاصهم بزيادات زادوها على الكفر لا يأبي دخولهم تحت هذا الجنس ، فإن الأجناس تتنوع بزيادات يختلف فيها أبعاضها فعلى هذا تكون الآية تقسيماً للقسم الثاني .

واختصاص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر ، تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاء بأنهم احتازوا الإيمان من جانبيه وأحاطوا بقطرية ، وإيذان بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه ، فكيف بما يقصدون به النفاق ، لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً كلا إيمان ، لاعتقادهم التشبيه واتخاذ الولد ، وأن الجنة لا يدخلها غيرهم ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة وغيرها ، ويرون المؤمنين الذين آمنوا بمثل إيمانهم . وبيان لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم ، لأن ما قالوه لو صدر عنهم لا علي وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن إيمانًا ، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم . وفي تكرار الباء (٣) ادعاء الإيمان بكل واحد على الأصالة والاستحكام .

---

(١) رواه ابن منظور في لسان العرب غير منسوب لقائل ، ورواه بضم همزة الأناس وذكره النيسابوري في غرائب الفرقان جـ ١ ص ٣٠٠ بكسر الهمزة .

(٢) ابن أُبَيٌّ هو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين في المدينة .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وباليوم الآخر ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ بالله ﴾ .

وجاء في تعليقنا على هذه الآية في تحقيقنا لغرائب القرآن للنيسابوري ما نقلناه عن نظم =

*** الإعجاز العلمي**

= تصدرها بعض الأنواع من الأوز والنورس وهي تشبه القهقهة ولكنها لاتعتبر ضاحكة بالمعني الشامل المفهوم ونشير هنا إلي نقطة مهمة وهي أن جميع الحيوانات والمخلوقات =

والقول هو التلفظ بما يفيد ، ويقال بمعنى المقول ، وللمعنى المتصور في النفس المعبر عنه باللفظ وللرأي والمذهب مجازاً .

والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا ينتهى . أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة .

﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إنكار ما ادعوه ونفي ما انتحلوا إثباته ، وكان أصله وما آمنوا ليطابق قولهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عكس تأكيداً . أو مبالغة في التكذيب ، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان ، ولذلك أكد النفي بالباء وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء ، ويحتمل أن يقيد بما قيدوا به لأنه جوابه .

والآية تدل على أن من ادعي الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمناً . والخلاف مع الكرامية في الثاني فلا ينهض حجة عليهم .

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو فيه ، وعما هو بصدده من قولهم خدع الضب إذا تواري في جحره ، وضب خادع وخُدَع إذا أوهم الحارس إقباله عليه ، ثم خرج من باب آخر وأصله الإخفاء ومنه المخدع للخزانة ، والأخدعان لعرقين خفيين في العنق ، والمخادعة تكون بين اثنين . وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لأنه لا تُخْفَى عليه خافية ، ولأنهم لم يقصدوا خديعته . بل المراد إما مخادعة رسوله علي حذف المضاف ، أو على أن معاملة الرسول معاملة الله من حيث إنه خليفتة كما قال تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ

= الدرر للبقاعي في نكتة زيادة الباء الثانية : قال : لما كانوا مهتمين في إيمانهم أكدوا بإعادة الجار فقالوا وباليوم الآخر الذي جحده المجاهرون بالكفر .

*** الإعجاز العلمي**

= **الأخري التي تستطيع أن تطلق صوتا كالضحك لاتستطيع البكاء كما أن جميع الحيوانات والمخلوقات الأخري التي تستطيع ذرف الدموع بصورة غزيرة لاتستطيع الضحك. .أي أنه** =

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾(٢). وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر ، وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم ، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار ، استدراجًا وامتثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم ، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين ، ويحتمل أن يراد بيخادعون يخدعون لأنه بيان ليقول ، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه ، إلا أنه أخرج في زنة فاعَل للمبالغة ، فإن الزنة لما كانت للمبالغة والفعل متي غولب فيه ، كان أبلغ منه إذا جاء بلا مقابلة معارض ومبار استصحبت ذلك، ويعضده قراءة من قرأ يخدعون . وكان غرضهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم ما يطرق به من سواهم من الكفرة ، وأن يفعل بهم ما يفعل بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء ، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابذيهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد .

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو . والمعنى : أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضرها يحيق بهم . أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك . وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأماني الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تَخْفَى عليه خافية .

وقرأ الباقون وما يخدعون ، لأن المخادعة لا تتصور إلا بين اثنين وقرىء ويخدعون من خدع ويخدعون بمعني يختدعون ويخدعون ويخادعون علي البناء للمفعول ، ونصب أنفسهم بنزع الخافض ، والنفس ذات الشيء وحقيقته . ثم قيل للروح لأن نفس الحي به ، وللقلب لأنه محل الروح أو متعلقه ، وللدم لأن قوامها

---

(١) النساء : ٨٠ . (٢) الفتح : ١٠ .

*** الإعجاز العلمي**

- لايوجد أي مخلوق من مخلوقات الله جميعا يجمع بين الضحك والبكاء سوي الإنسان الذي خلقه الله فأحسن خلقه فكمل بنعم الله وفضله وكرمه وسوف نستعرض ذلك كله في حينه.

به، وللماء لفرط حاجتها إليه ، وللرأي في قولهم فلان يؤامر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتا تأمره وتشير عليه والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها علي أرواحهم وآرائهم

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ لا يحسون لذلك لتمادي غفلتهم . جعل لحوق وبال الخداع ورجوع ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفي إلا علي مؤوف الحواس والشعور: الإحساس ، ومشاعر الإنسان حواسه ، وأصله الشعر ومنه الشعار.

الآيات من ١٠ : ١٤

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ المرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخل بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي ، لأنها مانعة من نيل الفضائل ، أو مؤدية إلي زوال الحياة الحقيقية الأبدية والآية الكريمة تحتملهما فإن قلوبهم كانت متألمة تحرقا علي ما فات عنهم من

---

* **الإعجاز العلمي**

= نعم ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾

وصدق الله إذ يقول ﴿ وفضلناهم علي كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ الإسراء: ٧٠ =

الرياسة ، وحسدا علي ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوما فيوما وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره . ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها ، فزاد الله سبحانه وتعالي ذلك بالطبع أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر ، وكان إسناد الزيادة إلي الله تعالي من حيث إنه مسبب من فعله وإسنادها إلي السورة في قوله تعالى ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً ﴾ (١) لكونها سببا .

ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخل قلوبهم من الجبن والخور حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله تعالي لهم بالملائكة ، وقذف الرعب في قلوبهم وبزيادته تضعيفه بما زاد لرسول الله ﷺ نصرة علي الأعداء وتبسطا في البلاد .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ اي : مؤلم يقال : ألم فهو أليم كوجع فهو وجيع ، وصف به العذاب للمبالغة كقوله :

تحيةُ بينهمْ ضربٌ وَجِيعُ (٢)

علي طريقة قولهم : جد جده .

﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ قرأها عاصم وحمزة والكسائى ، والمعني بسبب كذبهم، أو ببدله جزاء لهم وهو قولهم آمنا وقرأ الباقون يكذبون ، من كذبه لأنهم كانوا يكذبون الرسولﷺ بقلوبهم ، وإذا خلوا إلي شياطينهم أو من كذّب الذي

---

(١) التوبة : ١٢٥ .

(٢) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، صاحب ريحانة أخت دريد بن الصمة طلب زواجها منه فاجابه ومطله فقال في ذلك شعرا منه :

أمن ريحانة الداعي السميع	يؤرقني وأصحابي هجوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى	كأن زهاءها رأس صليع
دخيل قد دلفت لها بخيل	تحية بينهم ضربٌ وجيع

* الإعجاز العلمى

وانظر إلى رحمة الله حين يقول:

﴿ إنما حرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ١٧٣ البقرة .

هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشئ وموتت [١] البهائم . أو من كذب الوحشي إذا جري شوطا وقف لينظر ما وراءه فإن النفاق متحير متردد .

والكذب : هو الخبر عن الشيء علي خلاف ما هو به وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب حيث رتب عليه وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات[٢] فالمراد التعريض . ولكن لما شابه الكذب في صورته سمي به .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ عطف علي يكذبون أو يقول . وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعد فلعله أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط ، بل وسيكون من بعد من حاله حالهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها والفساد : خروج الشئ عن الاعتدال . والصلاح ضده وكلاهما يعمان كل ضار ونافع .

وكان من فسادهم في الأرض هيج الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ، وممالأة الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم ، فان ذلك يؤدي إلي فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحرث .

ومنه إظهار المعاصي والإهانة بالدين فان الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخل بنظام العالم . والقائل هو الله تعالي ، أو الرسول ﷺ ، أو بعض المؤمنين . وقرأ الكسائي وهشام «قُيْل» بإشمام الضم الأول .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ جواب لإذا رد للناصح علي سبيل المبالغة ، والمعني أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك ، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح ، وإن حالنا متمحضة عن شوائب الفساد ،لأن إنما تفيد قصر ما دخلت عليه علي ما بعده مثل :

---

(١) مَوَّتت ـ بتشديد الواو ـ كثر الموت فيها .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري من رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء .

* الإعجاز العلمي

هذه واحدة من بعض آيات كلها تحرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، أما عن الميتة فهي الحيوانات التي ماتت قبل ذبحها فهي محرمة لأنها ماتت ولم يذكر اسم الله عليهاولأن

إنما زيد منطلق ، وإنما ينطلق زيد ، وإنما قالوا ذلك : لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالي ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾(١) .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ رد لما ادعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفى التأكيد : ألا المنبهة علي تحقيق ما بعدها فإن همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت علي النفي أفادت تحقيقا ، ونظيره أليس ذلك بقادر ، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بما يلتقي به القسم ، وأختها أما التي هي من طلائع القسم : وإن المقررة للنسبة ، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل لرد ما في قولهم إنما نحن مصلحون من التعريض للمؤمنين ، والاستدراك بلا يشعرون .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا ﴾ من تمام النصح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين : الإعراض عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله ﴿ لا تفسدوا ﴾ والإتيان بما ينبغي وهو المطلوب بقوله ﴿ آمنوا ﴾

﴿ كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ في حيز النصب علي المصدر ، وما مصدرية أو كافة مثلها في ربما ، واللام في الناس للجنس والمراد به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل ، فان اسم الجنس كما يستعمل لمسماه مطلقا يستعمل لما يستجمع المعاني المخصوصة به والمقصودة منه ولذلك يسلب عن غيره فيقال : زيد ليس بإنسان ، ومن هذا الباب قوله تعالي ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ (٢) ونحوه وقد جمعهما الشاعر في قوله :

---

(١) فاطر : ٨ . (٢) البقرة ١٨ ـ ١٧١ .

* الإعجاز العلمي

= دمها لم يسفح والدم محرم أكله وشربه شرعا

ثم إن أكلها يؤدى إلي أضرار كثيرة تنتج عنها أمراض وعلل قد تودي بالنفس إذا =

إذ الناسُ ناسٌ والزمان زمان

أو للعهد ، والمراد به الرسول ﷺ ومن معه . أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأصحابه ، والمعني آمنوا إيمانا مقرونا بالإخلاص متمحضا عن شوائب النفاق مماثلا لإيمانهم واستدل به علي قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يفد التقييد .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء ﴾ الهمزة فيه للإنكار ، واللام مشار بها إلي الناس ، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه علي زعمهم ، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي : كصهيب وبلال ، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه . والسفه : خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل ، والحلم يقابله .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ رد ومبالغة في تجهيلهم ، فإن الجاهل بجهله الجازم علي خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله ، فإنه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر ، وإنما فصلت الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون لأنه أكثر طباقا لذكر السفه ، ولأن الوقوف علي أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل مما يفتقر إلي نظر وفكر وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدني تفطن وتأمل فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ بيان لمعاملتهم المؤمنين والكفار ، وما صدرت به القصة فمساقه لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير .

(روي أن ابن أبي وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة ، فقال لقومه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال : مرحبا بالصديق سيد بني تيم ، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه

*** الإعجاز العلمي**

= أكلتها وقبلتها حيث إن الميتة من الحيوان بدون سفح دمه تفوح منه روائح كريهة مقززة قبل وأثناء وبعد طهوه وهناك سبب معنوي أيضا لتحريمها وهو أن الله يربأ بالمسلمين أن =

وماله لرسول الله ﷺ ، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال مرحبا بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله ﷺ وختنه سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ﷺ) (١) .

فنزلت ، واللقاء المصادفة يقال : لقيته ولاقيته ، إذا صادفته واستقبلته ، ومنه ألقيته إذا طرحته فإنك بطرحه جعلته بحيث يلقي .

﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه . أو من خلاك ذم أي عداك ومضي عنك ، ومنه القرون الخالية أو من خلوت به إذا سخرت منه ، وعدي بإلي لتضمن معني الإنهاء ، والمراد بشياطينهم الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم ، وهم المظهرون كفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم وجعل سيبويه نونه تارة أصلية علي أنه شطن إذا بعد فإنه بعيد عن الصلاح ، ويشهد له قولهم : تشيطن . وأخري زائدة علي أنه من شاط إذا بطل ، ومن أسمائه الباطل .

﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي في الدين والاعتقاد ، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، والشياطين بالجملة الإسمية المؤكدة بإن لأنهم قصدوا بالأولي دعوي إحداث الإيمان، وبالثانية تحقيق ثباتهم علي ما كانوا عليه ، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين ، ولا توقع رواج ادعاء الكمال في الإيمان علي المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار .

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ تأكيد لما قبله ، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول من رواية السُّدِّي الصغير ومحمد بن مروان عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما .

*** الإعجاز العلمي**

= يهبطوا إلي مادون النزاهة والعفاف لأكل الميت المزهوق روحه من الحيوان ، ولايدنو لمرتبة الجوارح والهوام التي لاتعاف أن تأكل الجيفة والمقتولة. =

مُصِر علي خلافه أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما قالوا إنا معكم إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك . والاستهزاء السخرية والاستخفاف يقال : هزئت واستهزأت بمعني كأجبت واستجبت ، وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع يقال : هزأ فلان إذا مات علي مكانه ، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف .

الآيات من ١٥ : ١٩

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ يجازيهم علي استهزائهم ، سمي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة ، إما لمقابلة اللفظ باللفظ ، أو لكونه مماثلا له في القدر، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم ، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء ، أو الغرض منه ، أو يعاملهم معاملة المستهزئ : أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإهمال والزيادة في النعمة علي التمادي في الطغيان ، وأما في الآخرة : فبأن يفتح لهم وهم في النار بابا إلي الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله

* الإعجاز العلمي

= أما الدم فقد جاء تحريمه بعد تحريم الميتة في كل الآيات حيث الدم من مكونات الميتة وللأسف فهناك جموع من الناس في غير الدول الإسلامية مازالوا يأكلون الميتة مع دمها =

تعالي ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (١) وإنما استؤنف به ولم يعطف ليدل علي أن الله تعالي تولي مجازاتهم ، ولم يحوج المؤمنين إلي أن يعارضوهم ، وأن استهزاءهم لا يؤبه في مقابلة ما يفعل الله تعالي بهم ولعله لم يقل: الله مستهزئ بهم ليطابق قولهم ، إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالا فحالا ويتجدد حينا بعد حين ، وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالي ﴿ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ (٢)

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ من مد الجيش وأمده إذا زاده وقواه ، ومنه مددت السراج والأرض إذا استصلحتها بالزيت والسماد ، لا من المد في العمر فإنه يعدي باللام كأملي له . ويدل عليه قراءة ابن كثير ويمدهم والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء الكلام علي ظاهره قالوا : لما منعهم الله تعالي ألطافه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم ، وسدهم طرق التوفيق علي أنفسهم فتزايدت بسببه قلوبهم رينا وظلمة ، تزايد قلوب المؤمنين انشراحا ونورا ، وأمكن الشيطان من إغوائهم فزادهم طغيانا ، أسند ذلك إلي الله تعالي إسناد الفعل إلي المسبب مجازا، وأضاف الطغيان إليهم لئلا يتوهم أن إسناد الفعل إليه علي الحقيقة ، ومصداق ذلك أنه لما أسند المد إلي الشياطين أطلق الغي وقال ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ (٣) أو أصله يمد لهم بمعني يملي لهم ويمد في أعمارهم كي يتنبهوا ويطيعوا ، فما زادوا إلا طغيانا وعمها ، فحذفت اللام وعدي الفعل بنفسه كما في قوله تعالي ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ ﴾ (٤) أو التقدير يمدهم

---

(١) المطففين : ٣٤ (٢) التوبة : ١٢٦ (٣) الأعراف : ٢٠٢
(٤) الأعراف : ١٥٥ .

* **الإعجاز العلمي**

= **حيث يميتون الدجاج والطيور بخنقها أو بالتيار الكهربائي وكذلك البهائم .. والدم حين يترك في الميتة بدون أن تذبح وبدون أن يسفح فإنه يكون عنصرا ملائما لنمو البكتريا** =

استصلاحا ، وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم والطغيان بالضم والكسر كلقيان ، والطغيان : تجاوز الحد في العتو ، والغلو في الكفر ، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه قال تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ (١) والعمه في البصيرة كالعمي في البصر، وهو التحير في الأمر يقال رجل عامه وعمه ، وأرض عمهاء لا منار بها ، قال :

أعْمَى الهُدى بالجاهلين العُمَهْ (٢)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به ، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان ، فإن كان أحد العوضين ناضا تعين من حيث إنه لا يطلب لعينه أن يكون ثمنا وبذله اشتراء ، وإلا فأي العوضين تصورته بصورة الثمن فباذله مشتر وآخذه بائع، ولذلك عدت الكلمتان من الأضداد ، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلا به غيره سواء كان من المعاني أو الأعيان ، ومنه قول الشاعر :

أخذْتُ بالجمْلةِ رأساً أزْعَرا وبالثَّنايا الواضحات الدُّررا
وبالطويل العُمرِ عمراً جيذراً كما اشتري المُسْلمُ إذ تنصَّرا (٣)

---

(١) الحاقة : ١١ .

(٢) هذا بيت قاله رؤبة بن العجاج وقبله كما ذكره صاحب اللسان العرب :
ومَهْمَه أطرافه في مَهْمَهِ

(٣) رواهما الزمخشري في الكشاف هكذا :
أخذت بالجُمَّة رأسًا أزعـرا وبالثنايا الواضحات الدَّرْدَرا
وبالطويل العمر عُمْرًا حَيْدَرا كما اشتري المسلم إذ تنصرا
وإنشاد الزمخشري أصح .
والجمة كثير الشعر ، والأزعر : قليل الشعر ـ والثنايا مقدم الأسنان ، والدردر : مغارز الأسنان ، والحيدر : القصير .

* الإعجاز العلمي

- والميكروبات التي قد تكون موجودة في الجسم إثر دخولها عن طريق أي بؤرة صديدية أو بين اللثة والأسنان وتنتشر الميكروبات في جميع أعضاء الجسم الداخلية فتملؤها بفقاقيع

ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره ، والمعنى أنهم أخلوا بالهدي الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فُطِر الناسُ عليها محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها . أو اختاروا الضلالة واستحبوها علي الهدى .

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ ترشيح للمجاز ، لما استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم ، ونحوه .

ولَّما رأيتُ النسرَ عزَّ ابنَ دأيةٍ وعَشَّشَ في وكْرَيْه جاشَ له صَدْري (١)

والتجارة : طلب الربح بالبيع والشراء . والربح : الفضل علي رأس المال ، ولذلك سمي شفا ، وإسناده إلي التجارة وهو لأربابها علي الاتساع لتلبسها بالفاعل، أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران .

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ لطرق التجارة ، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين لأن رأس مالهم كان الفطرة السليمة ، والعقل الصرف ، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم ، واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأس مال يتوسلون به إلي درك الحق ، ونيل الكمال ، فبقوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير ، فإنه أوقع في القلب وأقمع للخصم الألد ، لأنه يريك

والبيتان واردان مثلا لجبلة بن الأيهم الذي تنصر وارتد بعد إسلامه وهرب إلى بلاد الروم.

من تعليق الكشاف .

(١) ابن دأية : اسم الغراب ، وعزَّ : غلب وقهر ، وجاش : ثار ، والنسر : كناية عن الشيب. يقول : لما رأيت الشيب غلب سواد الشعر وحل محله اضطرب قلبي .

*** الإعجاز العلمي**

= الغازات النتنة ويدب فيها العفن والنتن .. ثم وكما ذكرنا قبل فإن الله يربأ بأمة الإسلام عن شرب أو أكل الدم أيضا لما في هذا من وحشية وحيوانية غير إنسانية فلنتخيل فردا من =

المتخيل محققا والمعقول محسوسا ، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال ، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء . والمثل في الأصل بمعني النظير يقال : مَثَل ومِثْل ومَثِيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده ، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة ، ولذلك حوفظ عليه من التغيير ، ثم استعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالي ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) وقوله تعالي ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ (٢) .

والمعني حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً والذي بمعني الذين كما في قوله تعالي ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ (٣) إن جعل مرجع الضمير في بنورهم، وإنما جاز ذلك ولم يجز وضع القائم موضع القائمين لأنه غير مقصود بالوصف ، بل الجملة التي هي صلته وهو وصلة إلي وصف المعرفة بها لأنه ليس باسم تام بل هو كالجزء منه ، فحقه أنه لا يجمع كما لا تجمع أخواتها ، ويستوي فيه الواحد والجمع، وليس الذين جمعه المصحح ، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعني ولذلك جاء بالياء أبداً علي اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل ، ولكونه مستطالا بصلته استحق التخفيف ، ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر علي اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين ، أو قصد به جنس المستوقدين ، أو الفوج الذي استوقد . والاستيقاد : طلب الوقود والسعي في تحصيله ، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها واشتقاق النار من : نار ينور نورا إذا نفر لأن فيها حركة واضطرابا .

﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ أي : النار ، ما حول المستوقد إن جعلتها متعدية ، وإلا أمكن أن تكون مسندة إلي ما ، والتأنيث لأن ما حوله أشياء وأماكن أو إلي

---

(١) الرعد : ٣٥ ، محمد : ١٥ . (٢) النحل : ٦٠ .

(٣) التوبة : ٦٩ .

*** الإعجاز العلمي**

= الآدميين وهو يشرب كوبا أو كأسا من الدم وهو جالس علي مقهي فياله من منظر تشمئز له الأنفس وتقشعر له الأبدان. وإن حدث هذا فهو يبعدنا عن الآدمية والتعقل والسمو =

ضمير النار ، وما : موصولة في معني الأمكنة ، نصب علي الظرف ، أو مزيدة ، وحوله ظرف وتاليف الحول للدوران وقيل للعام حول لأنه يدور .

﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ جواب لما ، والضمير للذي ، وجمعه للحمل علي المعني، وعلي هذا إنما قال : ﴿ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : بنارهم لأنه المراد من إيقادها . أو استئناف أجيب به اعتراض سائل يقول : ما بالهم شبهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره ؟ أو بدل من جملة التمثيل علي سبيل البيان والضمير علي الوجهين للمنافقين ، والجواب محذوف كما في قوله تعالي ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ (١) للإيجاز وأمن الالتباس وإسناد الذهاب إلي الله تعالي إما لأن الكل بفعله ، أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفي ، أو أمر سماوي كريح أو مطر ، أو للمبالغة ولذلك عدي الفعل بالباء دون الهمزة لما فيها من معني الاستصحاب والاستمساك ، يقال : ذهب السلطان بماله إذا أخذه ، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسل له ، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضي اللفظ إلي النور ، فإنه لو قيل : ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نورا ، والغرض إزالة النور عنهم رأساً ألا تري كيف قرر ذلك وأكده بقوله ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ فذكر الظلمة التي هي عدم النور ، وانطماسه بالكلية ، وجمعها ونكرها ووصفها بأنها ظلمة خالصة لا يتراءي فيها شبحان : وترك في الأصل بمعني طرح وخلي ، وله مفعول واحد فضمن معني صير ، فجري مجري أفعال القلوب كقوله تعالي ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ (٢) .

وقول الشاعر .

---

(١) يوسف : ١٥ .   (٢) البقرة : ١٧ .

فتركته جزر السِّباع يَنُشْنَهُ يَقضُمْنَ حُسنَ بنانِهِ والمِعْصَمِ (١)

والظلمة مأخوذة من قولهم : ما ظلمك أن تفعل كذا ، أي ما منعك ، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية وظلماتهم : ظلمة الكفر وظلمة النفاق، وظلمة يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ (٢) أو ظلمة الضلال وظلمة سخط الله ، وظلمة العقاب السرمدي ، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمة متراكمة ، ومفعول ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ من قبيل المطروح المتروك فكأن الفعل غير متعد .

والآية مَثَل ضربه الله لمن آتاه ضربًا من الهدي فأضاعه ، ولم يتوصل به إلي نعيم الأبد فبقي متحيرا متحسرا ، تقريرا وتوضيحا لما تضمنته الآية الأولي ، ويدخل تحت عمومه هؤلاء المنافقون فإنهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر ، وإظهاره حين خلوا إلي شياطينهم ، ومن آثر الضلالة علي الهدي المجعول له بالفطرة ، أو ارتد عن دينه بعدما آمن ، ومن صح له أحوال الإرادة فادعي أحوال المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة أو مثّل لإيمانهم من حيث إنه يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد ، ومشاركة المسلمين فى المغانم والأحكام بالنار الموقدة للاستفاده، ولذهاب أثره وانطماس نوره بإهلاكهم وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالي إياها وإذهاب نورها .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم ، جُعلُوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتفت قواهم كقوله :

---

(١) هذا البيت من معلقة الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد .

وجزر السباع : طعام السباع ، وينشنه : يلتهمنه ، ويقضمن : يأكلنه بمقدم الأسنان .

(٢) الحديد : ١٢ .

*** الإعجاز العلمي**

- **الدودة الشريطية ودودة التريكينا اللولبية وهذه الديدان تنتقل إلي الإنسان وكانت هذه الديدان المؤذية مستعصية العلاج علي الإنسان حتي القرن الحالي من الزمان فقط .**

صم إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذكرتُ به وإن ذكرتُ بسوء عندهم أذنوا (١)

وكقوله :

أصمٌّ عن الشيء الذي لا أريده وأسمعُ خلقِ الله حين أريد

وإطلاقها عليهم علي طريقة التمثيل ، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له ، بحيث يمكن حمل الكلام علي المستعار منه لولا القرينة كقول زهير(٢):

لَدي أسدٍ شاكي السلاحِ مُقَذَّفٍ لهُ لِبدٌ أظفاره لم تُقلَّم (٣)

ومن ثم تري المفلقين السحرة يضربون عن توهم التشبيه صفحا كما قال أبو تمام الطائي (٤) :

وَيصعدُ حتي يظنَّ الجهولُ بأنَّ لهُ حاجةً في السماء (٥)

وهنا وإن طوي ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به ، ونظيره :

أسدٌ علي وفي الحُرُوب نعامةٌ فتخاءُ تنفر منْ صفير الصافر (٦)

---

(١) البيت لشاعر جاهلي اسمه قعنب بن أم صاحب بن ضمرة وهو يعتب علي قومه ومعنى أذنوا : استمعوا جيدا وفتحوا آذانهم .

(٢) هو شاعرجاهلي من أصحاب المعلقات .

(٣) البيت المذكور من معلقته المشهورة ويمدح بالبيت حصين بن ضمضم الذي هجم علي عدوه بحسن تدبير وشجاعة .

(٤) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر العباسي المشهور .

(٥) من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني ، ومعني يُصعد : يرتفع ويعلو .

(٦) البيت لعمران بن حكان الشاعرالخارجي يخاطب الحجاج بن يوسف الثقفي وبعده

هلا كررت علي غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

وغزالة هي زوجة شبيب الخارجي الذي كان يحاربه الحجاج ، ودامت الحرب بينهما سنة كاملة ، وبعد مقتل شبيب تصدت له زوجته غزالة .

ومعنى فتخاء : تفزع وتهلع خوفًا من أدنى صوت تسمعه.

* الإعجاز العلمي

ثم إن لحم الخنزير ينقل أمراضا كثيرة منها.

١) كوليرا الخنازير :وهي مرض حاد يسببه فيروس .

هذا إذا جعلت الضمير للمنافقين علي أن الآية فذلكة التمثيل ونتيجته ، وإن جعلته للمستوقدين ، فهي علي حقيقتها . والمعني : أنهم لما أوقدوا نارا فذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسهم وانتقصت قواهم . وثلاثتها قرئت بالنصب علي الحال من مفعول تركهم .

والصمم أصله صلابة من اكتناز الأجزاء ، ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء ، وصمام القارورة ، سمي به فقدان حاسة السمع لأن سببه أن يكون باطن الصماخ مكتنزًا لا تجويف فيه ، فيشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه .

والبكم الخرس . والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة .

﴿ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ لا يعودون إلي الهدي الذي باعوه وضيعوه . أو عن الضلالة التي اشتروها ، أو فهم متحيرون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وإلي حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون والفاء للدلاله علي أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ عطف علي الذي استوقد أي : كمثل ذوي صيب لقوله ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم ﴾ و﴿ أو ﴾ في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شك مثل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وقوله تعالي ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ (١) . فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العصيان ومن ذلك قوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ . ومعناه أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين ، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما ، وأنت

---

(١) الإنسان : ٢٤ .

*** الإعجاز العلمي**

٢) الإجهاض النتن: وتحدثه بكتريا البروسيلا الخنزيرية . =

٣) الحمرة الجلدية: الحادة والمزمنة والأولي مميتة في بعض الأحيان والثانية تحدث =

مخير في التمثيل بهما أو بأيهما شئت . والصيب : فيعل من الصوب ، وهو النزول، يقال للمطر وللسحاب .

قال الشماخ :

وأسْحم دانٍ صادقِ الرعْدِ صيِّبِ [1]

وفي الآية يحتملهما ، وتنكيره لأنه أريد به نوع من المطر شديد . وتعريف السماء للدلالة علي أن الغمام مطبق آخذ بآفاق السماء كلها فإن كل أفق منهما يسمي سماء كما أن كل طبقة منها سماء ، وقال :

ومنْ بعْد أرضٍ بيننَا وسماءِ [2]

أمد به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير ، وقيل المراد بالسماء السحاب فاللام لتعريف الماهية .

﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ إن أريد بالصيب المطر ، فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر ، وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وجعله مكانا للرعد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحدره ملتبسين به ، وإن أريد به السحاب ، فظلماته سحمته وتطبيقه مع ظلمة الليل . وارتفاعها بالظرف وفاقا لأنه معتمد علي موصوف .

---

(١) قيل هو للشماخ ، وقيل : للنابغة الذبياني ، وقيل : للهيثم بن خوار ، وهو عجز بيت وصدره هو :

عفا آية نسجُ الجنوب مع الصبا

والأسحم : الأسود وهو صفة للسحاب ، والداني : القريب ، وفي رواية : داجٍ والداجي هو المظلم ، والصيِّب : كثير الإمطار .

والآي جمع آية وهي العلامات ، ونسج الجنوب : الرياح .

(٢) عجز بيت صدره :

فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها .

* الإعجاز العلمي

- تورم المفاصل .

٤) مرض التقشر الجلدي .

والرعد صوت يسمع من السحاب والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حدتها الريح من الارتعاد والبرق ما يلمع من السحاب ، من برق الشيء بريقا ، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يجمعا .

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم ﴾ الضمير لأصحاب الصيب وهو وإن حذف لفظه وأقيم الصيب مقامه لكن معناه باق ، فيجوز أن يعول عليه كما عول حسان في قوله :

يَسْقُون من وَرَدَ البريصَ عليهمُ ... بردي يصفقُ بالرَحيقِ السَّلْسَلِ (١)

حيث ذكر الضمير لأن المعني ماء بردي ، والجملة استئناف فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول قيل : فكيف حالهم مع مثل ذلك ؟ فأجيب بها ، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة .

﴿ مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون ، كقولهم سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد هائل معها نار لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، من الصعق وهو شدة الصوت ، وقد تطلق علي كل هائل مسموع أو مشاهد ، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت ، وقرئ من الصواقع وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين في التصرف يقال صقع الديك ، وخطيب مصقع، وصقعته الصاقعة ، وهي في الأصل إما صفة لقصفة الرعد ، أو للرعد والتاء للمبالغة كما في الراوية أو مصدر كالعافية والكاذبة .

﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ نصب عل العلة كقوله :

---

(١) البيت من شعر حسان بن ثابت يتذكر يه أيام الغسانيين الذين كان يمدحهم وهم ملوك الشام ، وقبله قوله :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بِجُلَّقَ في الزمان الأول .

وجُلَّقَ اسم موضع ، والبريص اسم وادٍ ، وبردي اسم نهر في دمشق .

* الإعجاز العلمي

٥) طفيل الإسكارس : وهو معد للإنسان

أضف إلي هذا أن الأبحاث العلمية في الصين والسويد أثبتت أن أكل لحم الخنزير =

واغفر عوراء الكريم ادِّخارَهُ   وأصفح عن شتم اللئيم تَكَرُّما (١)

والموت : زوال الحياة ، وقيل عرض يضادها لقوله ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾(١٦٠)، ورد بأن الخلق بمعني التقدير ، والأعدام مقدرة .

﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط ، لا يخلصهم الخداع والحيل ، والجملة اعتراضية لا محل لها .

الآيات من ٢٠ : ٢٣

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول : ما حالهم مع تلك الصواعق ؟ وكاد من أفعال المقاربة ، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعروض سببه لكنه لم يوجد ، إما لفقد شرط ، أو لوجود مانع وعسي

(١) البيت لحاتم الطائى الشاعر العربي المشهور بالكرم ، وهو شاعر جاهلي والعوراء المقصود بها الكلمة ا لقبيحة النابية .

(٢) الملك : ٢ .

* **الإعجاز العلمي**

= مسئول عن سرطان المستقيم والقولون الذي ترتفع نسبته ارتفاعا مذهلا في دول أوروبا وأمريكا أساسا وفي دول آسيا التي تأكل الخنزير كالصين والهند بينما تنخفض =

موضوعة لرجائه ، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفة بخلاف عسي ، وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلا مضارعا تنبيها علي أنه المقصود بالقرب من غير أن ، لتوكيد القرب بالدلالة علي الحال ، وقد تدخل عليه حملا لها علي عسي ، كما تحمل عليها بالحذف من خبرها لمشاركتهما في أصل معني المقاربة ، والخطف الأخذ بسرعة وقرئ يخطف بكسر الطاء ويخطف علي أنه يختطف ، فنقلت فتحة التاء إلي الخاء ثم أدغمت في الطاء ، ويخطف بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها ، ويخطف ويتخطف .

﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتي خفوق البرق ، وخفيته ؟ فأجيب بذلك . وأضاء إما متعد والمفعول محذوف بمعني كلما نور لهم ممشي أخذوه ، أو لازم بمعني ، كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره ، وكذلك أظلم فإنه جاء متعديا منقولا من ظلم الليل ، ويشهد له قراءة أظلم علي البناء للمفعول ، وقول أبي تمام :

هُما أظلَما حالي ثُمَّةَ أجْلَيَا ظلاميْهِما عن وَجْه أمرد أشيب (١)

فإنه وإن كان من المحدَثين لكنه من علماء العربية ، فلا يبعد أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . وإنما قال مع الإضاءة ﴿ كلما ﴾ ومع الإظلام ﴿ إذا ﴾ لأنهم حراص علي المشي ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف . ومعني قاموا وقفوا ، ومنه قامت السوق إذا ركدت ، وقام الماء إذا جمد ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ أى ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد

---

(١) البيت لأبي تمام وهو حبيب بن أوس الشاعر العباسي المشهور .

والضمير في أظما يعود علي العقل والدهر اللذين وردا في بيت سابق وهو :

أحاولت إرشادي فعقلي مرشدي أم استمت تاديبي فدهري مؤدبي .

من تعليق محقق الكشاف .

* الإعجاز العلمي

= انخفاضا ملحوظا يصل إلي الواحد في الألف في الدول الإسلامية .

- وبعد فإن الآيات التي تبحث عن الإعجاز العلمي كثيرة فهلم بنا عزيزي القارىء

وأبصارهم بوميض البرق لذهب بهما . فحذف المفعول لدلالة الجواب عليه ، ولقد تكاثر حذفه في شاء وأراد حتى لا يكاد يذكر إلا في الشيء المستغرب كقوله :

فلوْ شئتُ أن أبكي دمًا لَبكيتُهُ (١)

ولو : من حروف الشرط ، وظاهرها الدلالة علي انتفاء الأول لانتفاء الثاني ، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه ، وقرئ : لأذهب بأسماعهم ، بزيادة الباء كقوله تعالي ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (٢)

وفائدة هذه الشرطية إبداء المانع لذهاب وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه ،والتنبيه علي أن تأثير الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته وقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كالتصريح به والتقرير له والشئ يختص بالموجود، لأنه في الأصل مصدر شاء أطلق بمعني شاء تارة ، وحينئذ يتناول البارئ تعالي كما قال ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ (٣) وبمعني مشىء أخري ، أي مشىء وجوده وما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) فهما

---

(١) صدر بيت للشاعر أبي يعقوب إسحاق بن حسان الخديمي وعجزه هو :

عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

يرثى فيه أبا الهيذام أمير عرب الشام .

من تعليق محقق الكشاف .

(٢) البقرة : ١٩٥ . (٣) الأنعام : ١٩ .

(٤) البقرة : ٢٠ . (٥) الزمر : ٦٢ .

* الإعجاز العلمي

= نستعرض بعض هذه الآيات القرآنية وسوف نأتي بها مرتبة بترتيب المصحف والله الموفق:

=

علي عمومهما بلا مثنوية ، والمعتزلة لما قالوا الشيء ما يصح أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن ، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فيعم الممتنع أيضا ، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضوعين بدليل العقل .

والقدرة : هو التمكن من إيجاد الشيء ، وقيل صفة تقتضي التمكن ، وقيل قدرة الإنسان ، هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالي : عبارة عن نفي العجز عنه ، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير الباري تعالى ،واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل علي مقدار قوته ، أو علي مقدار ما تقتضيه مشيئته وفيه دليل علي أن الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور لله تعالي ، لأنه شيء وكل شيء مقدور لله تعالي . والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة ، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتي صارت شيئا واحدا بأخري مثلها ، كقوله تعال ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ (١) الآية ، فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة ، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة ، بما يكابد من انطفات ناره بعد إيقادها في ظلمة ، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف وخوف من الصواعق ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد ، وهو أن تأخذ أشياء فرادي فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) وقول امرئ القيس :

---

(١) الجمعة : ٥ .　　　(٢) فاطر : ١٩ ـ ٢١ .

* الإعجاز العلمي

١) قال تعالي ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. ﴾ ٢٢ البقرة .

كأنَ قلوبَ الطيرَ رَطْبًا ويابِسًا لَدَى وكرِها العنَّابُ والحشفُ البالى (١)

بأن يشبه في الأول : ذوات المنافقين بالمستوقدين ، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين ، وزوال ذلك عنهم علي القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم ، والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورها . وفي الثاني : أنفسهم بأصحاب الصيب وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيب فيه ظلمات ورعد وبرق ، من حيث إنه وإن كان نافعا في نفسه لكنه لما وجد في هذه الصورة عاد نفعه ضُرا ونفاقهم حذرا عن نكايات المؤمنين ، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت ، من حيث إنه لا يرد من قدر الله تعالي شيئا ، ولا يخلص مما يريد بهم من المضار وتحيرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ، ويذرون بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تخطف أبصارهم فخطوا خطًا يسيرة ، ثم إذا خفي وفتر لمعانه بقوا متقيدين لا حراك بهم . وقيل : شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصيب الذي به حياة الأرض . وما ارتكبت بها من الشبه المبطلة ، واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات . وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد ، وما فيها من الآيات الباهرة بالبرق ، وتصامهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معني قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ

---

(١) من قصيدة مطلعها :

الا عم صباحا أيها الطَّلَلُ البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي

والبيت الذي ذكره المصنف يصف فيه العقاب التي تفترس الطيور ولا تأكل قلوبها بل تلقيها خارج وكرها .ويشبه هذه القلوب بالعناب والحشف البالي وهو من جيد التشبيه

بِالْكَافِرِينَ ﴾(١) . واهترازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه ، أو رفد تطمح إليه أبصارهم بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم ، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تعرض لهم شبهة ، أو تعن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم .

ونبه سبحانه بقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ (٢) علي أنه تعالي جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلي الهدي والفلاح ، ثم إنهم صرفوها إلي الحظوظ العاجلة ، وسدوها عن الفوائد الآجلة ، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم ، فإنه علي ما يشاء قدير .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم ، أقبل عليهم بالخطاب علي سبيل الالتفات هزا للسامع وتنشيطا له بأمر العبادة ، وتفخيمها لشأنها ، وجبرا لكلفة العبادة بلذة المخاطبة .

ويا : حرف وضع لنداء البعيد ، وقد ينادي يه القريب تنزيلا له منزلة البعيد . إما لعظمته كقول الداعي : يارب ، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، أو لغفلته وسوء فهمه أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه . وهو مع المنادي جملة مفيدة ، لأنه نائب مناب فعل . وأي : جعل وصلة إلي النداء المعرف باللام ، فإن إدخال « يا » عليه متعذر لتعذر الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كمثلين ، وأعطي حكم المنادي وأجري عليه المقصود بالنداء وصفا موضحا له ، والتزام رفعه إشعار بأنه المقصود ، وأقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيدا وتعويضا عما يستحقه ، أي من المضاف إليه ، وإنما كثر النداء علي هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وكل ما نادي الله له عباده من حيث إنها أمور عظام ، من حقها أن يتفطنوا إليها ، ويقبلوا بقلوبهم عليها ، وأكثرهم عنها غافلون ، حقيق بان ينادى له بالآكد الأبلغ والجموع وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد ، ويدل عليه

---

(١) البقرة : ١٩ . (٢) البقرة : ٢٠ .

صحة الاستثناء منها . أو التأكيد بما يفيد العموم كقوله تعالي ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (١) واستدلال الصحابة بعمومها شائع وذائع (٢) ، فالناس يعم الموجودين وقت النزول لفظا ومن سيوجد ، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضي خطابه وأحكامه شامل للقبيلين ، ثابت إلي قيام الساعة إلا ما خصه الدليل ، وما روي عن علقمة والحسن أن كل شيء نزل فيه ﴿ ياأيها الناس ﴾ فمكي ﴿ ويا أيها الذين آمنوا ﴾ فمدني ، إن صح رفعه فلا يوجب تخصيصه بالكفار ، ولا أمرهم بالعبادة ، فإن المأمور به هو القدر المشترك بين بدء العبادة ، والزيادة فيها ، والمواظبة عليها ، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة والإقرار بالصانع ، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به ، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة ، فالكفر لا يمنع وجوب العبادة ، بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيبه . ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها وإنما قال ﴿ رَبُّكُم ﴾ تنبيها علي أن الموجب للعبادة هي الربوبية .

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم ﴾ صفة جَرَتْ عليه تعالي للتعظيم والتعليل ، ويحتمل التقييد والتوضيح إن خص الخطاب بالمشركين ، وأريد بالرَّب أعم من الرب الحقيقي ، والآلهة التي يسمونها أربابا . والخلق إيجاد الشيء علي تقدير واستواء ، وأصله التقدير يقال : خلق النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس .

﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ متناول كل ما يتقدم الإنسان بالذات أو بالزمان . منصوب معطوف علي الضمير المنصوب في ﴿ خَلَقَكُم ﴾ . والجملة أخرجت مخرج المقرر عندهم ، إما لاعترافهم به كما قال الله تعالي ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

---

(١) الحجر : ٣٠ .

(٢) في النسخة وردت الكلمتان منصوبتين : شائعا وذائعا .

خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) أو لتمكنهم من العلم به بأدني نظر ! وقرئ من قَبْلَكم علي إقحام الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيدا ، كما أقحم جرير في قوله :

يا تيم تيمَ عُدَيٍّ لا أبالَكمُو (٢)

تيما ، الثاني بين الأول وما أضيف إليه .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ اعبدوا ﴾ كأنه قال : اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدي والفلاح ، المستوجبين جوار الله تعالي . نبه به علي أن التقوي منتهي درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوي الله تعالي إلي الله ، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته ، ويكون ذا خوف ورجاء قال تعالي ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (٣) ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٤) . أو من مفعول ﴿ خلقكم ﴾ والمعطوف عليه علي معني أنه خلقكم ومن قبلكم في صورة من يرجي منه التقوي لترجع أمره باجتماع أسبابه ، وكثرة الدواعي إليه ، وغلب المخاطبين علي الغائبين في اللفظ ، والمعني علي إرادتهم جميعا . وقيل تعليل للخلق أي خلقكم لكي تتقوا كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥) . وهو ضعيف إذا لم يثبت في اللغة مثله .

---

(١) الزخرف : ٨٧ .

(٢) هذا صدر بيت لجرير بن عطية الخطفي الشاعر الأموي المشهور وعجزه :

لا يُلْقينكم في سواة عمر

وعمر هو عمر بن لجأ الذي تعرض لجرير بالهجاء ، فخاطب جرير قومه يحذرهم من عاقبة ذلك .

(٣) السجدة : ١٧ .

(٤) الإسراء : ٥٧ .

(٥) الذاريات : ٥٦ .

والآية تدل علي أن الطريق إلي معرفة الله تعالي والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة ، النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله ، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثوابا ، فإنها لما وجبت عليه شكرا لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ صفة ثانية ، أو مدح منصوب ، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا . وجعل من الأفعال العامة يجئ علي ثلاثة أوجه: بمعني صار ، وطفق فلا يتعدي كقوله :

فَقَدْ جعلتُ قلوصَ بني سُهَيلٍ ... مِنْ الأَكْوارِ مرتعُها قَرِيبُ

وبمعني أوجد فيتعدي إلي مفعول واحد كقوله تعال ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ﴾ (١) وبمعني صير ، ويتعدي إلي مفعولين كقوله تعالي ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ (٢) والتصيير يكون بالفعل تارة ، وبالقول أو العقد أخري . ومعني جعلها فراشا أن جعل بعض جوانبها بارزا ظاهرا عن الماء ، مع ما في طبعه من الإحاطة بها ، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتي صارت مهياة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة ، لأن كرية شكلها مع عظم حجمها . واتساع جرمها لا تابي الافتراش عليها .

﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ قبة مضروبة عليكم . والسماء اسم جنس يقع علي الواحد والمتعدد كالدينار والدرهم ، وقيل : جمع سماءة . والبناء مصدر ، سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه بني علي امرأته ، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها

---

(١) الأنعام : ١ (٢) البقرة : ٢٢ .

* الإعجاز العلمي

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾

الحاصل في هذه الآية أن الحق سبحانه تعالي عدد في هذا المقام خمسة دلائل من دلائل القدرة : اثنين من الأنفس وهما خلقهم وخلق أصولهم ، وثلاثة من الآفاق ، جعل الأرض فراشا

خباءً جديداً .

﴿ وَأَنـزَلَ مِنَ الـسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الـثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ عطف علي جعل، وخروج الثمار بقدرة الله تعالي ومشيئته ، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سببا في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان ، بأن أجري عادته بإفاضة صورها وكيفياتها علي المادة الممتزجة منهما ، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار ، وهو قادر علي أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب والمواد ، ولكن له في إنشائها مدرجا من حال إلي حال ، صنائع وحكم يجدد فيها لأولي الأبصار عبرا ، وسكونا إلي عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة .

و ﴿ من ﴾ الأولي للإبتداء سواء أريد بالسماء السحاب فإن ما علاك سماء ، أو للفلك فان المطر يبتدئ من السماء إلي السحاب ومنه إلي الأرض علي ما دلت عليه الظواهر . أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلي جو الهواء فتنعقد سحابا ماطرا .

و﴿ من ﴾ الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالي ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ (١) واكتناف المنكرين له أعني ماء ورزقا كأنه قال : وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم ، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء الماء كله ، ولا أخرج بالمطر كل الثمرات ، ولا جعل كل المرزوق ثمارا . أو للتبيين ، ورزقا مفعول بمعني المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفا . وإنما ساغ الثمرات والموضع موضع الكثرة ، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه ، ويؤيده قراءة من قرأ : من الثمرة علي التوحيد . أو لأن

---

(١) فاطر : ٢٧ .

* الإعجاز العلمي

والسماء بناء والأمور الحاصلة من مجموعهما وهي إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات بسببه والترتيب هنا ظاهر ، لأن أقرب الأشياء إلي الإنسان نفسه ثم ما منه منشؤه وأصله ثم الأرض التي هي مكانه ومستقره يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم علي فراشه ثم السماء التي هي كالخيمة المضروبة علي هذا القرار ثم إنزال الماء وإخراج الثمرات.

الجموع يتعاور بعضها موقع بعض كقوله تعالي ﴿كَمْ تَرَكُوا من جنَّات وَعُيُون﴾(١) وقوله ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (٢) . أو لأنها لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة . و﴿لكم﴾ صفة رزقا إن أريد به المرزوق ومفعوله إن أريد به المصدر كأنه قال : رزقا إياكم.

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّه أَندَادًا ﴾ متعلق باعبدوا علي أنه نهي معطوف عليه . أو نفي منصوب بإضمار أن جواب له . أو بلعل علي أن نصب تجعلوا نصب فاطلع في قوله تعالي ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ ﴾ (٣) إلحاقا لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجبة ، والمعني : إن تتقوا لا تجعلوا لله أندادا، أو بالذي جعل ، إن استأنفت به علي أنه نهي وقع خبرا علي تأويل مقول فيه : لا تجعلوا ، والفاء للسببية أدخلت عليه لتضمن المبتدأ معني الشرط والمعني : أن من خصكم بهذه النعم الجسام والآيات العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به . والند : المثل المناوئ ، قال جرير :

أَتيمًا تَجْعلونَ إليَّ نداً وما تيمٌ لذى حَسَبٍ نَديدُ (٤)

من ند يند ندودا : إذا نفر ، وناددت الرجل خالفته ، خص بالمخالف المماثل في الذات كما خص المساوى بالمماثل فى القدر وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا ، وما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لأنهم لما

(١) الدخان : ٢٥ . (٢) البقرة : ٢٢٨ . (٣) غافر : ٣٧ .

(٤) أورده صاحب الكشاف بنصب كلمة « نديد » في نهاية البيت . وذلك على اعتبار أن ما تعمل عمل ليس ، فنديداً خبرها

اما رواية المؤلف هنا علي اعتبار أن ما لا تعمل .

*** الإعجاز العلمي**

- **والقدرة الأولي أنه شبه الأرض بالفراش كالمهاد لما يمهد والبساط لما يبسط وليس من ضرورات الافتراش أن يكون سطحها مستويا كالفراش علي ما ظن فسواء كان كذلك أوعلي شكل الكرة فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم جرمها وتباعد أطرافها .**

ومن فضل الله علي عباده في خلق الأرض أنها لم تجعل في غاية الصلابة كالحجر والتي

تركوا عبادته إلي عبادتها ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة علي أن تدفع عنهم بأس الله ، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير ، فتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أندادا لمن يمتنع أن يكون له ند . ولهذا قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل : (١)

أَرَبًّا واحدًا أَمْ أَلْـــفُ رَبٍّ ... أَدِيْنُ إذا تقسَّمــتِ الأمورُ

تركْتُ اللاتَ والعزَّى جميعًا ... كذلك يَفعْلُ الرجلُ البصيرُ

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال من ضمير فلا تجعلوا ، ومفعول تعلمون مطروح ، أي: وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي ، فلو تأملتم أدني تأمل اضطر عقلكم إلي إثبات موجد للممكنات منفرد بوجوب الذات ، متعال عن مشابهة المخلوقات . أو منوي وهو أنها لا تماثله ولا تقدر علي مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ (٢) وعلي هذا فالمقصود منه التوبيخ والتثريب ، لا تقييد الحكم وقصره عليه ، فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء في التكليف .

---

(١) زيد بن عمرو بن نفيل أحد المتحنفين قبل الإسلام ، والبيتان ذكرهما ابن هشام في سيرته جـ١ص٢٢٧ إلا أنه ذكر عجز البيت الثاني هكذا :

كذلك يفعل الجلد الصبور .

(٢) الروم : ٤٠ .

*** الإعجاز العلمي**

- غاية اللين والانغمار كالماء ليسهل النوم عليها والمشي فيها بل جعلت بعض أجزائها بارزة ليستقر عليها الإنسان وأخري غائرة لينجذب إليها الماء فتتكون البحار والأنهار وهذا في قوله تعالي ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ ومنها اختلاف ألوانها ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ ومنها انصداعها بالنبات ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ ومنها جذبها للماء المنزل من السماء﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ ومنها العيون والأنهار ﴿ والأرض مددناها ﴾ ومنها ان فيها طبع الكرم والسماحة فتأخذ الحبة الواحدة وتردها سبعمائة ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ ومنها حياتها وموتها ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ ومنها الدواب المختلفة ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ ومنها النباتات

واعلم إن مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى ، والنهي عن الإشراك به تعالي ، والإشارة إلي ما هو العلة والمقتضي . وبيانه أن رتب الأمر بالعبادة علي صفة الربوبية إشعارا بأنها العلة لوجوبها ، ثم بين ربوبيته بأنه تعالي خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المقلة والمظلة والمطاعم والملابس، فإن الثمرة أعم من المطعوم ، والرزق أعم من المأكول والمشروب . ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة علي وحدانيته تعالي ، رتب تعالي عليها النهي عن الإشراك به ، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة مع ما دل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام ، الإشارة إلي تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات علي طريقة التمثيل ، فمثل البدن بالأرض ، والنفس بالسماء ، والعقل بالماء ، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس ، وازدواج القوي النفسانية والبدنية ، بالثمرات المتولدة من ازدواج القوي السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار ، فإن لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حد مطلعا .

* الإعجاز العلمي

= المتنوعة ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ فإذا تأمل العاقل في هذه الغرائب والعجائب اعترف بمدبر حكيم ومقدر عظيم .

القدرة الثانية في منافع السماء فهي كالبناء مصدر سُمِّيَ به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء ثم إن الله تعالي زين السماء الدنيا بالمصابيح ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وبالقمر ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ وبالشمس ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ وبالعرش ﴿ رب العرش العظيم ﴾ وبالكرسي ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ وباللوح ﴿ في لوح محفوظ ﴾ وسماها سقفا محفوظا وسبعا طباقا وسبعا شداداً وذكر أن خلقها مشتمل علي حكم بليغة وغايات صحيحة ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا ﴾.

وجعلها مصعد الأعمال ومهبط الأنوار وقبلة الدعاء ومحل الضياء والصفاء وجعل لونها أنفع الألوان وهو المستنير وشكلها أفضل الأشكال وهو المستدير وجعل نجومها رجوما للشياطين وعلامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وقيض للشمس طلوعا يسهل معه =

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ لما قرر وحدانيته تعالي وبين الطريق الموصل إلي العلم بها ، ذكر عقيبه ما هو الحجة علي نبوة محمد ﷺ ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطق وإفحامه ، من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضارة ، وتهالكهم علي المعازة والمعارة ، وعرف ما يتعرف به إعجازه ويتيقن أنه من عند الله كما يدعيه . وإنما قال ﴿ مما نزلنا ﴾ لأن نزوله نجما منجما بحسب الوقائع علي ما تري عليه أهل الشعر والخطابة مما يريبهم ، كما حكي الله عنهم فقال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) . فكان الواجب تحديهم علي هذا الوجه إزاحة للشبهة وإلزاما للحجة ، وأضاف العبد إلي نفسه تعالي تنويها بذكره ، وتنبيها علي أنه مختص به منقاد لحكمه تعالي ، وقرئ عبادنا : يريد محمدا ﷺ وأمته . والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات ، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولة من سور المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة علي حيالها ، أو محتوية علي أنواع من العلم احتواء سور المدينة علي ما فيها ، أو من السورة التي هي الرتبة ، قال النابغة :(٢)

---

(١) الفرقان : ٣٢ .

(٢) هو النابغة الذبياني ، واسمه زياد بن معاوية : ويكنى أبا أمامة ، من أبلغ شعراء الجاهلية . وحرّاب في البيت هو حرّاب بن زهير . وقدٌّ : هو قَدُّ بن مالك وكلاهما ذو شرف ومجد في قومه .

* **الإعجاز العلمي**

التقلب لقضاء الأوطار وغروبا يصلح معه الهدوء والقرار ولولا طلوع الشمس لتجمدت المياه في البحار من البرودة ولولا الغروب لحميت الأرض حتي يحترق كل من عليها من حيوان ونبات وكذلك حركة الشمس قد جعلها الله سببا لإقامة الفصول الأربعة.

إذا تأملت في هذا العالم وجدته كالبيت المعدّ فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيئات لمنافعه وصنوف الحيوان متصرفة في مصالحه فهذه جملة واضحة دالة علي أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية .

وَلِرَهْطِ حَرَّابٍ وَقَدٌّ سُورةٌ ... في المجْدِ ليسَ غرابُها بمطَارِ

لأن السور كالمنازل والمراتب يترقي فيها القارئ ، أولها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة . وإن جعلت مبدلة من الهمزة فمن السؤرة التي هي البقية والقطعة من الشئ.

الحكمة في تقطيع القرآن إلي سور

والحكمة في تقطيع القرآن سورا : إفراد الأنواع ، وتلاحق الأشكال ، وتجاوب النظم ، وتنشيط القارئ ، وتسهيل الحفظ ، والترغيب فيه . فإنه إذا ختم سورة نَفَّسَ ذلك عنه ، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلا أو طوي بريدا ، والحافظ متي حذقها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظا تاما ، وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها ، فعظم ذلك عنده وابتهج به إلي غير ذلك من الفوائد .

﴿ من مِّثْله ﴾ صفة سورة أي : بسورة كائنة من مثله ، والضمير لما نزلنا ، ومن للتبعيض أو للتبيين . وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم . أو لعبدنا ، أومن للابتداء أي : بسورة كائنة ممن هو علي حاله ﷺ من كونه بشرا أميا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم . أو صلة فائتوا ، والضمير للعبد ﷺ ، والرد إلي المنزل أوجه لأنه المطابق لقوله تعالي ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِه ﴾(١) ولسائر آيات التحدي ، ولأن الكلام فيه لا في المنزل عليه فحقه أن لاينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم ، ولأن مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتي به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ في التحدي من أن يقال لهم : ليأت بنحو ما أوتي به هذا آخر مثله ، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالي : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه ﴾ (٢) . ولأن رده إلي عبدنا يوهم إمكان صدوره ممن لم يكن علي صفته ، ولا يلائمه قوله تعالي .

= وليس غرابُها بمطار تعبير كنائى عن دوام العز وعدم انتقاله .

(١) البقرة : ٢٣ . (٢) الإسراء : ٨٨ .

﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم . والشهداء جمع شهيد بمعني الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر ، أو الإمام . وكأنه سمي به لأنه يحضر النوادي وتبرم به بمحضره الأمور ، إذ التركيب للحضور ، إما بالذات أو بالتصور ، ومنه قيل : للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه ، أو الملائكة حضروه . ومعني ﴿ دون ﴾ أدني مكان من الشئ ومنه تدوين الكتب ، لأنه إدناء البعض من البعض ، ودونك هذا أي : خذه من أدني مكان منك ، ثم استعير للرتب فقيل : زيد دون عمرو أي: في الشرف ، ومنه الشئ الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلي حد وتخطي أمر إلي آخر ، قال تعالي ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١٩٢) أي لا يتجاوز ولاية المؤمنين إلي ولاية الكافرين . قال أمية :(١٩٣) :

يا نفسُ مَا لَكِ دون الله منْ واقِ

أي إذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيك غيره .

و﴿ من ﴾ متعلقة بادعوا . والمعني وادعوا للمعارضة من حضركم ، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالي ، فإنه لا يقدر علي أن يأتي بمثله إلا الله . أو : وادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله ، ولا تستشهدوا بالله فإنه من ديدن المبهوت (١٩٤) العاجز عن إقامة الحجة . أو بشهدائكم أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياء وآلهة ، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة . أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالي علي زعمكم من قول

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يؤمن لأنه كان يطمع في النبوة ، قال عنه النبي ﷺ : هذا شاعر آمن شعره وكفر قلبه .

والشطر المذكور صدر بيت عجزه :

ولا للسع بنات الدهر من راق .

(٣) ديدن المبهوت : عادة المغلوب .

الأعشي : (١٩٥)

تُريكَ القَذَي مِنْ دونِها وهي دُونَهُ

ليعينوكم وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التبكيت والتهكم بهم . وقيل : من دون الله أي من دون أوليائه ، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، فإن العاقل لا يرضي لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فساده وبان اختلاله .

﴿ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنه من كلام البشر ، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله . والصدق : الإخبار المطابق ، وقيل : مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو أمارة ، لأنه تعالي كذب المنافقين في قولهم : إنك لرسول الله ، لمَّا لم يعتقدوا مطابقته ، ورد بصرف التكذيب إلي قولهم نشهد ، لأن الشهادة إخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به .

---

(١٩٥) الأعشى هو ميمون بن قيس النذاري كان أعمي ، ويكني أبا بصير ، أدرك الإسلام ولم يسلم.

والشطر المذكور صدر بيت عجزه هو :

إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

وهو من قصيدة يمدح فيها المحلق بن خيثم بن شداد .

والضمير في تريك يعود على الخمر ، ومعني يتمطق : يصوت بفتح فمه ومص لسانه وشفتيه .

الآيات من ٢٤ : ٢٥

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمر الرسول ﷺ وما جاء به ، وميز لهم الحق عن الباطل ، رتب عليه ما هو كالفذلكة له ، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعا عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب ، فآمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب ، فعبر عن الإتيان المكيف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازا ، ونزل لازم الجزاء منزلته علي سبيل الكناية تقريرا للمكني عنه ، وتهويلا لشأن العناد ، وتصريحا بالوعيد مع الإيجاز ، وصدر الشرطية بإن التي للشك والحال يقتضي إذا الذي للوجوب ، فإن القائل سبحانه وتعالي لم يكن شاكا في عجزهم، ولذلك نفي إتيانهم معترضا بين الشرط والجزاء تهكما بهم وخطابا معهم علي حسب ظنهم ، فإن العجز قبل التأمل لم يكن محققا عندهم . وتفعلوا : جزم بلم لأنها واجبة الإعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول ، ولأنها لما صيرته ماضيا صارت كالجزء منه ، وحرف الشرط كالداخل علي المجموع فكأنه قال : فإن تركتم الفعل ، ولذلك ساغ اجتماعهما .

ولن كلا في نفي المستقبل غير أنه أبلغ وهو حرف مقتضب عند سيبويه والخليل في إحدي الروايتين عنه ، وفي الرواية الأخري أصله لا أن ، وعند الفراء لا فأبدلت ألفها نونا .

والوقود بالفتح ما توقد به النار ، وبالضم المصدر وقد جاء المصدر بالفتح قال سيبويه : وسمعنا من يقول وقدت النار وقودا عاليا والاسم بالضم ولعله مصدر سُمّي به كما قيل : فلان فخر قومه وزين بلده ، وقد قرئ به والظاهر أن المراد به الاسم ، وإن أريد به المصدر فعلي حذف مضاف أي : وقودها احتراق الناس ،

والحجارة : وهي جمع حجر . كجمالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس ، والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعا في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم ، ويدل عليه قوله تعالي ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (١) عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه . أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسرهم .

وقيل : الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها ، وعلي هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجه ، وقيل : حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطال للمقصود ، إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقم لهبها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها ، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضعفت ، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما فلعله عني به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران .

ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالي في سورة التحريم ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) وسمعوه صح تعريف النار . ووقوع الجملة صلة بإزائها فإنها يجب أن تكون قصة معلومة .

﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم . وقرئ : أعدت من العتاد بمعني العدة ، والجملة استئناف ، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها ، وإن جعلته مصدرا للفصل بينهما بالخبر .

من دلائل النبوة

وفي الآيتين ما يدل علي النبوة من وجوه :

الأول : ما فيهما من التحدي والتحريض علي الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد ، وتعليق الوعيد علي عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم علي المضادة لم يتصدوا لمعارضته ، التجؤوا إلي جلاء الوطن وبذل المهج .

والثاني :أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب علي ما هو به ، فإنهم لو عارضوه

---

(١) الأنبياء : ٩٨ . (٢) التحريم : ٦ .

بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه في كل عصر .

والثالث : أنه ﷺ لو شك في أمره لما دعاهم إلي المعارضة بهذه المبالغة ، مخافة أن يعارض فتدحض حجته . وقوله تعالي ﴿ **أعدت للكافرين** ﴾ دل علي أن النار مخلوقة معدة الآن لهم .

تبشير المؤمنين بالجنة

﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ** ﴾ عطف علي الجملة السابقة ، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه ، علي حال من كفر به وكيفية عقابه علي ما جرت به العادة الإلهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب ، تنشيطا لاكتساب ما ينجي ، وتثبيطًا عن اقتراف ما يردي ، لا عطف الفعل نفسه حتي يجب أن يطلب له ما يشاكل من أمر أو نهي فيعطف عليه أو علي فاتقوا ، لأنهم إذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازه ، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب ، ومن آمن به استحق الثواب ، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء ، وإنما أمر الرسول ﷺ ، أو عالم كل عصر ، أو كل أحد يقدر علي البشارة بأن يبشرهم . ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة ، تفخيما لشأنهم وإيذانا بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم .

وقرئ وبُشِّرَ علي البناء للمفعول عطفا علي أعدت فيكون استئنافا ، والبشارة : الخبر السار فإنه يظهر أثر السرور في البشرة ، ولذلك قال الفقهاء البشارة : هي الخبر الأول ، حتي لو قال الرجل لعبيده : من بشرني بقدوم ولدي فهو حر ، فأخبروه فرادي عتق أولهم ، ولو قال من أخبرني ، عتقوا جميعا ، وأما قوله تعالي ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (١) فعلي التهكم أو علي طريقه قوله: تَحِيَّةُ بَيْنَهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ.

والصالحات جمع صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجري الأسماء كالحسنة ، قال الحطيئة (٢)

---

(١) آل عمران : ٢١ .

(٢) الحطيئة : هو جرول بن أوس المخزومي الغطفاني ، ويكني أبا مليكة ، ولقب بالحطيئة لقصره وقربه من الأرض ، أدرك الإسلام فاسلم ، فهو شاعر مخضرم ، كان هجاءً =

كَيْفَ الهِجَاءُ وما تَنْفَكُّ صالحةٌ من آل لامٍ بظَهْرِ الغَيْبِ تأْتِينى

وهي من الأعمال ما سوغه الشرع وحسنه ، وتانيثها علي تأويل الخصلة ، أو الخلة ، واللام فيها للجنس ، وعطف العمل علي الإيمان مرتبا للحكم عليهما إشعارا بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين ، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أسٌ ، والعمل الصالح كالبناء عليه ، ولا غناء بأس لا بناء عليه ، ولذلك قلما ذكرا منفردين . وفيه دليل علي أنها خارجة عن مسمي الإيمان ، إذ الأصل أن الشيء لا يعطف علي نفسه ولا علي ما هو داخل فيه .

﴿ **أن لهم** ﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه ، أو مجرور بإضماره مثل الله لأفعلن . والجنة : المرة من الجن وهو مصدر جنه إذا ستره ، ومدار التركيب علي الستر ، سمي بها الشجر المظلل لالتفاف أغصانه للمبالغة كأنه يستر ما تحته سترة واحدة قال زهير :

كأنَّ عَيني في غَربي مقتلَة من النواضِحِ تَسقْي جَنَّةً سُحُقا (١)

أي نخلا طوالا ، ثم البستان ، لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة ، ثم دار الثواب لما فيها من الجنان ، وقيل : سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أعد فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالي ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ (٢) .

= فاحشا في هجائه .

وآل لام أو لأم بالهمزة قوم ابن سعد أحد وجهاء العرب وممدوحيهم ، كان النعمان ابن المنذر قد أكرم ابن سعدي وأجاره ، فحسدته العرب ، وبذلوا للحطيئة مائة بعير ليهجوه فقال البيت المذكور ضمن قصيدة

(١) البيت من قصيدة مطلعها :

إن الخليط أجدُّوا البين فافترقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

والغَرْب في البيت الذي أورده المصنف هي الدلو العظيمة ومثني غرب : غربان والمقتلة صفة للناقة المذللة المعتادة على العمل ، والإبل النواضح التي يسقى عليها الماء ، وسُحُقًا: جمع سَحوق وهي النخلة الطويلة أو المكان البعيد .

(٢) السجدة : ١٧ .

أسماء الجنان

وجمعها وتنكيرها لأن الجنان علي ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع : جنة **الفردوس** ، وجنة **عدن** ، وجنة **النعيم** ، ودار **الخلد** ، وجنة **المأوي** ، ودار **السلام، وعليون** ، وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة علي حسب تقاوت الأعمال والعمال . واللام في ﴿ **لهم** ﴾ تدل علي استحقاقهم إياها ، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح ، لا لذاته فإنه لا يكافئ النعم السابقة فضلا عن أن يقتضي ثوابا وجزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع ، ومقتضي وعده تعالي لا علي الإطلاق ، بل بشرط أن يستمر علبه حتي يموت وهو مؤمن لقوله تعالي ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** ﴾[١] وقوله تعالي لنبيه ﷺ ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾[٢] وأشباه ذلك ، ولعله سبحانه وتعالي لم يقيد ههنا استغناء بها .

﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ أي من تحت أشجارها ، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة علي شواطئها . وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود : واللام في الأنهار للجنس ، كما في قولك لفلان : بستان في الماء الجاري ، أو للعهد ، والمعهود : هي الأنهار المذكورة في قوله تعالي : ﴿ **فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ** ﴾[٣] الآية والنهر بالفتح والسكون : المجري الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل والفرات ، والتركيب للسعة ، والمراد بها ماؤها علي الإضمار ، أو المجاز ، أو المجاري أنفسها . وإسناد الجري إليها مجاز كما في قوله تعالي ﴿ **وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾[٤] الآية .

﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا** ﴾ صفة ثانية لجنات ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستانفة . كأنه لما قيل : إن لهم جنات ، وقع في خلد السامع أثمارها مثل ثمار الدنيا ، أو أجناس أخر فأزيح بذلك ، و﴿ **كلما** ﴾

---

(١) البقرة : ٢١٧ .
(٢) الزمر : ٦٥ .
(٣) محمد : ١٥ .
(٤) الزلزلة : ٢ .

نصب علي الظرف ، و﴿ رزقا ﴾ مفعول به ، ومن الأولي والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال ، وأصل الكلام ومعناه : كل حين رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة ، قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات ، وابتدأوه منها بابتدائه من ثمرة فصاحب الحال الأولي رزقا وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال ويحتمل أن يكون من ثمرة ، بيانا تقدم كما في قولك : رأيت منك أسدا ، وهذا إشارة إلي نوع ما رزقوا كقولك مشيرا إلي نهر جار : هذا الماء لا ينقطع ، فإنك لا تعني به العين المشاهدة منه ، بل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلي عينه ، فالمعني هذا مثل الذي رزقنا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته كقولك : أبو يوسف أبو حنيفة .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هذا في الدنيا ، جعل ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يري ، فإن الطباع مائلة إلي المألوف متنفرة عن غيره ، ويتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه ، إذ لو كان جنسا لم يعهد ظن أنه لا يكون إلا كذلك ، أو في الجنة لأن طعامها متشابه في الصورة ، كما حكي ابن كثير عن الحسن رضي الله عنهما : (**أن أحدهم يؤتي بالصحفة فيأكل منها ، ثم يؤتي بأخري فيراها مثل الأولي فيقول ذلك ، فيقول الملك : كل فاللون واحد والطعم مختلف**)(١) أو كما روي أنه ﷺ قال : (**والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلي فيه ، حتي يبدل الله تعالي مكانها مثلها**)(٢) . فلعلهم إذ رأوها علي الهيئة الأولي قالوا ذلك ، والأول أظهر لمحافظته علي عموم ﴿ كلما ﴾ فإنه يدل علي ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا والداعي لهم إلي ذلك فرط استغرابهم وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة .

﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ اعتراض يقرر ذلك ، والضمير علي الأول راجع إلي ما

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ٤٤ .

(٢) رواه الطبراني والبزار والحاكم من حديث ثوبان بلفظ : « لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها شيئًا إلا أخلف الله مكانها مثلها » .

وأخرجه السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ٤٤ .

رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل ﴿ هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ ونظيره قوله عز وجل ﴿ إن يكُنْ غَنيًّا أَوْ فقيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ (١) أي بجنسي الغني والفقير ، وعلي الثاني إلي الرزق . فإن قيل : التشابه هو التماثل في الصفة ، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالي عنهما « **ليس في الجنة من أطعمه إلا الأسماء** » (٢) .

قلت : التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم ، وهو كاف في إطلاق التشابه .

هذا وإن للآية الكريمة محملا آخر ، وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات ، متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها ، فيحتمل أن يكون المراد من ﴿ هذا الذي رزقنا ﴾ أنه ثوابه ، ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة ، فيكون هذا في الوعد نظير قوله ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) في الوعيد .

نساء الجنة

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن ، كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق ، فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال . وقرئ : مطهرات وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن ، وهن فاعلة وفواعل ، قال :

وإذَا العَذَارى بالدّخَانِ تَقَنَّعَتْ   واستَعَجلتْ نَصْبَ القُدورِ فملَّت (٤)

فالجمع علي اللفظ ، والإفراد علي تأويل الجماعة ، ومطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعني متطهرة ، ومطهرة أبلغ من طاهرة ومطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن وليس هو إلا الله عز وجل ، والزوج يقال للذكر والأنثي ، وهو في الأصل لما

---

(١) النساء : ١٣٥ .   (٢) الدر المنثور جـ ١ ص ٤٤ .

(٣) العنكبوت : ٥٥ .

(٤) البيت من شعر سلمى بن ربيعة بن جفنة الضبي .

شبه استتار الأبكار بالدخان أو سوادهن به استتارهن بالقناع . ومعنى ملت : أي شوت المليل بأن تضع اللحم أو الخبز على الجمر فينضج .

له قرين من جنسه كزوج الخف ، فان قيل : فائدة المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع ، وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع ، وهي مستغني عنها في الجنة . قلت : مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما تشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات ، وتسمي بأسمائها علي سبيل الاستعارة والتمثيل ، ولا تشاركها في تمام حقيقتها حتي تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدها .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون . والخلد والخلود في الأصل الثبات المديد دام أم لم يدم ، ولذلك قيل للأثافي [١] والأحجار خوالد ، وللجزء الذي يبقي من الإنسان علي حاله ما دام حيا خلد ، ولو كان وضعه للدوام كان التقييد بالتأبيد في قوله تعالي ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [٢] لغوا واستعماله حيث لا دوام ، كقوله وقف مخلد ، يوجب اشتراكا ، أو مجازا . والأصل ينفيهما بخلاف ما لو وضع للأعم منه فاستعمل فيه بذلك الاعتبار ، كإطلاق الجسم علي الإنسان مثل قوله تعالي : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [٣] لكن المراد به ههنا الدوام عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنن .

اعتراض وجوابه

فإن قيل : الأبدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية ، معرضة للاستحلالات المؤدية الي الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها في الجنان . قلت : إنه تعالي يعيدها بحيث لا يعتورها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلا متقاومة في الكيفية ، متساوية في القوة لا يقوي شيء منها علي إحالة الآخر ، متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد في بعض المعادن .

هذا وإن قياس ذلك العالم وأحواله علي ما نجده ونشاهده من نقص العقل وضعف البصيرة. واعلم أنه لما كان معظم اللذات الحسية مقصورا علي : المساكن والمطاعم، والمناكح، علي ما دل عليه الاستقراء كان ملاك ذلك كله الدوام والثبات، فإن كل نعمة جليلة إذ قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم ، بشر المؤمنين بها ومثل ما أعد لهم في الآخرة بأبهي ما يستلذ به منها، وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل علي كمالهم في التنعم والسرور.

---

(١) الأثافي : جمع أُثْفِية وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر .

(٢) النساء : ١٦٩ ، المائدة : ١١٩ ، البينة : ٨.   (٣) الأنبياء : ٣٤ .

الآية ٢٦

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

من أمثال القرآن

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾ لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل ، عقب ذلك بيان حسنه ، وما هو الحق له والشرط فيه ، وهو أن يكون علي وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل ، فإن التمتيل إنما يصار إليه لكشف المعني الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس ، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإن المعني الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم ، لأن من طبعه الميل إلي الحس وحب المحاكاة ، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء ، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم ، وإن كان المثل أعظم من كل عظيم ، كما مثل في الإنجيل غل الصدور ، بالنخالة . والقلوب القاسية ، بالحصاة ، ومخاطبة السفهاء ، بإثارة الزنابير .

وجاء في كلام العرب : أسمع من قراد وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوض. لا ما قالت الجهلة من الكفار : لما مثل الله حال المنافقين بحال المستوقدين؟ وأصحاب الصيب وعبادة الأصنام في الوهن والضعف ببيت

* الإعجاز العلمي

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

إراد الله أن يضرب للذين كفروا مثلا بأصغر مخلوقاته ولكنهم يستنكرون ذلك لحقارتها ولكن هذه الحشرة الصغيرة التى لا وزن لها تستطيع أن تقوم بمناورات تصل إلى حد

العنكبوت؟ وجعلها أقل من الذباب وأخس قدرا منه ؟ الله سبحانه وتعالي أعلي وأجل من أن يضرب الأمثال ويذكر الذباب والعنكبوت . وأيضا ، لما أرشدهم إلي ما يدل علي أن المتحدي به وحي منزل ورتب عليه وعيد من كفر به ووعد من آمن به بعد ظهور أمره شرع في جواب ما طعنوه به فيه فقال تعالي ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي** ﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها . والحياء : انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم ، وهو الوسط بين الوقاحة : التي هي الجراءة علي القبائح وعدم المبالاة بها ، والخجل : الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقا .

واشتقاقه من الحياة فإنه انكسار يعتري القوة الحيوانية فيردها عن أفعالها فقيل : حيي الرجل كما يقال نسي وحشي ، إذا اعتلت نساه (١) وحشاه . وإذا وصف به الباري تعالي كما جاء في الحديث « **إن الله يستحيي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه ، إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا حتي يضع فيهما خيرا** » (٢) فالمراد به الترك اللازم للانقباض ،كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما ، ونظيرة قول من يصف إبلا :

إذا ما اسْتَحينَ الماءَ يعْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنَ بسَبْتٍ في إناءٍ من الوَرْدِ (٣)

(١) النَّسا ـ بفتح النون هو عرق النَّسا الذي يُصاب به الإنسان في بعض الأحيان .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم بلفظ : « إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفرا » وقال الترمذي : حسن غريب .

(٣) البيت من شعر المتنبي وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين .

واستحين بمعني خشين ، والضمير في استحين يعود على العس وهي النوق الواردة في بيت سابق ، وكرعن : شربن ، والسِّبت : جلود البقر المدبوغة .

* الإعجاز العلمى

= **تحريك جناحيها ٦٠٠ مرة فى الثانية الواحدة ، وتبين أن الذى يقوم بعملية الانقضاض لامتصاص الدماء البشرية هو أنثى البعوض وليس ذكرها ، كما تكره الأنثى ذكرها لأنه عندما يهم بها يصدر صوتا شديداً تتقزز منه وتفر هاربة .**

هذه الحشرة الصغيرة تهدد العالم اليوم فتسببت فى إصابة ٥٠٠ مليون بالإصابة بالملاريا وتهدد ٤٠٪ من سكان ٩٠ دولة فى العالم طبقا للأرقام الرسمية لمنظمة الصحة العالية مما

وإنما عدل به عن الترك ، لما فيه من التمثيل والمبالغة ، وتحتمل الآية خاصة أن يكون مجيئه علي المقابلة لما وقع في كلام الكفرة . وضرب المثل اعتماله من ضرب الخاتم ، وأصله وقع شيء علي آخر ، وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من ، منصوب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيوبه . وما إبهامية تزيد النكرة إبهاما وشياعا وتسد عنها طرق التقييد و كقولك أعطني كتابا ما ، أي : أي كتاب كان . أو مزيدة للتأكيد كالتي في قوله تعالي : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع ، فإن القرآن كله هدي وبيان ، بل ما لم يوضع لمعني يراد منه ، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة وهو زيادة في الهدي غير قادح فيه .

وبعوضة عطف بيان لمثلا . أو مفعول ليضرب ، ومثلا حال تقدمت لأنه نكرة . أو هما مفعولاه لتضمنه معني الجعل . وقرئت بالرفع علي أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعلي هذا يحتمل ﴿ ما ﴾ وجوها أخر : أن تكون موصولة حذف صدر صلتها ، كما حذف في قوله ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ (٢) وموصوفة بصفة كذلك ، ومحلها النصب بالبدلية علي الوجهين. واستفهامية هي المبتدأ ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال ، قال بعده : ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل ، بل له أن يمثل بما هو أحقر من ذلك . ونظيره فلان لا يبالي مما يهب ما دينار وديناران . والبعوض فعول من البعض ، وهو القطع كالبضع والعضب ، غلب علي هذا النوع كالخموش .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) الأنعام : ١٥٤ .

*** الإعجاز العلمى**

جعل العلماء يخترعون جهازًا صغيرًا فى حجم علبة الكبريت يصدر الجهاز صوتا مماثلا لصوت ذكر البعوض وهذا يجعل الأنثى تفر .

ولكن لاشيء حقير في خلق الله ومن الصعب بل من المستحيل أن نتكلم في الإعجاز العلمي في حشرة كاملة كالبعوضة فهناك مئات الألوان من الحشرات وأنواعها التي يعرفها العلماء والتي لم تكتشف بعد .

ولو تكلمنا فقط عن جناح أي حشرة بعوضة أو فراشة أو ذبابة وجدت أن سطح الجناح يتميز بألوان جذابة هي ليست دهانات بل وحدات تراكبت في وحدات وهي أشبه بقشور الأسماك مع الفارق في التكوين ولكي تتخيل عظمة الخالق فيها فلك أن تعرف أن طول هذه الوحدة من التربيعات علي جناح الفراشة طولها في حدود عشر ملليمتر وعرضها نصف ذلك

﴿ فما فوقها ﴾ عطف علي بعوضة ، أو ما إن جعل اسما ، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت ، كأنه قصد به رد ما استنكروه .

والمعني : أنه لا يستحيي ضرب المثل بالبعوض فضلا عما هو أكبر منه أو في المعني الذي جعلت فيه مثلا ، وهو الصغر والحقارة كجناحها فإنه ﷺ ضربه مثلا للدنيا ، ونظيره في الاحتمالين ما روي أن رجلا بمني خَرَّ علي طنب فسطاط فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال « **ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها ، إلا كتب له بها درجة ، ومحيت عنه بها خطيئة** » [(١)] . فإنه يحتمل ما تجاوز الشوكة في الألم كالخرور [(٢)] وما زاد عليها في القلة كنخبة النملة ، لقوله ﷺ « **ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة** » [(٣)] .

﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ أما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معني الشرط ، ولذلك يجاب بالفاء . قال سيبويه : أما زيد فذاهب معناه : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب ، أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة ، وكان الأصل دخول الفاء علي الجملة لأنها الجزاء ، لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط فأدخلوها علي الخبر ، وعوضوا المبتدأ عن الشرط لفظا ، وفي تصديره الجملتين به إخماد لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم ، وذم بليغ للكافرين علي قولهم ، والضمير في ﴿ أنه ﴾ للمثل ، أو لأن يضرب . و ﴿ الحق ﴾ الثابت الذي

---

(١) رواه السيوطي فى الجامع الصغير ص ١٥٩ وقال : رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها ، ورمز له السيوطي بالصحة والحسن .

(٢) الخرور : السقوط من أعلى ، يقال : فخر ساقطا ، وخر مغشيا عليه .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف : لم أجده ، وأصل الحديث ـ دون ما فى آخره ـ مروى بطرق كثيرة . ونخبة النملة : عضتها .

*** الإعجاز العلمي**

أي ٠٥ , أي أنه علي مساحة ملليمتر مربع واحد من سطح الجناح يوجد مابين ٢٠٠ : ٦٠٠ حرشفة ويتوقف ذلك علي نوع الحشرة ونوع الحرشفة نفسها ودرجة تداخلها مع غيرها ومعني ذلك أن هناك مئات الألوان أو الملايين من الحراشيف الملونة علي السطوح العلوية والسفلية لأجنحة الفراشة.

إن هذه الوحدات تتراص في نظام دقيق فتعطي لكل نوع من الفراشات نمطه المميز بحيث يمكننا التعرف علي نوع الفراشة من نظام الزخرفة الموجودة علي جناحها دون أن نري

لا يسوغ إنكاره ، يعم الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة ، من قولهم حق الأمر ، إذا ثبت ومنه : ثوب محقق أي : محكم النسج.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ﴾ كان من حقه : وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه ، لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا علي كمال جهلهم عدل إليه علي سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه .

﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ يحتمل وجهين : أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهامية و﴿ ذا ﴾ بمعني الذي وما بعده صلته ، والمجموع خبر ما . وأن تكون ﴿ما ﴾ مع ﴿ ذا ﴾ اسما واحدا بمعني : أي شيء ، منصوب المحل علي المفعولية مثل ما أراد الله ، والأحسن في جوابه الرفع علي الأول ، والنصب علي الثاني ، ليطابق الجواب السؤال . والإرادة : نزوع النفس وميلها إلي الفعل بحيث يحملها عليه ، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع ، والأول مع الفعل والثاني قبله ، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالي به ، ولذلك اختلف في معني إرادته فقيل : إرادته لأفعاله لأنه غير ساه ولا مكره ، ولأفعال غيره أمره بها . فعلي هذا لم تكن المعاصي بإرادته ، وقيل : علمه باشتمال الأمر علي النظام الأكمل ، والوجه الأصلح فإنه يدعو القادر إلي تحصيله ، والحق : أنه ترجيح أحد مقدوريه علي الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه ، أو معني يوجب هذا الترجيح ، وهي أعم من الاختيار فإنه ميل مع تفضيل وفي هذا استحقار واسترذال و ﴿ مثلا ﴾ نصب علي التمييز ، أو الحال كقوله تعالي ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ (١) .

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ جواب ماذا ، أي : إضلال كثير وإهداء كثير وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد ، أو بيان للجملتين المصدرتين بإما ، وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدي وبيان ، وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن مورده – ضلال وفسوق ، وكثرة كل واحد من القبيلتين بالنظر إلي أنفسهم لا بالقياس إلي مقابليهم ، فإن المهديين قليلون بالإضافة إلي أهل

(١) الأعراف : ٧٣ .

* **الإعجاز العلمي**

= الفراشة نفسها هذا: ومن العجب أن الذين كفروا يستنكرون ضرب المثل بالبعوضة لحقارتها.

الضلال كما قال تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٢) ويحتمل أن يكون كثرة الضالين من حيث العدد ، وكثرة المهديين باعتبار الفضل والشرف كما قال :

قَليلٌ إذا عُدُّوا كَثيرٌ إذا شَدُّوا (٣)

وقال :

إن الكِرام كثيرٌ في البلادِ وإنْ ... قَلُّوا كما غيرَهُم قلٌ (٤) وإن كَثُرُوا

﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن حد الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥) من قولهم : فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت . وأصل الفسق : الخروج عن القصد قال رؤبة :

فواسِقاً عن قَصْدِهَا جَوائراً (٦)

والفاسق في الشرع : الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ، وله درجات ثلاث :

الأولي : التغابي وهو أن يرتكبها أحيانا مستقبحا إياها .

والثانية : الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبال بها .

والثالثة : الجحود وهو أن يرتكبها مستصوبا إياها ، فإذا شارف هذا المقام وتخطي خططه خلع ربقة الإيمان من عنقه ، ولابس الكفر .

وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمي الإيمان ، ولقوله تعالي ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ (٧) .

---

(١) ص ٢٤ (٢) سبأ ١٣

(٣) إذا شَدُّوا : هجموا على أعدائهم لأن الواحد منهم يغنى غناء الكثير من الناس

(٤) رواه الزمخشرى فى الكشاف بفتح القاف « قَل » وهذا اللفظ بفتح القاف معناه القليل وهو المراد ، وبضم القاف بمعنى القلة ، وبالكسر بمعنى الارتعاد غضبا .

(٥) التوبة ٦٧ (٦) بعده : يذهبن فى نجد وغوراً غائرا

وقيل : هو لذى الرمة يصف نوقا تمشى فى المفاوز خارجات عن طريق الاستقامة

ـ من تعليق محقق الكشاف ـ

(٧) الحجرات ٩

رأي للمعتزلة

والمعتزلة لما قالوا : الإيمان : عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل ، والكفر تكذيب الحق وجحوده . جعلوه قسما ثالثا نازلا بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام ، وتخصيص الإضلال بهم مرتبا علي صفة الفسق يدل علي أنه الذي أعدهم للإضلال ، وأدي بهم إلي الضلال . وذلك لأن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل إلي حقارة الممثل به ، حتي رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه واستهزءوا به وقرئ يضل بالبناء للمفعول والفاسقون بالرفع .

الآيات من ٢٧ : ٢٩

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق .

والنقض : فسخ التركيب ، وأصله في طاقات الحبل ، واستعماله في إبطال العهد من حيث إن العهد يستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر ، فإن أطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحا للمجاز ، وإن ذكر مع العهد كان رمزا إلي ما هو من روادفه وهو أن العهد حبل في ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، كقولك شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس ، فإن فيه تنبيها علي أنه أسد في شجاعته بحر بالنظر إلي إفادته .

والعهد : الموثق ووضعه لما من شأنه أن يراعي ويتعهد كالوصية واليمين ، ويقال للدار ، من حيث إنها تراعي بالرجوع إليها . والتاريخ لأنه يحفظ ، وهذا العهد : إما العهد المأخود بالعقل ، وهو الحجة القائمة علي عباده الدالة علي توحيده

ووجوب وجوده وصدق رسوله ، وعليه أوِّلَ قوله تعالي ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) أو : المأخوذ بالرسل علي الأمم ، بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه ، وإليه أشار بقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (٢)ونظائره . وقيل : عهود الله تعالي ثلاثة : عهد أخذه علي جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته ، وعهد أخذه علي النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ، وعهد أخذه علي العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه .

﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ و ﴾ الضمير للعهد ، والميثاق : اسم لما يقع به الوثاقة وهي الاستحكام ، والمراد به ما وثق الله به عهده من الآيات والكتب ، أو ما وثقوه به من الالتزام والقبول ، ويحتمل أن يكون بمعني المصدر . و﴿ من ﴾ للابتداء فإن ابتداء النقض بعد الميثاق .

﴿ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ يحتمل كل قطعية لا يرضاها الله تعالي ، كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام ، والكتب في التصديق ، وترك الجماعات المفروضة ،وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والأمر هو القول الطالب للفعل ، وقيل : مع العلو ، وقيل : مع الاستعلاء ، وبه سمى الأمر الذى هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر ، فإنه مما يؤمر به كما قيل : له شان وهو الطلب . والقصد يقال : شأنت شأنه ،إذا قصدت قصده ﴿ أَنْ يُوصَلَ ﴾ يحتمل النصب والخفض علي أنه بدل من ما ، أو ضميره . والثاني أحسن لفظا ومعني .

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق ، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية ، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها ، والنظر

---

(١) الأعراف ١٧٢ (٢) آل عمران ١٨٧

في حقائقها والاقتباس من أنوارها ، واشتراء النقض بالوفاء ، والفساد بالصلاح ، والعقاب بالثواب .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ استخبار فيه إنكار ، وتعجيب لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها علي الطريق البرهاني ، فإن صدوره لا ينفك عن حال وصفة فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها استلزم ذلك إنكار وجوده ، فهو أبلغ وأقوي في إنكار الكفر ، من أتكفرون وأوفق لما بعده من الحال . والخطاب مع الذين كفروا لما وصفهم بالكفر وسوء المقال وخبث الفعال ، خطابهم علي طريقة الالتفات ، ووبخهم علي كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك ، والمعني أخبروني علي أي حال تكفرون .

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ أي أجساما لا حياة لها ، عناصر وأغذية ، وأخلاطا ونطفا، ومضغا مخلقة وغير مخلقة .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم ، وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غير متراخ عنه بخلاف البواقي .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عندما تقضي آجالكم .﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم . أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب ، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه .

فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم ، لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون . قلت : تمكنهم من العلم بهما لما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر ، سيما وفي الآية تنبيه علي ما يدل علي صحتهما وهو: أنه تعالي لما قدر علي إحيائهم أولا قدر علي أن يحييهم ثانيا ، فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته .

أو الخطاب مع القبيلين فإنه سبحانه وتعالي لما بين دلائل التوحيد والنبوة ، ووعدهم علي الإيمان وأوعدهم علي الكفر ، أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة ، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة ، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية النعم .

فإن قيل : كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر ؟ قلت : لما كانت وصلة إلي الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالي ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ (١) ، كانت من النعم العظيمة مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعني المنتزع من القصة بأسرها ، كما أن الواقع حالا هو العلم بها لا كل واحد من الجمل ، فإن بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح أن يقع حالاً . أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم ، وتبعيد الكفر عنهم علي معني ، كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتا جهالا ، فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان ، ثم يميتكم الموت المعروف ، ثم يحيكم الحياة الحقيقية ، ثم إليه ترجعون ، فيثيبكم بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علي قلب بشر .

والحياة حقيقة في القوة الحساسة ، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيوانا مجازا في القوة النامية ، لأنها من طلائعها ومقدماتها ، وفيما يخص الإنسان من الفضائل ، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها ، والموت بإزائها يقال علي ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالي ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ﴾(٢) . وقال ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٣) وقال ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ (٤) وإذا وصف به الباري تعالي أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا ، أو معني قائم بذاته يقتضي ذلك علي الاستعارة . وقرأ يعقوب ترجعون بفتح التاء في جميع القرآن .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ بيان نعمة أخري مرتبة علي الأولي ، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخري ، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم وتم به معاشهم . ومعني ﴿ لَكُم ﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم بوسط أو بغير وسط ، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها ، لا علي وجه الغرض ، فإن

---

(١) العنكبون ٦٤ (٢) الحاثية ٢٦

(٣) الحديد ١٧ (٤) الأنعام ١٢٢

الفاعل لغرض مستكمل به ، بل علي أنه كالغرض من حيث إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة ، ولا يمنع اختصاص بعضها ببعض لأسباب عارضة ، فإنه يدل علي أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد . وما يعم كل ما في الأرض ، إلا إذا أريد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو . وجميعا: حال من الموصول الثاني .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قصد إليها بإرادته ، من قولهم استوي إليه كالسهم المرسل و إذ قصده قصدا مستويا من غير أن يلوي علي شيء . وأصل الاستواء طلب السواء ، وإطلاقه علي الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء ولا يمكنك حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوي أي : استولي وملك ، قال:

قَدِ اسْتَوَي بِشْرٌ علي العِرَاقِ مِنْ غَيرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ [١]

والأول أوفق للأصل والصلة المعدي بها والتسوية المترتبة عليه بالفاء ، والمراد بالسماء هذه الأجرام العلوية ،أو جهات العلو ، و﴿ ثُمَّ ﴾ لعله لتفاوت ما بين الخلقين وفضل خلق السماء على خلق الأرض كقوله تعالي ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [٢] لا للتراخي في الوقت ، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالي ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾[٣] فإنه يدل علي تأخر دحو الأرض المتقدم علي خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها ، إلا أن تستأنف بدحاها مقدراً لنصب الأرض فعلا آخر دل عليه ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ [٤] مثل تعرف الأرض وتدبر أمرها بعد ذلك لكنه خلاف الظاهر .

﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ عدلهن وخلقهن مصونة من العوج والفطور . ﴿ وهن ﴾ ضمير

---

(١) أنشده ابن منظور فى لسان العرب للاستدلال على أن استوى بمعنى استولى وظهر ، ولم ينسبه لقائل .

وبشر المذكور هو بشر بن مروان أخو عبد الملك بن مروان حينما ولاه أخوه العراقين فكان واليا عليهما فترة طويلة .

(٢) البلد ١٧ (٣) النازعات ٣٠ (٤) النازعات ٢٧

السماء إن فسرت بالأجرام لأنه جمع . أو هو في معني الجمع ، وإلا فمبهم يفسره ما بعده كقولهم : ربه رجلا .

﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ بدل أو تفسير ، فإن قيل : اليس أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك قلت : فيما ذكروه شكوك ، وإن صح فليس في الآية نفي الزائد مع أنه إن ضم إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيه تعليل كأنه قال : ولكونه عالما بكنه الأشياء كلها، خلق ما خلق علي هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع ، واستدلال بأن من كان فعله علي هذا النسق العجيب ، والترتيب الأنيق كان عليما ، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع ، لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم وازاحة لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت ، وتفتتت اجزاؤها ، واتصلت بما يشاكلها ، كيف تجمع أجزاء كل بدن مرة ثانية بحيث لا يشذ شيء منها ، ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان ، ونظيره قوله تعالي ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾

واعلم أن صحة الحشر مبنية علي ثلاث مقدمات ، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين : أما الأولي فهي : أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياة وأشار إلي البرهان عليها بقوله ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ﴾ فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل علي أنها قابلة لها بذاتها ، وما بالذات يأبي أن يزول ويتغير . وأما الثانية والثالثة : فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها ، قادر علي جمعها وإحيائها ، وأشار إلي وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على ابدائها وإبداء ما هو أعظم خلقا وأعجب صنعا فكان أقدر علي إعادتهم وإحيائهم ، وأنه تعالي خلق ما خلق خلقا مستويا محكما من غير تفاوت واختلال مراع فيه مصالحهم وسد حاجاتهم . وذلك دليل علي تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته . وقد سكنّ نافع وأبو عمرو والكسائي : الهاء من نحو فهو وهو تشبيها له بعضد .

الآيات من ٣٠ : ٣٢

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾

قصة خلق آدم

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم ، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله علي ملائكته بأن أمرهم بالسجود له ، إنعام يعم ذريته . وإذا : ظرف وضع لزمان نسبة ماضية وقع فيه أخرى ، كما وضع إذ الزمان نسبة مستقبلة يقع فيه أخري ، ولذلك يجب إضافتهما إلي الجمل كحيث في المكان ، وبنيتا تشبيها لهما بالموصولات ، واستعملتا للتعليل والمجازاة ، ومحلها النصب أبدا بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه ، وأما قوله تعالي ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾ (١) ونحوه ، فعلي تأويل : اذكر الحادث إذا كان كذا ، فحذف الحادث وأقيم مقامه ، وعامله في الآية قالوا ، أو اذكر علي التأويل للمذكور لأنه جاء معمولا له صريحا في القرآن كثيرا ، أو مضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة ، مثل وبدأ خلقكم إذ قال ، وعلي هذا فالجملة معطوفة علي خلق لكم داخلة في حكم الصلة . وعن معمر أنه مزيد .

والملائكة جمع ملأك علي الأصل كالشمائل جمع شمأل ، والتاء لتانيث الجمع ، وهو مقلوب مالك من الألوكة وهي : الرسالة ، لأنهم وسائط بين الله تعالي ، وبين الناس، فهم رسل الله . أو كالرسل إليهم . واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم علي أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها . فذهب أكثر المسلمين إلي أنها أجسام لطيفة قادرة علي التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا

---

(١) الأحقاف ٢١

يرونهم كذلك . وقالت طائفة من النصاري : هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان . وزعم الحكماء أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة ، منقسمة إلي قسمين : قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره ، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالي ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ (١) وهم العليون والملائكة المقربون . وقسم يدبر الأمر من السماء إلي الأرض علي ما سبق به القضاء وجري به القلم الإلهي ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢) وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ، ومنهم أرضية ، علي تفصيل أثبته في كتاب الطوالع .

والمقول لهم : الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص ، وقيل ملائكة الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن ، فإنه تعالي أسكنهم في الأرض أولا فأفسدوا فيها ، فبعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال . وجاعل : من جعل الذي له مفعولان وهما في ﴿ الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أعمل فيهما ، لأنه بمعني المستقبل ومعتمد علي مسند إليه . ويجوز أن يكون بمعني خالق . والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه ، والهاء فيه للمبالغة ، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه ، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالي إلي من ينوبه ، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه ، وتلقي أمره بغير وسط ، ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال الله تعالي ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ (٣) ألا تري أن الأنبياء لما فاقت قوتهم ، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ، أرسل إليهم الملائكة ، ومن كان منهم أعلي رتبة كلمه بلا واسطة ، كما كلم موسي ﷺ في الميقات ، ومحمدا ﷺ ليلة المعراج ، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد ، جعل الباري تعالي بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك . أو خليفة من سكن الأرض

---

(١) الأنبياء ٢٠ (٢) التحريم ٦ (٣) الأنعام ٩

قبله ، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم ، أو يخلف بعضهم بعضا . وإفراد اللفظ : إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم : مضر وهاشم . أو علي تأويل من يخلفكم ، أو خلفا يخلفكم . وفائدة قوله تعالي هذا للملائكة ، تعليم المشاورة ، وتعظيم شأن المجعول ، بأن بَشَّر عز وجل بوجود سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه ، وإظهار فضله الراجح علي ما فيه من المفاسد بسؤالهم ، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره ، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلي غير ذلك .

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها ، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره ، وليس باعتراض علي الله تعالي جلت قدرته ، ولا طعن في بني آدم علي وجه الغيبة ، فإنهم أعلي من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالي ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ (١) وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالي ، ، أو تلق من اللوح ، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم ، أو قياس لأحد الثقلين علي الآخر . والسفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب ، فالسفك يقال في الدم والدمع ، والسبك في الجواهر المذابة ، والسفح في الصب من أعلي ، والشن في الصب من فم القربة ونحوها ، وكذلك السن ، وقرئ يسفك علي البناء للمفعول ، فيكون الراجع إلي من ، سواء جعل موصولا أو موصوفا محذوفا ، أي : يسفك الدماء فيهم .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ حال مقررة لجهة الإشكال كقولك : أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم . والمعنى : أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك ، والمقصود منه ، الاستفسار عما رجحهم ـ مع ما هو متوقع منهم ـ على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف ، لا العجب والتفاخر .

---

(١) الأنبياء ٢٦ ، ٢٧

وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مداد أمره : شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء ، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة . ونظروا إليها مفردة وقالوا : ما الحكمة في استخلافه ، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلا عن استخلافه ، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد . وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل ، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف . ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد ، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذى هو المقصود من الاستخلاف ، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله .

﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ والتسبيح تبعيد الله تعالي عن السوء وكذلك التقديس ، من سبح في الأرض والماء ، وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، ويقال قدس إذا طهر لأن مطهر الشئ مبعد له عن الأقذار . و﴿ **بحمدك** ﴾ في موضع الحال ، أي : متلبسين بحمدك علي ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك ، تداركوا به ما أوهم إسناد التسبيح إلي أنفسهم ، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك ، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح ، وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل : نقدسك واللام مزيدة .

﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ إما بخلق علم ضروري بها فيه ، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلي سابقة اصطلاح ليتسلسل . والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا ، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم .

اشتقاق اسم آدم

وآدم اسم أعجمي كآزر وشالخ ، واشتقاقه من الأُدْمة أو الأدمة بالفتح بمعني الأسوة ، أو من أديم الأرض لما روي عنه ﷺ « **أنه تعالي قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم** » فلذلك يأتي بنوه أخيافا ، أو من الأدم أو الأدمة بمعني الألفة ، تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس ، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس . والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشئ ودليلا يرفعه إلي الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال ، واستعماله عرفا في اللفظ الموضوع لمعني

سواء كان مركبا أو مفردا مخبرا عنه أو خبراً رابطة بينهما . واصطلاحا : في المفرد الدال علي معني في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة . والمراد في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول ، لأن العلم بألفاظ من حيث الدلالة متوقف علي العلم بالمعاني ، والمعني أنه تعالي خلقه من أجزاء مختلفة وقوي متبانية ، مستعدا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات ، والمتخيلات والموهومات . وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ ﴾ الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا إذ التقدير أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام كقوله تعالي ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (١) لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ ، والمراد به ذوات الأشياء ، أو مدلولات الألفاظ ، وتذكيره ليغلب ما اشتمل عليه من العقلاء ، وقرئ عرضهن وعرضها علي معني عرض مسمياتهن أو مسمياتها .

﴿ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ تبكيت لهم وتنبيه علي عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة ، والوقوف علي مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال ، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنباء : إخبار فيه إعلام ، ولذلك يجري مجري كل واحد منهما .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم ، أو أن خلقهم واستخلافهم ولهذه صفتهم لا يليق بالحكيم ، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازم مقالهم . والتصديق كما يتطرق إلي الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار ، وبهدا الاعتبار يعتري الإنشاءات .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ اعتراف بالعجز والقصور ، وإشعار بأن سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا ، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه ، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما

---

(١) مريم ٤

اعتقل عليهم ، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه . وسبحان مصدر كغفران ولا يكاد يستعمل إلا مضافا منصوبا بإضمار فعله ، كمعاذ الله . وقد أُجري علماً للتسبيح بمعني التنزيه علي الشذوذ في قوله : سبحان من علقمة الفاخر . وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحل ، ولذلك جعل مفتاح التوبة فقال موسي عليه السلام : ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ (١) وقال يونس : ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفي عليه خافية . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة . وأنت فصل ، وقيل : تأكيد للكاف كما في قولك : مررت بك أنت ، وإن لم يجز : مررت بأنت ، إذ التابع يسوغ فيه ما لا يسوغ في المتبوع ، ولذلك جاز : يا هذا الرجل ، ولم يجز : يا الرجل ، وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن .

الآيات من ٣٣ : ٣٦

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أي: أعلمهم ، وقرئ بقلب الهمزة ياء وحذفها بكسر الهاء فيهما .

---

(١) الأعراف ١٤٣ (٢) الأنبياء ٨٧

﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ استحضار لقوله تعالي ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) لكنه جاء به علي وجه أبسط ليكون كالحجة عليه ، فإنه تعالي علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض ، وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم ما لا يعلمون ، وفيه تعريض بمعاتبتهم علي ترك الأولي ، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم ، وقيل ﴿ تُبْدُونَ ﴾ قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها . وما ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة ، وأنه تعالي لا يخلق خلقا أفضل منهم . وقيل : ما أظهروا من الطاعة ، وأسر إبليس منهم من المعصية ، والهمزة للإنكار دخلت حرف الجحد فأفادت الإثبات والتقرير .

هذه الآيات تدل علي شرف الإنسان

واعلم أن هذه الآيات تدل علي شرف الإنسان ، وميزة العلم وفضله علي العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها ، وأن التعليم يصح إسناده إلي الله تعالي ، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية ، فإن الأسماء تدل علي الألفاظ بخصوص أو عموم ، وتعليمها ظاهر في إلقائها علي المتعلم مبينا له معانيها ، وذلك يستدعي سابقة وضع ، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالي ، وأن مفهوم الحكمة زائد علي مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالي ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢) وأن آدم أفضل هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم ، والأعلم أفضل لقوله تعالي :﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وأنه تعالي يعلم الأشياء قبل حدوثها .

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) الصافات ١٦٤

(٣) الزمر ٩

معني السجود لآدم

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له ، اعترافا بفضله ، وأداء لحقه واعتذارا عما قالوا فيه وقيل: أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالي ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) امتحانا لهم وإظهارا لفضله . والعاطف عطف الظرف علي الظرف السابق إن نصبته بمضمر ، وإلا عطفه بما يقدر عاملا فيه علي الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخري ، وهي نعمة رابعة عدها عليهم . والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال الشاعر :

تَرَى الأُكمَ فيها سُجَّدًا للحَوافِرِ (٢)

وقال آخر :

وَقُلْنَ لَهُ أَسْجُدْ لِلَيْلَى فَأَسْجَدا (٣)

يعني البعير إذا طأطأ رأسه . وفي الشرع : وضع الجبهة علي قصد العبادة ، والمأمور به إما المعني الشرعي فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى ، وجعل آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه ، أو سببا لوجوبه فكأنه تعالي لما خلقه بحيث يكون نموذجا للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ، ونسخة لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعة للملائكة إلي استيفاء ما قدر لهم من الكمالات ، ووصلة إلي ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات ، أمرهم بالسجود تذللا لما رأو فيه من عظيم قدرته وباهر آياته ، وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته ، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه :

---

(١) ص ٧٢

(٢) رواه ابن منظور فى لسان العرب ولم ينسبه لقائل ، والأكم جمع للأكمة وهى التل المرتفع من حجر واحد وهو دون الجبل ، وقيل : هى أشراف الأرض كالروابى .

ومعنى سجد فى الشطر : خضع

(٣) رواه ابن منظور أيضا لشاعر من بنى أسد لم يذكر اسمه والخطاب موجه لبعير ، والمقصود من الأمر بالسجود أن يطاطئ رأسه لتركبه ليلى .

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّي لقبلتِكُمْ   وأَعْرَفَ الناسِ بالقرآنِ والسُّنَنِ

أو في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْس ﴾ (١) .

وأما المعني اللغوي وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له ، كسجود إخوة يوسف له ، أو التذلل والإنقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم . والكلام في أن المامورين بالسجود ، الملائكة كلهم ، أو طائفة منهم ما سبق .

﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيــس أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ امتنع عما أمر به ، استكباراً من أن يتخذه وصلة في عبادة ربه ، أو يعظمه ويتلقاه بالتحية ، أو يخدمه ويسعي فيما فيه خيره وصلاحه . والإباء : امتناع باختيار . والتكبر : أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره . والاستكبار طلب ذلك بالتشبع .

﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى في علم الله تعالى ، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالي إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْه ﴾ (٢) جواباً لقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنــــتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾(٣) لا بترك الواجب وحده . والآية تدل على أن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة المامورين بالسجود له ، ولو من وجه ، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرهم ولا يصح استثناؤه منهم ، ولا يرد على ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِلاَّ إِبْلِيــسَ كَانَ مِنَ الْجِنِ ﴾ (٤) لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً ، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روي : أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس . ولمن زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول : إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة ، وكان مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه ، أو الجن أيضاً كانوا مامورين مع الملائكة لكنه استغني بذكر الملائكة عن ذكرهم ، فإنه

---

(١) الإسراء ٧٨   (٢) الأعراف ١٢

(٣) ص ٧٥   (٤) الكهف ٥٠

إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به ، علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به . والضمير في فسجدوا راجع إلى القبيلين كأنه ، قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس ، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة ، كما أن من الإنس معصومين والغالب فيهم عدم العصمة ، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات ، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملها . وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله ، كما أشار إليه بقوله عز وعلا : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[1] لا يقال : كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار ؟ لما روت عائشة رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال « **خلقت الملائكة من النور ، وخلق الجن من مارج من نار**[2] » لأنه كالتمثيل لما ذكرنا فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك ، غير أن ضوءها مكدر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب ما يصحبه من فرط الحرارة والإحراق ، فإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور ، ومتي نكصت عادت الحالة الأولى جذعة ولا تزال تتزايد حتي ينطفيء نورها ويبقي الدخان الصرف ، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص ، والعلم عند الله سبحانه وتعالى .

من فؤائد الآية

ومن فوائد الآية استقباح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر ، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره ، وأن الأمر للوجوب ، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفي على الكفر هو الكافر على الحقيقة ، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ السكني من السكون لأنها

---

(١) الكهف ٥٠

(٢) رواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ٢ ص ٦ وله بقية وهى « وخلق آدم مما وصف لكم » وقال : رواه أحمد ومسلم عن عائشة ورمز له السيوطى بالحسن .

استقرار ولبث ، و﴿ أنت ﴾ تاكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه ، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً عن انه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له ، والجنة دار الثواب ، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها . ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال إنه بستان كان بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم ، وحمل الإهباط علي الانتقال منه إلي أرض الهند كما في قوله تعالي : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾[1] ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ واسعاً رافها ، صفة مصدر محذوف .

﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أى مكان من الجنة شئتما ، وسع الأمر عليهما إزاحة للعملة ، والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر .

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه مبالغات ، تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في تحريمه ، ووجوب الاجتناب عنه ، وتنبيهاً علي أن القرب من الشيء يورث داعية ، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضي العقل والشرع ، كما روي « حبك الشيء يعمي ويصم » فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافة أن يقعا فيه ، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي ، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يخل بالكرامة والنعيم ، فإن الفاء تفيد السببية سواء جعلت للعطف على النهي أو الجواب له والشجرة هي الحنطة أو الكرمة أو التينة ، أو شجرة من أكل منها أحدث ، والأولى أن لا تعين من غير قاطع كما لم تعين في الآية لعدم توقف ما هو المقصود عليه . وقرىء بكسر الشين ، وتقرباً بكسر التاء وهذي بالياء .

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أصدر زلتهما عن الشجرة وحملهما على الزلة بسببها ، ونظير « عن » هذه في قوله تعالي ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[2] أو أزلهما عن الجنة بمعني أذهبهما ، ويعضده قراءة حمزة فأزالهما وهما متقاربان في المعني ، غير أن أزال يقتضي عثرة مع الزوال ، وإزلاله قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ

---

(١) البقرة ٦١ (٢) الكهف ٨٢

وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾(١) وقوله : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢) ومقاسمته إياهما بقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٣) واختلف في انه تمثل لهما فقاولهما بذلك ، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة ، وأنه كيف توصل إلى إزلالهما بعد ما قيل له : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٤) . فقيل : إنه منع من الدخول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء . وقيل : قام عند الباب فناداهما . وقيل : تمثل بصورة دابه فدخل ولم تعرفه الخزنة . وقيل : دخل في فم الحية حتي دخلت به . وقيل : أرسل بعض أتباعه فأزلهما ، والعلم عند الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى من الكرامة والنعيم .

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (٥) وجمع الضمير لأنهما أصلا الجنس فكأنهما الإنس كلهم . أوهما وإبليس أخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء .

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير ، والمعني متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله .

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ موضع استقرار ، أو استقرارٍ .

﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ تمتع . ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة .

---

(١) طه ١٢٠
(٢) الأعراف ٢٠
(٣) الأعراف ٢١
(٤) ص ٧٧
(٥) طه ١٢٣

الآيات من : ٣٧ : ٤٠

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾

توبة الله على آدم

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها . وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع الكلمات على أنها استقبلته وبلغته وهي قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [١] الآية ، وقيل : سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك ، وتعالي جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفس فاغفرلي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : (يارب ألم تخلقني بيدك؟ قال : بلى ، قال : يارب ألم تنفخ في الروح من روحك ؟ قال : بلي ، قال: يارب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلي ، قال : ألم تسكني جنتك ؟ قال : بلى ، قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال: نعم[٢]) وأصل الكلمة : الكلم ، وهو التأثير المدرك بإحدي الحاستين السمع أوالبصر كالكلام والجراحة والحركة .

﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة ، وإنما رتبه بالفاء على تلقي الكلمات لتضمنه معني التوبة : وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه . واكتفي بذكر آدم لأن حواء تبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن .

---

(١) الأعراف ١٣

(٢) رواه الحاكم موقوفا فى ترجمة آدم . كتاب : من فضائل الأنبياء

﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ الرجاع على عباده بالمغفرة ، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة : الرجوع ، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية ، وإذا وصف بها الباري تعالي أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة .

﴿ الرَّحِيمُ ﴾ المبالغ في الرحمة ، وفي الجمع بين الوصفين ، وعد للتائب بالإحسان مع العفو .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ كرر للتأكيد ، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف ، فمن اهتدي الهدي نجا ومن ضله هلك ، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى ، فكيف بالمقترن بهما ، ولكنه نسي ولم نجد له عزماً ، وأن كل واحد منهما كفي به نكالاً لمن أراد أن يذكر . وقيل الأول من الجنة إلي السماء الدنيا ، والثانى منها إلى الأرض وهو كما ترى . وجميعاً حال في اللفظ تأكيد في المعني كأنه قيل : اهبطوا أنتم أجمعون ، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم علي الهبوط في زمان واحد كقولك : جاءوا جميعاً ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أكدت به إن ولذلك حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معني الطلب ، والمعني : إن يأتينكم مني هدي بإنزال أو إرسال ، فمن تبعه منكم نجا وفاز، وإنما جيء بحرف الشك ، وإتيان الهدي كائن لا محالة لأنه محتمل في نفسه غير واجب عقلاً ، وكرر لفظ الهدي ولم يضمر لأنه أراد بالثاني أعم من الأول ، وهو ما أتي به الرسل واقتضاه العقل ، أى : فمن تبع ما أتاه مراعياً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يحل بهم مكروه ، ولا هم يفوت عنهم محبوب فيجزنوا عليه ، فالخوف على المتوقع والحزن على الواقع نفي عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه . وقرئ هدي على لغة هذيل ولا خوف بالفتح .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

عطف على فمن تبع إلى آخره قسيم له كأنه قال : من لم يتبع بل كفروا بالله ، وكذبوا بآياته ، أو كفروا بالآيات جناناً ، وكذبوا بها لساناً فيكون الفعلان متوجهين إلى الجار والمجرور . والآية في الأصل العلامة الظاهرة يقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته ، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل .

اشتقاق آية وأصلها اللغوى

واشتقاقها من آي لأنها تبين آياً من أي أو من أوي إليه ، وأصلها أأية أو أوية كتمرة ، فأبدلت عينها ألفاً على غير قياس . أو أيية . أو أوية كرمكة فاعلت . أو آئية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفاً . والمراد بآياتنا الآيات المنزلة، أو ما يعمها والمعقولة .

وقد تمسكت الحشوية بهذه القصة علي عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه :

الأول : أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً ، وارتكب المنهي عنه والمرتكب له عاص .

والثاني : أنه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى ﴿ **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾(١) .

والثالث: أنه تعالى أسند إليه العصيان والغي فقال ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾(٢) .

والرابع : أنه تعالى لقنه التوبة ، وهي الرجع عن الذنب والندم عليه .

والخامس : اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله تعالي إياه بقوله ﴿ **وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (٣) والخاسر من يكون ذا كبيرة .

والسادس : أنه لو لم يذنب لم يجر عليه ما جري .

والجواب من وجوه .

---

(١) هود ١٨ (٢) طه ١٢١ (٣) الأعراف ٢٣

الأول : أنه لم يكن نبياً حينئذ ، والمدعي مطالب بالبيان .

والثاني : أن النهي للتنزيه ، وإنما سمي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الأولي له . وأما إسناد الغي والعصيان إليه ، فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى . وإنما أمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه ،وجرى عليه ما جري معاتبة له على ترك الأولى ، ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه .

والثالث : أنه فعله ناسياً لقوله سبحانه وتعالى ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾(١) ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان ، ولعله وإن حط عن الأمة لم يحط عن الأنبياء لعظم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام « **أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل** » . أو أدي فعله إلي ما جري عليه على طريق السببية المقدرة دون المؤاخذة على تناوله ، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا** ﴾ (٢) ، و﴿ **وَقَاسَمَهُمَا** ﴾(٣) الآيتين ، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناوله حين ما قال له إبليس ، فلعل مقاله أورث فيه ميلاً طبيعياً ، ثم إنه كف نفسه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلي أن نسي ذلك ، وزال المانع فحمله الطبع عليه .

والرابع : أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه ، فإنه ظن أن النهي للتنزيه ، أو الإشارة إلي عين تلك الشجرة فتتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بها الإشارة إلي النوع ، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام « أخذ حريراً وذهبا بيده وقال : « **هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثها** » . وإنما جري عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده . وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقه وأنها في جهة عالية ، وأن التوبة مقبولة ، وأن متبع الهدي مأمون العاقبة ، وأن عذاب النار دائم ، وأن الكافر فيه مخلد ، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وعقبها تعداد

---

(١) طه ١١٥ (٢) الأعراف ٢٠

(٣) الأعراف ٢١

النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً ، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدل على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له ، ومن حيث إن الإخبار بها على ما هو مثبت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمها ، ولم يمارس شيئاً منها إخبار بالغيب معجز يدل على نبوة المخبر عنها ، ومن حيث اشتمالها علي خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك ،تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم ، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم ، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد ﷺ وما أنزل عليه فقال :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أولاد يعقوب ، والابن من البناء لأنه مبني أبيه ، ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه فيقال : أبو الحرب ، وبنت الفكر ، وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية : صفوة الله ، وقيل : عبد الله ، وقريء إسرائل بحذف الياء وإسرال بحذفهما وإسرايل بقلب الهمزة ياء .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى بالتفكير فيها والقيام بشكرها ، وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع ، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حملته الغيرة والحسد على الكفران والسخط ، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حمله حب النعمة على الرضي والشكر ، وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق ، ومن العفو عن اتخاذ العجل ، وعليهم من إدرك زمن محمد ﷺ وقريء اذكروا والأصل إذ تكروا ، ونعمتي بإسكان الياء وقفاً وإسقاطها درجاً هو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ بالإيمان والطاعة .

﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب ، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم ، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة ، ومن الله تعالى حقن الدم والمال ، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن

نفسه فضلاً عن غيره ، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم . وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما : (**أوفوا بعهدي في اتباع محمد ﷺ ، أوف بعهدكم في رفع الآصار والإغلال**) . وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب . أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم ، أوف بالكرامة والنعيم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط . وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعني : أوفوا بما عاهدتمون من الإيمان والتزام الطاعة ، أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة . وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ (١) إلى قوله ﴿ **وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾(٢) . وقرئ أوفّ بالتشديد للمبالغة .

﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد ، وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول ، والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معني الشرط كأنه قيل : إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون . والرهبة : خوف مع تحرز . والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالي .

الآية ٤١

﴿ **وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** (٤١) ﴾

﴿ **وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ** ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود والعمدة للوفاء بالعهود ، وتقييد المنزل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها ، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلي التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش ، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحد منها حق بالإضافة إلى زمانها ، مراعي فيها صلاح

---

(١) المائدة : ١٢

(٢) المائدة : ١٢

من خوطب بها ، حتي لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وفقه ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « **لو كان موسى حياً لما وسعه إلى اتباعي** » ، تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به ، بل يوجبه ولذلك عرض بقوله :

﴿ **لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به ، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه .
و﴿ **أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير : أول فريق أو فوج ، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك كسانا حلة . فإن قيل : كيف نُهُوا عن التقديم في الكفر وقد سبقهم مشركو العرب ؟ . قلت : المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر ، كقولك : أما أنا فلست بجاهل ، أو ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب ، أو ممن كفر بما معه فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه ، أو مثل من كفر من مشركي مكة .

الأصل اللغوى لكلمة « أول »

وأول : أفعل لا فعل له ، وقيل : أصله أو أل من وأل ، فابدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أأول من آل فقُلبت همزته واواً وأدغمت .

﴿ **وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا ، فإنها وإن جلّت قليلة مسترذلة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان . قيل : كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم ، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه . وقيل : كانوا يأخذون الرشى فيحرفون الحق ويكتمونه .

﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ** ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا ، ولما كانت الآية السابقة مشتملة علي ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية ، فصلت بالرهبة التي هي مقدمة التقوي ، ولأن الخطاب بها عم العالم والمقلد ، أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك ، والخطاب بالثانية لما خص أهل العلم ، أمرهم بالتقوي التي هي منتهاه .

الآيات من ٤٢ : ٤٧

﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) ﴾

﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ عطف على ما قبله . واللبس الخلط وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره ، والمعني لا تخلطوا الحق المنزل عليك بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتي لا يميز بينهما ، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله ، أو تذكرونه في تأويله .

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ جزم داخل تحت حكم النهي كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه ، أو نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع بمعني مع ، أي لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانه ، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أي وأنتم تكتمون بمعني كاتمين ، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق .

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عالمين بأنكم لا بسون كاتمون فإنه أقبح إذ الجاهل قد يعذر .

أهمية الصلاة والزكاة

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة . أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها . والزكاة : من زكا الزرع ، إذا نما ، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم . أو من الزكاء بمعني : الطهارة ، فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل .

﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي في جماعتهم ، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود . وقيل الركوع : الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع ، قال الأضبط السعدي :

لا تذلَّ الضَّعيفَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ كَعَ يَوْماً والدهرُ قَدْ رَفَعْه (١) .

دعوه إلى قرن العمل بالعلم

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب .

والبر : التوسع في الخير ، من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ، ولذلك قيل ثلاثة : بر في عبادة الله تعالى ، وبر في مراعاة الأقارب . وبر في معاملة الأجانب .

﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ وتتركونها من البركالمنسيات ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (**أنها نزلت في أحبار المدنية ، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع محمد ﷺ ولا يتبعونه**) . وقيل : كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ تبكيت كقوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) أي تتلون التوراة ، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل .

---

(١) اسمه الأضبط بن قريع والبيت من قصيدة طويلة ذكرها أبو علي القالي في كتابه الأمالي حـ ١ ص ١٤٠ قال : وبلغني أنه قالها قبل الإسلام بدهر طويل ، وفيها يقول :

لكل همّ من الهموم سعة والمُسيُ والصبح لافلاح معه

ومنها :

فاقبل من الدهر ما أتاك بـه من قرَّ عينا بعيشه نفعَه

وصلْ حبالَ البعيد إن وصَل الحبـ ـلَ وأقص القريب إن قطعه

ولا تعاد الفقير علـك أن تركع يوماً والدهرُ قد رفعه

(٢) البقرة ٢٢

﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ قبح صنيعكم فيصدكم عنه ، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته . والعقل في الأصل الحبس ، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبسه عما يقبح ، ويعقله على ما يحسن ، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك . والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوء صنيعه وخبث نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل ، فإن الجامع بينهما تأبي عنه شكيمته ، والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم غيره ، لا منع الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر .

أهمية الصبر

﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ متصل بما قبله ، كأنهم لما أمروا بما يشق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك ، والمعني استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلاً على الله ، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة ، وتصفية النفس . والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية ، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما ، والتوجه إلي الكعبة والعكوف للعبادة ، وإظهار الخشوع بالجوارح ، وإخلاص النية بالقلب ، ومجاهدة الشيطان ، ومناجاة الحق وقراءة القرآن ، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين حتي تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب ، **روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة** ، ويجوز أن يراد بها الدعاء :

﴿ **وَإِنَّهَا** ﴾ : أى وإن الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها ، لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر . أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها .

﴿ **لَكَبِيرَةٌ** ﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى : ﴿ **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾ (١) .

﴿ **إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ أى المخبتين ، والخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة . والخضوع اللين والانقياد ، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب .

---

(١) الشورى ١٣

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده ، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم ، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود ﴿ يعلمون ﴾ وكان الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معني التوقع ، قال أوس بن حجر : (١)

فأرْسَلتُهُ مُسْتَيْقِن الظلُّ أنَّه ... مُخالطُ ما بينَ الشَّراسيف جائفُ

وإنما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها ، متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقها ويستلذ بسببه متاعبها ، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ كرره للتأكيد وتذكير التفضل الذي هو أجل النعم خصوصاً ، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها .

﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ ﴾ عطف علي نعمتي .

﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانهم (٢) . يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسي عليه الصلاة والسلام وبعده ، قبل أن يضروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح ، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين . واستدل به علي تفضيل البشر على الملك وهو ضعيف .

---

(١) أوس بن حجر شاعر جاهلى ، والبيت من قصيدة مشهورة مطلعها :

تنكَّر بعدى من أميمة صائف ... فبِركٌ فاعلى تولبٍ فالمخالفُ

وفيها يصف القانص الذى يصيب بسهمه صيده :

وأرسله مستيقن الظن أنهُ ... مخالط ماتحت الشرا سيف جائفُ

والشراسيف جمع شر سوف وهو طرف الضلع ، وجائف : مخالط الجوف ، اى طعنه طعنة نافذة . ـ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم عطيه ص ٣١٨ .

(٢) قد كان تفضيلهم على عالمى زمانهم فى زمن موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث إنهم كانوا أصحاب رسالة وشريعة من الله ، ولكنهم غيروا وبدّلوا ، ثم نسخت رسالتهم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى أتاه الله الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، ونزل عليه قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولو التزم بنو اسرائيل بتعاليم التوراة الحقيقية ولم يغيروا ولم يبدلوا لآمنوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الخاتمة التى جاءت أوصافها كاملة فى التوراة ، ولكنهم أنكروا ذلك ومحوا تلك الأوصاف منها فكان ذلك كفرا بما أنزل الله ، وليست للكافر أفضلية ما .

الآيات من ٤٨ : ٤٩

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب .

﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر ، وقريء لا تجزيء من أجزأ عنه إذا أغني وعلي هذا تعين أن يكون مصدراً ، وإيراده منكراً مع تنكير النفسين للتعميم والإقناط الكلي والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تجزي فيه ، ومن لم يجوز حذف العائد المجرور قال اتسع فيه فحذف عنه الجار وأجري مجري المفعول به ثم حذف كما حذف من قوله : أم مال أصابوا .

﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي من النفس الثانية العاصية ، أو من الأولى ، وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل ، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره ، والأول النصرة ، والثاني إما أن يكون مجاناًأو غيره . والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزي عنه أو بغيره وهو أن يعطي عنه عدلاً . والشفاعة من الشفع كانه المشفوع له كان فرداً فجعله الشفيع شفعاً بضم نفسه إليه ، والعدل الفدية وقيل : البدل وأصله التسوية سمي به الفدية لأنها سميت بالمفدي ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تقبل بالتاء .

﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله ، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة ، وتذكيره بمعني العباد . أو الأناسي والنصر أخص من المعونة لا ختصاصه بدفع الضر .

وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر ، وأجيب بأنها

مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة ، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ تفصيل لما أجمله في قوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) وعطف على نعمتي عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وقريء أنجيتكم .

وأصل آل أهلَ لأن تصغيره أهيل ، وخص بالإضافة إلى أولى الخطر كالأنبياء والملوك .

وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسري وقيصر لملكي الفرس والروم .

ولعتوهم اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتجبر ، وكان فرعون موسي مصعب بن ريان ، وقيل ابنه وليد من بقايا عاد . وفرعون يوسف عليه السلام ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة .

﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يبغونكم ، من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء .

﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أفظعه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائره ، والسوء مصدر ساء يسوء ونصبه على المفعول ليسومونكم ، والجملة حال من الضمير في نجيناكم ، أو من آل فرعون ، أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما .

﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يعطف، وقريء يذبحون بالتخفيف . وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة : سيولد منهم من يذهب بملكه ، فلم يرد اجتهادهم من قدر الله شيئا .

﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ ﴾ محنة ، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم ونعمة إن أشير به إلي الإنجاء ، وأصله الاختبار لكن لما كان اختبار الله تعالى عباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة أطلق عليهما ، ويجوز أن يشار بذلكم إلي الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

---

(١) البقرة ٤٠

﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بتسليطهم عليكم ، أو ببعث موسي عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم ، أو بهما ﴿ عَظِيمٌ ﴾ صفة بلاء . وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى ، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين .

الآيات من ٥٠ : ٥٤

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض حتي حصلت فيه مسالك بسلوككم فيه . أو بسبب إنجائكم ،أو ملتبساً بكم كقوله :

تَدُوسُ بِنَا الجَماجِم والتَّرِيبا (١)

وقريء فَرَّقْنَا على بناء التكثير لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط .

﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أراد به فرعون وقومه ، واقتصر عل ذكرهم للعلم بأنه كان أولى به ، وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول : (اللهم صل على آل محمد) (أي شخصه) واستغني بذكره عن ذكر أتباعه .

---

(١) التريب : التراب لغة ذكرها كراع ـ لسان العرب .

وهذا شطر بيت للمتنبي وهو بتمامه

فمرت غيرنا فرة عليهم　　　تدوس بنا الجماجم والتريبا

والضمير يعود على الخيول المذكورة في بيت سبق .

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ذلك ، أى غرقهم وإطباق البحر عليهم ، أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة ، أو جثثهم التي قذفها البحر إلى الساحل ، أو ينظر بعضكم بعضاً . روي أنه تعالى أمر موسي عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ، فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده ، وصادفوهم على شاطئ البحر ، فأوحي الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها فقالوا : يا موسي نخاف أن يغرق بعضنا ولا نعلم ، ففتح الله فيها كوي فتراءوا وتسامعوا حتي عبروا البحر ، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفلقاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين .

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل ، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسي عليه الصلاة والسلام ، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١) ونحو ذلك ، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد ﷺ ، مع أن ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل : القرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد ﷺ دقيقة تدركها الأذكياء ، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره .

من أمثلة كفران بني إسرائيل للنعم

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ لما عادوا إلي مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسي أن يعطيه التوراة ، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور . وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي واعدنا لأنه تعالى وعده الوحي . ووعده موسي عليه السلام المجيء للميقات إلى الطور .

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ إلهاً أو معبوداً .

﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد موسي عليه السلام ، أومضيه.

---

(١) البقرة ٥٥

﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ بإشراككم .

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ حين تبتم ، والعفو محو الجريمة ، من عفا إذا درس .

﴿ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي الاتخاذ .﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى لكي تشكروا عفوه .

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تفرق بين الحق والباطل .وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوي ، أو بين الكفر والإيمان . وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام ، أو النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ (٢٨٦) يريد به يوم بدر .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلي من خلقكم برآء من التفاوت ، ومميزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة ، وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم برئ المريض من مرضه والمديون من دينه ، أو الإنشاء كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا .

﴿ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخع ، أو قطع الشهوات كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها . وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً . وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتل العبدة . روي أن الرجل كان يري بعضه وقريبه فلم يقدر على المضي لأمر الله ، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون ، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتي دعا موسي وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة ، وكانت القتلي سبعين ألفاً . والفاء الأولى للتسبب، والثانية للتعقيب .

﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك ، ووصلة إلي الحياة الأبدية والبهجة السرمدية .

---

٢٨٦ الأنفال ٤١

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف إن جعلته من كلام موسي عليه السلام لهم تقديره : إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ، أو عطف على محذوف إن جعلته خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات ، كأنه قال : ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم . وذكر الباريء وترتيب الأمر عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة ، حتي تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة ، وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن لا يسترد منه ، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب .

﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ للذي يكثر توفيق التوبة ، أو قبولها من المذنبين ، ويبالغ في الإنعام عليهم .

الآيات من ٥٥ : ٥٨

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى لأجل قولك ، أو لن نقر لك .

﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ عياناً وهي في الأصل مصدر قولك : جهرت بالقراءة ، استعيرت للمعاينة ، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، أو الحال من الفاعل، أو المفعول . وقريء جهرة بالفتح على أنها مصدر كالغلبة ، أو جمع جاهر كالكتبة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً ، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات وقيل عشرة آلاف من قومه . والمؤمن به : إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك ، أو إنك نبي .

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل ، فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية ، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا . قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم . وقيل صيحة . وقيل جنودسمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة .

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ بسبب الصاعقة ، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء ، أو نوم كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ (١) .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمة البعث ، أو ما كفر تموه لما رأيتم بأس الله بالصاعقة .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ سخر الله لهم السحاب يظلهم من الشمس حين كانوا في التية (٢) .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ الترنجبين والسماني . قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع ، وتبعث الجنوب عليهم السماني ، وينزل بالليل عمود نار يسيرون في ضوئه ، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلي .

﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ على إرادة القول .

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ فيه اختصار ، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ يعني بيت المقدس ، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه(٢) .

---

(١) الكهف ١٢

(٢) التيه : أصلها المفازة التى لاعلامة فيها يهتدى بها ، ويقال : أرض تيه : أى مضلة . =

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ واسعاً، ونصبه على المصدر، أو الحال من الواو .

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ ﴾ أي باب القرية ، أو القبة التي كانوا يصلون إليها ، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسي عليه الصلاة والسلام .

﴿ سُجَّدًا ﴾ متطامنين مخبتين (١) ، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه .

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي مسألتنا ، أو أمرك حطة وهي فعلة من الحط كالجلسة ، وقريء بالنصب على الأصل بمعني : حط عنا ذنوبنا حطة ، أو على أنه مفعول قولوا أي قولوا هذه الكلمة . وقيل : معناه أمرنا حطة أى : أن نحط في هذه القرية ونقيم بها .

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ بسجودكم ودعائكم . وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول .

الأصل اللغوى لكلمة خطايا

وخطايا أصله خطايئ كخطايع ، فعند سيويه أنه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف ، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً ، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء . وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر .

﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ثواباً ، جعل الامتثال توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن ، وأخرجه عن صورة الجواب إلي الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله ، فكيف إذا فعله ، وأنه تعالى يفعل لا محالة .

والمقصود بها أرض سيناء التى كتب الله عليهم أن يتيهوا فيها أربعين سنة بعد أن رفضوا الانصياع لأمر موسى لهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون : فقال الله تعالى له : **﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾** المائدة ٢٦

(١) متطامنين مخبتين : التطامن التذلل ، والإخبات : الخضوع والخشوع

الآيات من : ٥٩ : ٦٠

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا .

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرره مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه ، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها .

﴿ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل : ما يعاف عنه ، وكذلك الرجس . وقريء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون . روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً .

استسقاء موسى لقومه

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ لما عطشوا في التيه .

﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طوريا[١] حمله معه ، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً ، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة ، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسي مع العصا،أو الحجر الذي فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من

---

(١) طوريا : أى من طور سيناء

الأدرة[١]، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله ، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه ، ولكن لما قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها ؟ حمل حجراً في مخلاته ، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ، ويضربه بها إذا ارتحل فييبس ، فقالوا : إن فقد موسي عصاه متنا عطشاً ، فأوحي الله إليه لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون . وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع ، والعصا عشرة أذرع على طول موسي عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة .

﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : فإن ضربت فقد انفجرت ، أو فضرب فانفجرت ، كما مر في قوله تعالي ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [٢]. وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه .

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط .

﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ عينهم التي يشربون منها .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ علي تقدير القول :

مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوي وماء العيون .وقيل الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به .

﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ لا تعتدوا حال إفسادكم ، وإنما قيده لأنه

---

(١) الأدرة : انتفاخ الخصيتين لتسرب مائع بين طبقتي الغلاف الذي يحيط بهما ، والمصاب بذلك يقال له : آدر ، وتوصف الخصية بأنها أدراء وجمع المصابين بذلك : أُدْر ـ المعجم الوجيز.

وكان قوم موسى يرمون موسى ـ عليه السلام ـ بهذا المرض ، لأنه كان لايتعرى حين يغتسل فى النهر كما يفعلون ، ويختفى بعيدا عن الأنظار ويتجرد عن ثيابه فيغتسل .

فأراد الله تعالى أن يبرئه من هذا الاتهام فخلع ثيابه يوما ووضعها فوق حجر بعيدا عنهم ونزل البحر ، فإذا بالحجر يطير بثيابه ، فخرج موسى من النهر عاريا وجرى وراء الحجر وهو يهتف : ثوبى ياحجر ، ثوبى ياحجر ، فرأوه جميعا وعرفوا أنه ليس به ذلك المرض الذى رموه به . ـ تفسير القرطبى ، الأحزاب : ٦٩

(٢) البقرة .

وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد ، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله ، ومنه مايتضمن صلاحا راجحا كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة ، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يدرك حسا ، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه ، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفر عن الخل ويجذب الحديد ، لم يمتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الأرض ، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك .

الآيات من ٦١ : ٦٢

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾

عدم صبرهم علي المن والسلوي

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوي ، (وبوحدته أنه لا يختلف ولا يتبدل ، كقولهم طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه وبذلك أجمعوا أو ضرب واحد ، لأنهما طعام أهل التلذذ) وهم كانوا فلاحة فنزعوا إلي عكرهم واشتهوا ما ألفوه .

﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ سله لنا بدعائك إياه ﴿ يُخْرِجْ لَنَا ﴾ يظهر ويوجد ، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة .

﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ ﴾ من الإسناد المجازي ، وإقامة القابل مقام الفاعل ، ومن للتبعيض .

﴿ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال ، وقيل بدل بإعادة الجار . والبقل ما أنبتته الأرض والخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنطة ويقال للخبز ومنه فوموا لنا ، وقيل الثوم وقرئ قُثَّائها بالضم ، وهو لغة فيه .

﴿ قَالَ ﴾ أي الله ، أو موسي عليه السلام . ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ ﴾ أقرب منزلة وأدون قدرا ، وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة ، وقرئ أدنأ من الدناءة .

﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ يريد به المن والسلوي فإنه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلي السعي .

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ انحدروا إليه من التيه ، يقال هبط الوادي إذا نزل به ، وهبط منه إذا خرج منه ، وقرئ بالضم ، والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين ، وقيل أراد به العَلَم ، وإنما صرفه لسكون وسطه أو علي تأويل البلد ، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود . وقيل أصله مصرائم فعرب .

﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه ، أو ألصقت بهم ، من ضرب الطين علي الحائط ، مجازاة لهم علي كفران النعمة . واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين ، إما علي الحقيقة أو علي التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم .

﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ رجعوا به ، أو صاروا أحقاء بغضبه ، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقا بأن يقتل به ، وأصل البوء المساواة . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلي ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب.

﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات ، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر ، وإظلال الغمام ، وإنزال المن والسلوي ، وانفجار العيون من الحجر . أو بالكتب المنزلة : كالإنجيل ،

والفرقان، وآية الرجم والتي فيها نعت محمد ﷺ من التوراة ، وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيي وغيرهم بغير الحق عندهم ، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم ، وإنما حملهم علي ذلك اتباع الهوي وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أي : جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلي الكفر بالآيات ، وقتل النبيين . فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلي ارتكاب كبارها ، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلي تحري كبارها . وقيل كرر الإشارة للدلالة علي أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر ، والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالي . وقيل الإشارة إلي الكفر والقتل ، والباء بمعني مع وإنما جوزت الإشارة بالمفرد إلي شيئين فصاعدا علي تأويل ما ذكر ، أو تقدم للاختصار ، ونظيره في الضمير قول رؤبة يصف بقرة :

فِيها خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ وبَلَقْ　　　كأنهُ في الْجِلدِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ [١]

والذي حَسَّن ذلك أن تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست علي الحقيقة ، ولذلك جاء الذي بمعني الجمع .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بألسنتهم ، يريد به المتدينين بدين محمد ﷺ المخلصين منهم والمنافقين ، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفرة ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ تهودوا ، يقال هاد وتهود إذا دخل في اليهودية .

ويهود : إما عربي من هاد إذا تاب ، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل ، وإما مُعَرَّب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام .

﴿ وَالنَّصَارَىٰ ﴾ جمع نصران كندامي وندمان ، والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمري ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها ، أو من اسمها .

---

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب بلفظ : فيه ، وقال فى مادة (ولع) فيها ، والبهق : بياض يعترى الجسد بخلاف لونه ليس من البرص .

والبلق سواد وبياض . ـ لسان العرب .

﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ قوم بين النصاري والمجوس . وقيل : أصل دينهم دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عبدة الملائكة . وقيل : عبدة الكواكب ، وهو إن كان عربيا فمن صبأ إذا خرج . وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء ، أو لأنه من صبأ إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلي دينهم ، أو من الحق إلي الباطل.

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ ــ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد ، عاملا بمقتضي شرعه . وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا ، ودخل في الإسلام دخولا صادقا :﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي وعد لهم علي إيمانهم وعملهم . ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون علي تضييع العمر وتفويت الثواب . و﴿ مَنْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والجملة خبر إن ، أو بدل من اسم إن وخبرها ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والفاء لتضمن المسند إليه معني الشرط، وقد منع سيبويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تدخل الشرطية ، ورد بقوله تعالي﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾(١)

الآية ٦٣

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ﴾

تذكير اليهود بأفعالهم ونقض مواثيقهم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ باتباع موسي والعمل بالتوراة . ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ حتي أعطيتم الميثاق ، روي أن موسي عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها ، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتي قبلوا . ﴿ خُذُوا ﴾ علي إرادة القول :

---

(١) البروج ١٠

﴿ مَا آتَيْنَاكُم ﴾ من الكتاب ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ ادرسوه ولا تنسوه ، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب ، أو اعملوا به .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لكي تتقوا المعاصي ، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين . ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف ، أي : قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا .

الآيات من ٦٤ : ٦٧

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه . ﴿ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بتوفيقكم للتوبة ، أو بمحمد ﷺ يدعوكم إلي الحق ويهديكم إليه . ﴿ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي ، أو بالخبط والضلال في فترة من الرسل . و(لو) في الأصل لامتناع الشئ لامتناع غيره ، فإذا دخل علي لا أفاد إثباتا وهو امتناع الشئ لثبوت غيره ، والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسده ، وعند الكوفيين فاعل محذوف .

عقوبة الاعتداء في السبت

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ اللام موطئة للقسم ، والسبت مصدر قولك سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدي فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام ، واشتغلوا بالصيد ، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية علي ساحل يقال لها أَيْلة ، وإذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خرطومه ، فإذا مضي تفرقت

فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد . ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ جامعين بين صورة القردوة والخسوء : وهو الصغار والطرد ، وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم ، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالي ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (١) وقوله ﴿ كُونُوا ﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه ، وإنما المراد به سرعة التكوين ، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم ، وقرئ قردة بفتح القاف وكسر الراء، وخاسين بغير همزة .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي المسخة ، أو العقوبة . ﴿ نَكَالاً ﴾ عبرة تنكل المعتبر بها ، أي تمنعه . ومنه النكل للقيد . ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زبر الأولين ، واشتهرت قصتهم في الآخرين ، أو لمعاصريهم ومن بعدهم ، أو لما بحضرتها من القري وما تباعد عنها ، أو لأهل تلك القرية وما حواليها ، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها . ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ من قومهم ، أو لكل متق سمعها .

قصة البقرة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ أول هذه القصة قوله تعالي ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٢) وإنما فكت عنه وقدمت عليه

---

(١) الجمعة ٥ (٢) البقرة ٧٢

* الإعجاز العلمي

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾

من الإعجاز العلمي للآية في قوله ﴿ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ أنهانزلت من خمسة عشر قرنا علي نبي أميّ والعلم الحديث أثبت أن اللون الأصفر لايحتاج إلي قوة من عدسة العين لكي تراه أي أنه يتجمع مباشرة علي الشبكية دون مجهود من العين في حين أن الأمر مختلف بالنسبة للون الأحمر الذي يحتاج إلي ٥٠ ديومتر (وحدة قياس قوة عدسة =

لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم ، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلي الامتثال . وقصته : أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه طمعا في ميراثه ، وطرحوه علي باب المدينة ، ثم جاؤوا يطالبون بدمه ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله . ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي مكان هزؤ ، أو أهله ومهزوءاً بنا ، أو الهزؤ نفسه لفرط الاستهزاء استبعادا لما قاله واستخفافا به ، وقرأ حمزة وإسماعيل عن نافع بالسكون ، وحفص عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واوا . ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه ، نفي عن نفسه ما رمي به علي طريقة البرهان ، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعا له .

الآيات من ٦٨ : ٧٠

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) ﴾

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي ما حالها وصفتها ، وكان حقهم أن يقولوا أي بقرة هي ؟ أوكيف هي ؟ لأن ﴿ مَا ﴾ يسأل به عن الجنس غالبا ، لكنهم لما رأوا ما أمروا به علي حال لم يوجد بها شيء من جنسه ، أجروه مجري ما

* الإعجاز العلمي

= العين) ويحتاج اللون الأزرق إلي ١,٥٠ ديومتر ومن هنا نفهم معني قوله سبحانه وتعالي ﴿ ..تسر الناظرين ﴾ أي لاتجهد أعينهم ويسروا برؤيتها .

كما أثبت خبراء الطب البيطري ومن لهم خبرة في تربية الأبقارأنه علي قدر صفاء اللون وسلامة الأسنان تكون صحة البقرة .

وكذلك من علامات عافيتها إثارتها للغبار علي الأرض بحوافرها علامة علي أنها لم تجهد بالعمل في حرث الحقل أو ما شابه ذلك .

لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله . ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ ﴾ لا مسنة ولا فتية ، يقال فرضت البقرة فروضا من الفرض وهو القطع ، كأنها فرضت سنها ، وتركيب البكر للأولية ومن البكرة والباكورة .

﴿ عَوَانٌ ﴾ نصف. قال : نواعم بين أبكار وعُونَ .

﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين ، فإنه لا يضاف إلا إلي متعدد ، وعود هذه الكنايات وإجراء تلك الصفات علي بقرة يدل علي أن المراد بها معينة ، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب ، ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من شق البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم ، ويلزمه النسخ قبل الفعل ، فإن التخصيص إبطال للتخيير الثابت بالنص والحق جوازهما ، ويؤيد الرأى الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه ﷺ « **لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا علي أنفسهم فشدد الله عليهم** » .

وتقريعهم بالتمادي وزجرهم علي المراجعة بقوله ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قولهم : أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ، أو أمركم بمعني مأموركم .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ الفقوع نصوع الصفرة ولذلك تؤكد به ، فيقال : أصفر فاقع كما يقال أسود حالك ، وفي إسناده إلي اللون وهو صفة صفراء لملابسته بها فضل تأكيد كأنه قيل : صفراء شديدة الصفرة صفرتها ، وعن الحسن سوداء شديدة السواد وبه تفسر قوله تعالي : ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) . قال الأعشي :

تِلْكَ خَيلى منْهُ وتلكَ رِكَابى ... هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ (٢)

---

(١) المرسلات ٣٣

(٢) من قصيدة يمدح الأعشى فيها أبا الأشعث بن قيس وقيل هذا البيت يقول :

إن قيسا قيس الفعّال أبا الأشعث ... أمست أصداؤه لشعوب

كل عام يمدنى بجموم ... عند وضع للضان أو بنجيب

والركاب فى البيت الذى ذكره المصنف هى المطايا التى تركب .

ولعله عبر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته ، أو لأن سواد الإبل تعلوه صفرة وفيه نظر ، لأن الصفرة بهذا المعني لا تؤكد بالفقوع ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أي تعجبهم ، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع ، أو توقعه من السر .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد . وقوله : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ اعتذار عنه ، أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا ، وقرئ إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ، ويتشابه وتتشابه بالياء والتاء ، وتشابه ويشابه ويتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين علي التذكير والتأنيث ، وتشابهت وتشابهت مخففا ومشددا ، وتشبه بمعني تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة .

﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إلي المراد ذبحها أو إلى القاتل ، وفي الحديث « **لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد** [1] » .

واحتج به أصحابنا علي أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالي ، وأن الأمر قد ينفك عن الإرادة وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معني . والمعتزلة والكرامية علي حدوث الإرادة وأجيب بأن التعليق باعتبار التعلق .

الآيات من ٧١ : ٧٣

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي لم تذلل لكراب الأرض وسقي الحرث ، و ﴿ لَا ذَلُولٌ ﴾ صفة لبقرة بمعني غير ذلول ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولي والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل : لا ذلول مثيرة

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى عن طريق ابن جريج مرفوعا

وساقية ، وقرئ لا ذلول بالفتح أي حيث هي ، كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان ، أي حيث هو ، وتسقي من أسقي .

﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ سلمها الله تعالي من العيوب ، أو أهلها من العمل ، أو أخلص لونها ، من سلم له كذا إذا خلص له .

﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها ، وهي في الأصل مصدر ، وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر .

﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ اي بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا ، وقرئ آلآن بالمد علي الاستفهام ، ولان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها علي اللام .

﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ فيه اختصار ، والتقدير : فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها .

﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم ، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل ، أو لغلاء ثمنها إذ روي (أن شيخا صالحا منهم كان به عجلة ، فأتي بها الغيضة (١) وقال : اللهم إني استودعتكها لا بني حتي يكبر ، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات ، فساوموها من اليتيم وأمه حتي اشتروها بملء مسكها ذهبا ، وكانت البقرة إذ ذلك بثلاثة دنانير) . وكاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر حصولا ، فإذا دخل عليه النفي قيل معناه الإثبات مطلقا . وقيل ماضيا ، والصحيح أنه كسائر الأفعال ولا ينافي قوله ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما ، إذ المعني أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتي انتهت سؤالاتهم ، وانقطعت تعللاتهم ، ففعلوا كالمضطر الملجأ إلي الفعل .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً ﴾ خطابا للجمع لوجود القتل فيهم ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ اختصمتم في شانها ، إذ المتخاصمان يدفع بعضهما بعضا ، أو تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه إلي صاحبه ، وأصله تدارأتم فادغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ مظهره لا محالة ، وأعمل

---

(١) الغيضة : الأجمة والموضع يكثر شجره ويلتف ، تجمع على غياض وأغياض

مخرج لأنه حكاية مستقبل كما أعمل ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْه ﴾ [(1)] لأنه حكاية حال ماضية .

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ ﴾ عطف علي ادارأتم وما بينهما اعتراض ، والضمير للنفس والتذكير علي تأويل الشخص أو القتيل ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ أي ببعض كان وقيل : بأصغريها . وقيل بلسانها . وقيل بفخذها اليمني وقيل بالأذن . وقيل بالعجب .

﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ يدل علي ما حذف وهو فضربوه فحيي ، والخطاب مع من حضر حياة القتيل ، أو نزول الآية ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ دلائله علي كمال قدرته .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر علي إحياء نفس قدر علي إحياء الأنفس كلها ، أو تعملوا علي قضيته .

من بدائع التأويل في الآية

ولعله تعالي إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ، ونفع اليتيم والتنبيه علي بركة التوكل والشفقة علي الأولاد ، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ، والمتقرب أن يتحري الأحسن ويغالي بثمنه ، كما روي عن عمر رضي الله تعالي عنه (**أنه ضحي بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار**) . وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالي ، والأسباب أمارات لا إثرلها ، وأن من أراد أن يعرف أعدي عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي ، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ، ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا ، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلي نفسه ، فتحيا حياة طيبا ، وتعرب عما به ينكشف الحال ، ويترفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع .

---

(١) الكهف ١٨

الآيات من ٧٤ : ٧٧

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾

قسوة قلوب اليهود

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة ، كما في الحجر . وقساوة القلب مثل في نبوه عن الاعتبار ، وثم لا ستبعاد القسوة ﴿ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ يعني إحياء القتيل ، أو جميع ما عدد من الآيات فإنها مما توجب لين القلب . ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ في قسوتها ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ منها ، والمعني أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها أو أنها مثلها ، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويعضده قراءة الحسن بالجر

* **الإعجاز العلمي**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

ذلك من الإعجاز العلمي للقرآن حيث إن العلوم الجيولوجية الحديثة أثبتت أنه بحسب كمية الماء المخزونة في باطن الأرض وحسب حركة الطبقات الأرضية من التواءات وصدوع في القشرة الأرضية فإما أن يحدث تدفق ضخم للمياه بين الحجارة والصخور يشبه الانفجار =

عطفا علي الحجارة ، وإنما لم يقل أقسي لما في أشد من المبالغة ، والدلالة علي اشتداد القسوتين واشتمال المفضل علي زيادة و ﴿ أو ﴾ للتخيير ، أو للترديد بمعني : أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسي منها .

﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾

تعليل للتفضيل ، والمعني : أن الحجارة تتأثر وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء ، وتتفجر منه الأنهار ، ومنها ما يتردى من أعلي الجبل انقيادا لما أراد الله تعالي به . وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالي . والتفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد ، وقرئ إنْ علي أنها المخففة من الثقيلة وتلزمها اللام الفارقة بينها وبين إن النافية ، ويهبط بالضم .(١)

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد علي ذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف وأبو بكر بالياء ضما إلي ما بعده ، والباقون بالتاء .

---

(١) مما يدل على قسوة قلوب اليهود مايفعلونه الآن مع المسالمين من أبناء العرب فى فلسطين ، وكيف ينسفون بيوتهم ويهدمونها ويستولون عليها ويحولون أهلها إلى لاجئين ثم يفتحون عليهم النيران من مدافعهم ، ولم يسلم من ذلك المصلون فى المساجد الذين فوجئوا بمن يصوب نحوهم مدفعه وهم ساجدون بين يدى الله فى مسجد الخليل فيقتل العشرات منهم دون ذنب أو جريرة ومن العجيب أن يتحول هذا المجرم فى أعين اليهود إلى بطل تزين صورته الجدران والمحال العامة فى إسرائيل . .

* الإعجاز العلمى

وتتدفق الأنهار أو تكون الشقوق بين الحجارة واسعة فينساب الماء ويخرج هادئا .

ومن اللطائف في الجمع بين التفسير العلمي والقرآني في هذا المعني نقول : إن معني ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ هي قلوب يظهر عليها الغليان من أنوار الروح بترك اللذات والشهوات .

والتي (تشقق فيخرج منها الماء) هي قلوب تظهر عليها في بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح

والتي (تهبط من خشية الله) هي التي تأتيها أنوار الروح من وراء الحجب .

تحريف اليهود للكتب السماوية

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أن يصدقوكم ، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم ، يعني اليهود . ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ يعني التوراة .

﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ كنعت محمد ﷺ ، وآية الرجم . أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون . وقيل : هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالي حين كلم موسي عليه السلام بالطور ، ثم قالوا سمعنا الله تعالي يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا .

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة .

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مفترون مبطلون ، ومعني الآية : أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا علي هذه الحالة فما ظنك بسفلتهم وجهالهم ، وأنهم أن كفروا وحرفوا سابقة في ذلك .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني منافقيهم . ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ بأنكم علي الحق. وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا ﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتبين علي من نافق .

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد ﷺ ، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهارا للتصلب في اليهودية ، ومنعا لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم ، فينافقون الفريقين . فالاستفهام علي الأول تقريع وعلي الثاني إنكار ونهي .

﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه ، جعلوا محاجتهم بكتاب الله وحكمه محاجة عنده كما يقال عند الله كذا ، ويراد به أنه جاء في كتابه وحكمه . وقيل عند ذكر ربكم ، أو بين يدي رسول ربكم .

وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذ الإخفاء لا يدفعه . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إما تمام كلام اللائمين وتقديره : أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم ، أو

خطاب من الله تعالي للمؤمنين متصل بقوله ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ ، والمعني : أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم .

﴿ أَوَلا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني هؤلاء المنافقين ، أو اللائمين ، أو كليهما ، أو إياهم والمحرفين .

﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ومن جملتهما إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان ، وإخفاء ما فتح الله عليهم ، وإظهار غيره ، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه .

الآيات من ٧٨ : ٨٠

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها . أو التوراة ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ استثناء منقطع . والأماني : جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من مني إذا قدر ، ولذلك تطلق علي الكذب وعلي ما يتمني وما يقرأ ، والمعني : ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرفين ، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة . وقيل إلا ما يقرءون قراءة عارية عن معرفة المعني وتدبره من قوله :

تمني كتاب الله أول ليله   تمني داود الزبور علي رسل (١)

---

(١) البيت لحسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم من قصيدة يرثى فيها عثمان بن اعفان رضى الله عنه .

ومعنى تمنى : تلا وتابع فى تلاوته ، ورسل ـ بكسر الراء ـ وسكون السين أى تؤدة وسكينة .

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون .

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم ، وقد يطلق الظن بإزاء العلم علي كل رأي واعتقاد من غير قاطع ، وإن جزم به صاحبه : كاعتقاد المقلد والزائغ عن الحق لشبهة .

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ أي تحسر وهلك . ومن قال إنه واد أو جبل في جهنم فمعناه : أن فيها موضعا يتبوأ فيه من جعل له الويل ، ولعله سماه بذلك مجازا . وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرة لأنه دعاء . ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ﴾ يعني المحرفين ، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة . ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد كقولك : كتبته بيميني ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ كي يحصلوا به عرضا من أعراض الدنيا ، فإنه وإن جعل قليل بالنسبة إلي ما استجبوه من العقاب الدائم .

﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني المحرف . ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ يريد به الرشا (١) .

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به ، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسه فلا أجده . ﴿ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ محصورة قليلة ، روي أن بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوما ، وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوما ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ خبرا أو وعدا بما تزعمون .

وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال . والباقون بإدغامه .

﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ جواب شرط مقدر أي : إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ، وفيه دليل علي أن الخلف في خبره محال .

---

(١) الرشا : جمع رشوة وهى المال الذى يعطى لقضاء مصلحة أو ما يعطى لإحقاق باطل أو إبطال حق.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أم معادلة لهمزة الاستفهام بمعني أي الأمرين كائن ، علي سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما ، أو منقطعة بمعني : بل أتقولون ، علي التقرير والتقريع .

الآيات من ٨١ : ٨٤

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ﴾

﴿ بَلَى ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زمانا ودهرا طويلا علي وجه أعم، ليكون كالبرهان علي بطلان قولهم ، وتخص بجواب النفي .

﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ قبيحة ، والفرق بينهما وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يقصد بالذات ، والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنه من الخطأ ، والكسب : استجلاب النفع . وتعليقه بالسيئة علي طريق قوله ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) .

﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ اي استولت عليه ، وشملت أحواله حتي صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شئ من جوانبه ، وهذا إما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوي تصديق قلبه وإقرار لسانه قلم تحط الخطيئة به ، ولذلك فسرها السلف بالكفر . وتحقيق ذلك : أن من أذنب ذنبا ولم يقلع عنه استجره إلي معاودة

(١) آل عمران ٢١

مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه ، حتي تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلا إلي المعاصي ، مستحسنا إياها معتقدا أن لا لذة سواها ، مبغضا لمن يمنعه عنها مكذبا لمن ينصحه فيه ، كما قال الله تعالي : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (١) . وقرأ نافع خطيئاته . وقرئ خطيته وخطياته علي القلب والإدغام فيهما . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملازموها في الآخرة كما أنهم أسبابها في الدنيا ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون ، أو لا بثون لبثا طويلا . والآية كما تري لا حجة فيها علي خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالي علي أن يشفع وعده بوعيده ، لترجي رحمته ويخشي عذابه ، وعطف العمل علي الإيمان يدل علي خروجه عن مسماه .

حديث عن نقض اليهود لعهودهم الأخري

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إخبار في معني النهي كقوله تعالي ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ (٢) . وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلي الانتهاء فهو يخبر عنه ويعضده قراءة : لا تعبدوا . وعطف قولوا عليه فيكون علي إرادة القول . وقيل : تقديره أن لا يعبدوا فلما حذف أن رفع كقوله :

ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوَغَى   وأنْ أشهد اللذاتِ هل أنتَ مُخلدي(٣)

---

(١) الروم ١٠   (٢) البقرة ٢٨٢

(٣) هذا البيت لطرفة بن العبد الشاعر الجاهلي من معلقته المشهورة التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد .. تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ويروى :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد .. وقفت بها ابكى وأبكى إلى الغد

ويدل عليه قراءة : ألا تعبدوا ، فيكون بدلا عن الميثاق ، أو معمولا له بحذف الجار . وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعني كأنه قال : وحلفناهم لا يعبدون . وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به ، والباقون بالياء لانهم غيب ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ تعلق بمضمر تقديره : وتحسنون ، أو أحسنوا ﴿ وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ عطف علي الوالدين . واليتامي جمع يتيم كنديم وندامي وهو قليل . ومسكين مفعيل من السكون ، كأن الفقر أسكنه ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي قولا حسنا ، وسماه حسنا للمبالغة . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب حسنا بفتحتين . وقرئ حسنا بضمتين وهو لغة أهل الحجاز ، وحسني علي المصدر كبشري والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ علي طريقة الالتفات ، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم علي التغليب ، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ يريد به من أقام اليهودية علي وجهها قبل النسخ ، ومن أسلم منهم ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء والطاعة . وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة إلي جهة العرض .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ علي نحو ما سبق والمراد به أن لا يتعرض بعضهم بعضا بالقتل والإجلاء عن الوطن . وإنما جعل قتل الرجل غيره قتل نفسه ، لاتصاله به نسبا أو دينا ، أو لأنه يوجبه قصاصا . وقيل معناه لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم ، أو لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم ، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ توكيد كقولك . أقر فلان شاهدا علي نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجدون تشهدون علي إقرار أسلافكم ، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازا .

الآية ٨٥

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه . وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره علي معني أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون ، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا ، نزل تغير الصفة منزلة تغير الذات ، وعدهم باعتبار ما أسند إليهم حضورا وباعتبار ما سيحكي عنهم غيبا . وقوله تعالي ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ إما حال والعامل فيه معني الإشارة ، أو بيان لهده الجملة . وقيل : هؤلاء تأكيد ، والخبر هو الجملة . وقيل بمعني الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر ، وقرئ تُقَتِّلون علي التكثير . ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ حال من فاعل تخرجون . أو من مفعوله . أو كليهما . والتظاهر التعاون من الظهر . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدي التاءين . وقرئ بإظهارها ، وتظهرون بمعني تتظهرون ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها ، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا له حتي يفدوه . وقيل معناه إن يأتوكم أساري في أيدي الشياطين تتصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم انفسكم كقوله تعالي ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1] . وقرأ حمزة أسري وهو جمع أسير كجريح وجرحي، وأساري جمعه كسكري وسكاري ، وقيل هو أيضا جمع أسير ، وكأنه شبه بالكسلان وجمع جمعه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر تفدوهم

---

(١) البقرة ٤٤

﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ متعلق بقوله وتخرجون فريقا منكم من ديارهم، وما بينهما اعتراض ، والضمير للشان ، أو مبهم ويفسره إخراجهم ، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر ، وإخراجهم بدل أو بيان ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ يعني الفداء.

﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء .﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كقتل قريظة وسبيهم . وجلاء بني النضير، وضرب الجزية علي غيرهم ، وأصل الخزي ذل يستحيا منه ولذلك يستعمل في كل منهما . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ لأن عصيانهم أشد .﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد للوعيد ، أي الله سبحانه وتعالي بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم ، وقرأ عاصم في رواية المفضل ، تردون علي الخطاب لقوله ﴿ منكم ﴾ . وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر ، وخلق ويعقوب يعملون علي أن الضمير لمن.

الآيات من ٨٦ : ٨٨

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ آثروا الحياة الدنيا علي الآخرة. ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بنقض الجزية في الدنيا ، والتعذيب في الآخرة . ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بدفعها عنهم .

تتابع الرسل بعد موسي

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ أي التوراة ﴿ وَقَفَّيْنَا

مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ أي أرسلنا علي أثره الرسل ، كقوله سبحانه وتعالي ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ (١) . يقال قفاه إذا تبعه ، وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا ، نحو ذنبه من الذنب ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتي وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار ، بالمغيبات . أو الإنجيل ، وعيسي بالعبرية أبشوع . ومريم بمعني الخادم ، وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال ، قال رؤبة :قُلتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمه . ووزنه مفعل إذ لم يثبت فعيل ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ وقويناه ،. وقرئ آيدناه بالمد ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ بالروح المقدسة كقولك : حاتم الجود ، ورجل صدق ، وأراد به جبريل . وقيل : روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان ، أو لكرامته علي الله سبحانه وتعالي ، ولذلك أضافة إلى نفسه تعالى ، أو لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث ، أو الإنجيل ، أو اسم الله أعظم الذي كان يحيي به الموتي ، وقرأ ابن كثير القدس بالإسكان في جميع القرآن .

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ ﴾ بما لا تحبه . يقال هوي بالكسر هوي إذا أحب هويا بالفتح هوي بالضم إذا سقط . ووسطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخا لهم علي تعقيبهم ذاك بهذا وتعجيبا من شأنهم ، ويحتمل أن يكون استئنافا والفاء للعطف علي مقدر ، ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل .

﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ كموسي وعيسي عليهما السلام ، والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحي عليهما السلام ، وإنما ذكر بلفظ المضارع علي حكاية الحال استحضارا لها في النفوس ، فإن الأمر فظيع . أو مراعاة للفواصل ، أو للدلالة علي أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ ، لولا أني أعصمه منكم ، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ مغشاة باغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن وقيل أصله غلف جمع غلاف فخفف ، والمعني أنها أوعية للعلم لا تسمع علما إلا وعته ، ولا تعي ما تقول . أو نحن

---

(١) المؤمنون ٤٤

مستغنون بما فيها عن غيره .

﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ رد لما قالوه ، والمعني أنها خلقت علي الفطرة والتمكن من قبول الحق ، ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم ، أو أنها لم تاب قبول ما تقوله لخلل فيه ، بل لأن الله تعالي خذلهم بكفرهم كما قال تعالي ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) ، أو هم كفرة ملعونون ، فمن أين لهم دعوي العلم والاستغناء عنك ؟ ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإيمانا قليلا يؤمنون ، وما مزيدة للمبالغة في التقليل ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب . وقيل : أراد بالقلة العدم .

الآيات من ٨٩ : ٩١

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من كتابهم ، وقرئ بالنصب علي الحال من كتاب لتخصصه بالوصف ، وجواب لما ، محذوف دل عليه جواب لما الثانية . ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي يستنصرون علي المشركين ويقولون : اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت ، في التوراة . أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبيا يبعث منهم ، وقد قرب زمانه ، والسين للمبالغة والإشعار أن الفاعل يسال ذلك عن نفسه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ من الحق . ﴿ كَفَرُوا بِهِ ﴾ حسدا وخوفا علي الرياسة .

---

(١) محمد : ٢٣

﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي عليهم ، وأتي بالمظهر للدلاة علي أنهم لعنوا لكفرهم ، فتكون اللام للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلون فيه دخولاً أوليا لأن الكلام فيهم .

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ ما نكرة بمعني شيء مميزة لفاعل بئس المستكن ، واشتروا صفته ومعناه باعوا ، أو اشتروا بحسب ظنهم ، فإنهم ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا . ﴿ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿ بَغْيًا ﴾ طلبا لما ليس لهم وحسدا ، وهو علة ﴿ أن يكفروا ﴾ دون ﴿ اشتروا ﴾ للفصل . ﴿ أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ ﴾ لأن ينزل ، أي حسدوه علي أن ينزل الله . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب بالتخفيف . ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني الوحي .

﴿ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ علي من اختاره للرسالة ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ للكفر والحسد علي من هو أفضل الخلق . وقيل : لكفرهم بمحمد ﷺ بعد عيسي عليه السلام ، أو بعد قولهم عزير ابن الله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يراد به إذلالهم ، بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة لذنوبه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أي بالتوراة ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل مصدر جعل ظرفا ، ويضاف إلي الفاعل فيراد به ما يتواري به وهو خلفه ، وإلي المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه ، ولذلك عد من الأضداد .. ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الضمير لما وراءه ، والمراد به القرآن ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم ، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها .

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة ، والتوراة لا تسوغه ، وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم ، وأنهم راضون به عازمون عليه .

وقرأ نافع وحده أنبئاء الله مهموزا في جميع القرآن .

الآيات من ٩٢ : ٩٤

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ (١) ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أي إلـهـا ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾من بعد مجيء موسي ، أو ذهابه إلي الطور ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ حال ، بمعني اتخذتم العجل ظالمين بعبادته ، أو بالإخلال بآيات الله تعالي ، أو اعتراض بمعني وأنتم قوم عادتكم الظلم ومساق الآية أيضا لإبطال قولهم ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ (٢) والتنبيه علي أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسي عليهما الصلاة والسلام ، لا لتكرير القصة وكذا ما بعده .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ أي قلنا لهم : خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد واسمعوا سماع طاعة . ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته ، لفرط شغفهم به ، كما يتداخل الصبغ الثوب ، والشراب أعماق البدن . وفي قلوبهم : بيان لمكان الإشراب كقوله تعالي ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (٣) ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مجسمة ، أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه ، فتمكن في قلوبهم ما سول لهم

---

(١) الإسراء ١٠١ (٢) البقرة ٩١

(٣) النساء ١٠

السامري ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾ أي بالتوراة ، والمخصوص بالذم محذوف نحو هذا الأمر ، أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاما عليهم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تقرير للقدح . في دعواهم الإيمان بالتوراة ، وتقديره إن كنتم مؤمنين بها لم يأمركم بهذه القبائح ولا يرخص لكم فيها إيمانكم بها ، أو إن كنتم مؤمنين بها فبئسما يامركم به إيمانكم بها ، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطي إلا ما يقتضيه إيمانه ، لكن الإيمان بها لا يامر به ، فإذا لستم بمؤمنين .

علامة الإيمان الاشتياق للقاء الله

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً ﴾ خاصة بكم كما قلتم : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ونصبها علي الحال من الدار . ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ سائرهم ،واللام للجنس ، أو المسلمين واللام للعهد ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها ، وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب ، كما قال علي رضي الله تعالي عنه : (لا أبالي سقطت علي الموت، أو سقط الموت علي) . وقال عمار رضي الله تعالي عنه بصفين : (الآن الاقي الأحبة محمدا وحزبه) . وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر : (جاء حبيب علي فاقة ، لا أفلح من ندم) أي : علي التمني ، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره .

الآيات من ٩٥ : ٩٧

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) ﴾

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من موجبات النار . كالكفر بمحمد ﷺ ، والقرآن ، وتحريف التوراة ، ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان ، آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه ، عبر بها عن النفس تارة والقدرة أخري ، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخير ، لأنهم لو تمنوا لنقل واشتهر ، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفي ، بل هو أن يقول : ليت لي كذا ، ولو كان بالقلب لقالوا : تمنينا . وعن النبي ﷺ « **لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه ، وما بقي علي وجه الأرض يهودي** » ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ تهديد لهم وتنبيه علي أنهم ظالمون في دعوي ما ليس لهم ، ونفيه عمن هو لهم .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ من وجد بعقله الجاري مجري علم ، ومفعولاه هم وأحرص الناس ، وتنكير حياة لأنه أريد بها فرد من أفرادها وهي : الحياة المتطاولة ، وقرئ باللام . ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ محمول علي المعني وكأنه قال : أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا . وإفراده بالذكر للمبالغة ، فإن حرصهم شديد إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة ، والزيادة في التوبيخ والتقريع ، فإنهم لما زاد حرصهم - وهم مقرون بالجزاء علي حرص المنكرين - دل ذلك علي علمهم بأنهم صائرون إلي النار ، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف أحرص لدلالة الأول عليه ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ علي أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا : عزيز ابن الله ، أي : ومنهم ناس يود أحدهم ، وهو علي الأولين بيان لزيادة حرصهم علي طريق

الاستئناف . ﴿ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ حكاية لودادتهم ، ولو بمعني ليت وكان أصله : لو أعمر ، فأجري علي الغيبة لقوله : يود ، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ الضمير لأحدهم ، وأن يعمر فاعل مزحزحه ، أى وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره ، أو لما دل عليه يعمر . وأن يعمر بدل منه . أو منهم ، وأن يعمر موضحه وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات . وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته وتسنهت النخلة إذا أتت عليها السنون ، والزحزحة التبعيد ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم .

سبب نزول الآية .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ نزل في عبد الله بن صوريا ، سأل رسول الله ﷺ عمن ينزل عليه بالوحي ؟ فقال : جبريل ، فقال : ذلك عدونا عادانا مرارا ، وأشدها أنه أنزل علي نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر ، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل فدفع عنه جبريل . وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه وإلا فيم تقتلونه ؟ (١) .

وقيل : دخل عمر رضي الله تعالي عنه مدراس اليهود يوما ، فسألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يطلع محمدا علي أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلام ، فقال : وما منزلتهما من الله ؟ قالوا : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة ، فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال ﷺ **« لقد وافقك ربك يا عمر »** (٢) .

لغات في لفظ جبريل

وفي جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع في : المشهور جبرئيل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائي ، وجبريل بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير ، وجبرئل

---

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى والبغوى دون إسناد قال ابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف : ولعله من تفسير الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) رواه الواحدى فى أسباب النزول من رواية داود بن هند عند الشعبى .

كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر ، وجبريل كقنديل قراءة الباقين . وأربع في الشواذ : جبرائل و جبْرائيل كجبراعيل ، وجبرئل وجبرين ومنع صرفه للعجمة ، والتعريف ، ومعناه عبد الله .

﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ البارز الأول لجبريل ، والثاني للقرآن ، وإضماره غير مذكور يدل علي فخامة شأنه كأنه لتعينه وفرط شهرته لم يحتج إلي سبق ذكره . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ فإنه القابل الأول للوحي ، ومحل الفهم ، والحفظ ، وكان حقه علي قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال : قل ما تكلمت به . ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بأمره ، أو تيسيره حال من فاعله نزله .

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أحوال من مفعوله ، والظاهر أن جواب الشرط ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ ، والمعني من عادي منهم جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف ، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي ، لأنه نزل كتابا مصدقا للكتب المتقدمة ، فحذف الجواب وأقيم علته مقامه ، أو من عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك . وقيل : محذوف مثل ، فليمت غيظا ، أو فهو عدو لي وأنا عدوله .

الآيات من ٩٨ : ١٠١

﴿ من كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾

كما قال :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أراد بعداوة الله مخالفته عنادا ، أو معاداة المقربين من عباده ، وصدر الكلام بذكره تفخيما لشأنهم كقوله تعالي ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن

يرضوه﴾ (١) .

وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر ، والتنبيه علي أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالي ، وأن من عادي أحدهم فكأنه عادي الجميع ، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم علي الحقيقة واحد ، ولأن المحاجة كانت فيهما . ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة علي أنه تعالي عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر . وقرأ نافع ميكائل كميكاعل ، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ميكال كميعاد ، والباقون ميكائيل بالهمزة والياء بعدها . وقرئ ميكئل كميكعل ، وميكئيل كميكعيل ، وميكايل .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي المتمردون من الكفرة ، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل علي عظمه كأنه متجاوز عن حده . نزل في ابن صوريا حين قال لرسول الله ﷺ ، ما جئتنا بشئ نعرفه ، وما أنزل عليك من آية فنتبعك .(٢)

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ﴾ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف علي محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا ، وقرئ بسكون الواو علي أن التقدير إلا الذين فسقوا ، أو كلما عاهدوا ، وقرئ عوهدو وعهدوا ..﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ نقضه ، وأصل النبذ الطرح ، لكنه يغلب فيما ينسي ، وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ رد لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون ، أو أن من لم ينبذ جهارا فهم مؤمنون به خفاء .

إعراضهم عن التوراة .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنـدِ الـلَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ كعيسي ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ يعني التوراة ، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه ، ونبذ لما فيها من

---

(١) التوبة ٦٢

(٢) رواه الطبرى من طريق ابن اسحاق رواه عنه ابن جبير

وجوب الإيمان بالرسل المؤيدين بالآيات . وقيل ما مع الرسول ﷺ هو القرآن .

﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ مثل لإعراضهم عنه رأسا ، بالإعراض عما يرمي به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه . ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كتاب الله ، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عنادا . واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق : فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله : ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ . وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمردا وفسوقا ، وهم المعنيون بقوله ﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾[1] . وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون . وفرقة تمسكوا بها ظهرا ونبذوها خفية عالمين بالحال ، بغيا وعنادا وهم المتجاهلون .

الآيتان من ١٠٢ : ١٠٣

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

قصة سليمان والسحرة .

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ عطف على نبذ ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها ، أو تتبعها الشياطين من الجن ، أو الإنس ، أو منهما . ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي عهده ، وتتلو حكاية حال ماضية . قيل : كانوا

---

(١) البقرة ١٠٠

يسترقون السمع ويضمون إلي ما سمعوا أكاذيب ، ويلقونها إلي الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس ، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتي قيل : إن الجن يعلمون الغيب ، وأن ملك سليمان تم بهذا العلم ، وأنه تسخر به الجن والإنس والريح له .

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك ، وعبر عن السحر بالكفر ليدل علي أنه كفر ، وإن من كان نبيا كان معصوما منه . ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ باستعماله ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكن بالتخفيف ، ورفع الشياطين .

﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ إغواء وإضلالاً ، والجملة حال من الضمير ، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان ، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس . فإن التناسب شرط في التضام والتعاون ، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي ، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوز ، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه .

﴿ وَمَا أُنـزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد ، والعطف لتغاير الاعتبار ، أو المراد به نوع أقوى منه ، أو على ما تتلو . وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس ، وتمييزاً بينه وبين المعجزة .

وما روي أنهما مثلا بشرين ، وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها : زهرة ، فحملتهما على المعاصي والشرك ، ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفي على ذوي البصائر .

وقيل : رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما ، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر.وقيل : ما أنزل نفي معطوف على ما كفر سليمان تكذيب لليهود في هذه القصة . ﴿ بِبَابِلَ ﴾ ظرف ، أو حال من الملكين ، أو الضمير في أنزل والمشهور أنه بلد من سواد الكوفة . ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ عطف بيان للملكين ، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعني الكسر لانصرفا . ومن جعل ما نافية أبدلهما من الشياطين بدل البعض ، وما بينهما اعتراض . وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتي ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقي عمله ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به . وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور ، وإنما المنع من اتباعه والعمل به . وعلى الثاني ما يعلمانه حتي يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا .﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ الضمير لما دل عليه من أحد . ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أى من السحر ما يكون سبب تفريقهما .﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثرة بالذات بل بأمره تعالى وجعله . وقرئ بضاري على الإضافة إلى أحد ، وجعل الجار جزء منه والفصل بالظرف . ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لأنهم يقصدون به العمل ، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿ وَلا يَنفَعُهُمْ ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين . وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أي اليهود .﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى ، والأظهر أن اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ نصيب ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ يحتمل المعنيين على ما مر .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يتفكرون فيه ، أو يعلمون قبحه على التعيين ، أو حقيقة ما يتبعه من العذاب ، والمثبت لهم أولاً على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي بقبح الفعل ، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم ، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ بالرسول والكتاب .﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ بترك المعاصي ، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ جواب لو ، وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة و الجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، وتنكير المثوبة لأن المعني لشيء من الثواب خير ،

وقيل: لو للتمني ، ولمثوبة كلام مبتدأ . وقرئ لمثوبة كمشورة و وإنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه ، وقد علموا لكنه جهلهم لترك التدبر ، أو العمل بالعلم .

الآيات من ١٠٤ : ١٠٦

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ الرعي حفظ الغير لمصلحته ، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعنا أي راقبنا وتأن بنا فيما تلقننا حتي نفهمه ، وسمع اليهود فافترصوه [١] وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن ، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس ، وهو انظرنا بمعني انظر إلينا ، أو انتظرنا من نظره إذا انتظره . وقرئ أنظرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ . وقرئ راعونا على لفظ الجمع للتوقير ، وراعنا بالتنوين أي قولاً ذا رعن نسبة إلي الرعن وهو الهوج ، لما شابه قولهم راعينا وتسبب للسب .

﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ وأحسنوا الاستماع حتي لا تفتقروا إلى طلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتي لا تعودوا إلي ما نهيتم عنه .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني الذي تهونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه .

---

(١) افترضوه : انتهزوه فرصة

﴿ما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير . والود : محبة الشيء مع تمنيه ، ولذلك يستعمل في كل منهما ، ومن للتبيين كما في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ مفعول يود ، ومن الأولى مزيدة للاستغراق ، والثانية للابتداء، وفسر الخير بالوحي . والمعني أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم وبالنصرة ، ولعل المراد به ما يعم ذلك .

﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يستنبئه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء ، وليس لأحد عليه حق .

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل ، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله ، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته .

حول النسخ في القرآن

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . والنسخ في اللغة : إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره ، كنسخ الظل للشمس والنقل ، ومنه التناسخ . ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك : نسخت الريح الأثر ، ونسخت الكتاب . ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها ، أو الحكم المستفاد منها ،أو بهما جميعاً . وإنساؤها إذهابها عن القلوب ، وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية . وقرأ ابن عامر ما نُنْسخ من أنسخ أي نأمرك أو جبريل بنسخها ، أو نجدها منسوخة . وابن كثير وأبو عمرو ننسأها أي نؤخرها من النسء . وقرئ ننسها أي ننس أحداً إياها ، وننسها أي أنت ، وتنسها على البناء للمفعول ، وننسكها بإضمار المفعولين ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب ، ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ في الثواب . وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً . ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) البينة ١

قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ ، أو بما هو خير منه .

والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة ، وذلك لأن الأحكام شرعت ، والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة ، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص ، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره . واحتج بها من منع النسخ بلا بدل ، أو ببدل أثقل . ونسخ الكتاب بالسنة ، فإن الناسخ هو المأتي به بدلاً والسنة ليست كذلك والكل ضعيف ، إذ قد يكون عدم الحكم ، أو الأثقل أصلح . والنسخ قد يعرف بغيره ، والسنة مما أتي به الله تعالى ، وليس المراد بالخير والمثل ما يكون كذلك في اللفظ .

والمعتزلة على حدوث القرآن فإن التغير والتفاوت من لوازمه . وأجيب : بأنهما من عوارض الأمور المتعلقة بالمعني القائم بالذات القديم .

الآيات من ١٠٧ : ١٠٩

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته ، لقوله ﴿ وما لكم ﴾ وإنما أفرده لأنه أعلمهم ، ومبدأ علمهم . ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو كالدليل على قوله : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم ، والفرق بين الولي والنصير .أن الولي قد يضعف عن

النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أم معادلة للهمزة في ﴿ ألم تعلم ﴾ أي : ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادر على الأشياء كلها يأمر وينهي كما أراد ، أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسي عليه السلام . أو منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه .

قيل : نزلت في أهل الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء . وقيل : في المشركين لما قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾[1] ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها ، فقد ضل الطريق المستقيم حتي وقع في الكفر بعد الإيمان ، ومعني الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان . وقريء يبدل من أبدل .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني أحبارهم . ﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ أن يردوكم، فإن لو تنوب عن أن في المعني دون اللفظ : ﴿ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ مرتدين ، وهو حال من ضمير المخاطبين ﴿ حَسَدًا ﴾ علة ود . ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ يجوز أن يتعلق بود ، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهيهم ، لا من قبل التدين والميل مع الحق . أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة . ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ العفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح ترك تثريبه ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم ، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير .وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ، وفيه نظر إذ الأمر غير مطلق ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الانتقام منهم .

---

(١) الإسراء ٩٣

الآيات من ١١٠ : ١١٢

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ عطف على فاعفوا كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ كصلاة وصدقة . وقرئ تقدموا من أقدم ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى ثوابه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يضيع عنده عمل. وقرئ بالياء فيكون وعيداً.

ادعاء باطل

﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على ود ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصاري .

﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ [١] ثقة بفهم السامع ، وهود جمع هائد كعوذ وعائذ ، وتوحيد الاسم المضمر في كان ، وجمع الخبر لاعتبار اللفظ والمعني . ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة ، وهي أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأن يردوهم كفاراً ، وأن لا يدخل الجنة غيرهم ، أو إلى ما في الآية على حذف المضاف أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، والجملة اعتراض والأمنية أفعولة من التمني كالأضحوكة والأعجوبة . ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت .

---

(١) البقرة ١٣٥

﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أخلص له نفسه ، أو قصده ،وأصله العضو ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ الذي وعد له علي عمله ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا ينقص ، والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة . والفاء فيها لتضمنها معني الشرط فيكون الرد بقوله : بلى وحده ، ويحسن الوقف عليه . ويجوز أن يكون من أسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة .

الآيات من ١١٣ : ١١٥

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي على أمر يصح ويعتد به . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك . ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس أي : قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ كعبدة الأصنام ، والمعطلة . وبخهم على المكابرة والتشبه بالجهال .

فإن قيل : لم وبخهم وقد صدقوا ، فإن كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء ؟ قلت : لم يقصدوا ذلك ، وإنما قصد به كل فريق إبطال دين الآخر من أصله ،

والكفر بنبيه وكتابه مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجب القبول والعمل به.

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ يفصل ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الفريقين﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب . وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار .

حرمة المساجد ووجوب تعميرها

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ عام لكل من خرَّبَ مسجداً ، أو سعي في تعطيل مكان مرشح للصلاة . وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلو أهله . أو في المشركين لما منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ ثاني مفعولي منع﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ بالهدم ، أو التعطيل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها ، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً عن أن يمنعوهم منها ، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه ، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجز وعده . وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد ، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك ، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره .

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ قتل وسبي ، أو ذلة بضرب الجزية ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بكفرهم وظلمهم .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض ، أي له الأرض كلها

*** الإعجاز العلمي**

الآية رقم ١١٥ من سورة البقرة:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

لا يختص به مكان دون مكان ، فإن منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام ، أو الأقصي فقد جعلت لكم الأرض مسجدا . ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا** ﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿ **فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ أي جهته التي أمر بها ، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان . أو فثم ذاته : أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ** ﴾ بإحاطته بالأشياء ،أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها ، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة) . وقيل : في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم ، وعلي هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك . وقيل : هي توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود أن يكون في حيز وجهة .

* الإعجاز العلمي

﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ لايعني الله عز وجل تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط ولكنه يتعداها إلي كل الجهات شرقها وغربها وشمالها وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها فحين يقول الله عز وجل ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ فليس معناها حصر ملكيته لهاتين الجهتين فقط ولكنه ما يعرف بالتخصيص بواسطة التقديم .

والإعجاز في هذه الآية كما يقول فضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي أنه لم يختص هاتين الجهتين فإذا قلنا ﴿ لله المشرق ﴾ فلا نظن أن المشرق اتجاه واحد بل إن المشرق يختلف بأختلاف المكان فكل مكان في الأرض له مشرق وله مغرب فإذا أشرقت الشمس في مكان فإنها في نفس الوقت تغرب في مكان آخر ، تشرق عندي وتغرب عند غيري وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين فإذا نظرت إلي الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهرى وغروبها تجد أن المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض وهذا يفسر قوله تعالي ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ أي يتسع ملكه لا يشغله شيء عن شيء فلا ينحصر معني الآية في المشرق والمغرب وحدهما ولكنه يتعداهما إلي سائر الأرض والاتجاهات ملكا لله.

الآيات من ١١٦ : ١١٩

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾

سبب نزول الآية

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ نزلت لما قال اليهود : عزير ابن الله ، والنصاري : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب : الملائكة بنات الله ، وعطفه على قالت اليهود ، أو منع ، أو مفهوم قوله تعالى ومن أظلم . وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له عن ذلك ، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء ، ألا تري أن الأجرام الفلكية ـ مع إمكانها وفنائها ـ لما كانت باقية ما دام العالم ، لم تتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذ الحيوان والنبات ، اختياراً أو طبعاً .

﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ رد لما قالوه ، واستدلال على فساده ، والمعني أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض ، الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح.

﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه ، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكونه الواجب لذاته : فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانس والده ، وإنما جاء بما الذى لغير أولى العلم [١] ،وقال قانتون على تغليب أولي العلم تحقيراً لشانهم ، وتنوين كل عوض عن المضاف إليه ، اي كل ما فيهما . ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً له مطيعاً مقرون بالعبودية ، فيكون إلزاماً بعد إقامة الحجة .

---

(١) لغير أولى العلم : يقصد ان ماتكون لغير العاقل ، بعكس من التى تكون للعاقل .

أدلة على إبطال زعم الولد لله تعالى

والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه [1] ، واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه ، لأنه تعالى نفي الولد بإثبات الملك ، وذلك يقتضي تنافيهما .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ مبدعهما ، ونظيره السميع في قوله :

أمن ريحانة الداعي السميع يؤَرِّقُني وأصحابي هجوع [2]

أو بديع سمواته وأرضه ، من بدع فهو بديع ، وهو حجة رابعة ، وتقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه ، والله سبحانه وتعالي مبدع الأشياء كلها ، فاعل على الإطلاق ، منزه عن الانفعال ، فلا يكون والداً . والإبداع : اختراع الشيء لا عن الشي دفعة ، وهو أليق بهذا الموضوع من الصنع الذي هو : تركيب الصور لا بالعنصر ، والتكوين الذي يكون بتغيير وفي زمان غالباً . وقرئ بديع مجروراً على البدل من الضمير في له . وبديع منصوباً على المدح .

---

(١) الوجوه الثلاثة التى يشير إليها هى :

ـ أن الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد ، فلو فرضنا له ولدا لكان مشاركا له من بعض الوجوه ، وممتازا عنه من وجه آخر ، وذلك يقتضى أن يكون كل واحد منهما مركبا ومحدثا وذلك محال .

ـ الولد يتخذ للحاجة إليه فى الكبر رجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه ، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة وذلك محال على الله تعالى .

ـ هذا الذى أضيف إليه بأنه ولده أما أن يكون قديما أزليا أو محدثا ، فإن كان أزليا لم يكن حكمنا عليه بجعل احدهما ولدا والآخر والدا أولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكما مجردا من غير دليل .

وإن كان الولد حادثا كان مخلوقا لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له .

ـ راجع مفاتيح الغيب حـ ٢ ص ٦٧ ٣ ط دار الغد .

(٢) سبق الحديث عن هذا البيت .

﴿ وإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ أي أراد شيئاً ، وأصل القضاء إتمام الشيء قوة كقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ (١) ، أو فعلاً كقوله تعالى :﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾(٢) . وأطلق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشئ من حيث إنه يوجبه. ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ من كان التامة بمعني أحدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال ، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف .

وفيه تقرير لمعني الإبداع ، وإيماء إلى حجة خامسة وهي : أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة ، وفعله تعالى مستغن عن ذلك . وقرأ ابن عامر فيكون بفتح النون .

السبب في هذه الضلالة

واعلم أن السبب في هذه الضلالة ، أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول ، حتي قالوا إن الأب هو الرب الأصغر، والله سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر ، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معني الولادة ، فاعتقدوا ذلك تقليداً ، ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة المشركين ، أو المتجاهلون من أهل الكتاب . ﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة ، أو يوحي إلينا بأنك رسوله . ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ حجة على صدقك ، والأول استكبار والثاني جحود ، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً ، ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ من الامم الماضية ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ فقالوا : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(٣). ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾(٤) ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قلوب

---

(١) الاسراء ٢٣ (٢) فصلت ١٢

(٣) النساء ١٥٣ (٤) المائدة ١١٢

هؤلاء ومن قبلهم في العمي والعناد . وقرئ بتشديد الشين . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي يطلبون اليقين ، أو يوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة ولا عناد . وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين ، وإنما قالوه عتوا وعناداً .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ متلبساً مؤيداً به . ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا . ﴿ وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت . وقرأ نافع ويعقوب : لا تسأل ، على أنه نهي للرسول ﷺ عن السؤال عن حال أبويه . أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها ، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال . والجحيم : المتأجج من النار .

الآيات من ١٢٠ : ١٢٣

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم ، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتي يتبع ملتهم ، فكيف يتبعون ملته . ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكي الله عنهم ولذلك قال ﴿ قُلْ ﴾ تعليماً للجواب . ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ أي هدي الله الذي هو الإسلام هو الهدي إلى الحق ، لا ماتدعون إليه .﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ آراءهم الزائفة . والملة ما شرعه الله تعالي لعباده على لسان أنبيائه ، من أمللت الكتاب إذا أمليته ، والهوى :

رأي يتبع الشهوة ﴿ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحته . ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لئن.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه ، وهو حال مقدرة والخبر ما بعده ، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بكتابهم دون المحرفين . ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٢٢) ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(١٢٣)[1] لما صدر قصتهم بالأمر بذكر النعم ، والقيام بحقوقها ، والحذر من إضاعتها ، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح ، وإيذاناً بأنه فذلكه[2] القضية والمقصود من القصة .

الآيتان من ١٢٤ : ١٢٥

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾

كلمات إبراهيم

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ كلفه بأوامر ونواه ، والابتلاء في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء ، لكنه لما استلزم الاختبار بالنسبة إلي من يجهل

(١) الآيتان ١١٢٢ ، ١٢٣ يرجع فى تفسيرهما إلى أول القصة تذكيرا للنعم .

(٢) فذلكة : الفذلكة مجمل مافصل وخلاصته .

العواقب ظن ترادفهما ، والضمير لإبراهيم ، وحسن لتقدمه لفظاً وإن تأخر رتبة ، لأن الشرط أحد التقدمين ، والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالي ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ (١) الآية وقوله تعالي ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، وقوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٣) كما فسرت بها في قوله ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ (٤) وبالعشر التي هي من سننه (٥) وبمناسك الحج؛

---

(١) سورة التوبة ١١٢ ، والآية بتمامها هى ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ . فهذه عشر صفات

(٢) سوة الأحزاب ٣٥ والآية بتمامها هى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾.

فهذه عشر صفات

(٣) المؤمنون من ١ ـ ١٠ والآيات بتمامها هى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملوين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون ﴾ .

فهذه عشر صفات تستفاد من الآيات

(٤) البقرة ٣٧

(٥) جاء فى الكشاف : الكلمات هن خمس فى البدن : الختان والاستحداد والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الابط ، وخمس فى الرأس : الفرق وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق .

وقيل : الابتلاء الكوكب والقمر والشمس ـ يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ... ﴾ آيات ٧٦ ـ ٧٩ ـ والختان وذبح ابنه والنار والهجرة .

وبالكواكب ، والقمرين ، والختان ، وذبح الولد ، والنار، والهجرة . على أنه تعالي عامله بها معاملة المختبر بهن وبما تضمنته الآيات التي بعدها .

وقرئ إبراهيمُ ربَّه على أنه دعا (١) ربه بكلمات مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ (٢) . ﴿اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾(٣) ليري هل يجيبه . وقرأ ابن عامر إبراهام بالألف جميع ما في هذه السورة .

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهن كملاً وقام بهن حق القيام ، لقوله تعالي ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ (٤) وفي القراءة الأخيرة الضمير لربه ، أي أعطاه جميع ما دعاه .

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استئناف إن أضمرت ناصب إذ كأنه قيل : فماذا قال ربه حين أتمهن؟ فأجيب بذلك .

أو بيان لقوله ابتلي فتكون الكلمات ما ذكره من الإمامة ، وتطهير البيت ، ورفع قواعده ، والإسلام . وإن نصبته بقال فالمجموع جملة معطوفة على ما قبلها ، أو جاعلٌ من جعل الذي له مفعولان ، والإمام اسم لمن يؤتم به وإمامته عامة مؤبدة ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه .

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف أي وبعض ذريتي ، كما تقول : وزيداً في جواب : سأكرمك والذرية نسل الرجل فُعْلِيَّة ، أو فُعُولَة قلبت راؤها الثانية ياء كما في تقضيت من الذر بمعني التفريق (٥) أو فعوله أو فعيلة قلبت همزتها من الذرء بمعني الخلق .

---

(١) يعنى أن ابتلى بمعنى دعا .

(٢) البقرة : ٢٦٠ .

(٣) إبراهيم : ٣٥ .

(٤) النجم : ٣٧ .

(٥) يعنى على مثال تَقَضَّيْت من الذر فتقول : تَذَرَّيْت وأصلها تَذَرَّرْتُ .

جاء فى تفسير القرطبي :

قال ابن جني : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها ذرأ بالهمز فى آخره – والثاني ذرر ، والثالث ذرو ، والرابع ذرى .

فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق .

وقرئ ذريتي بالكسر وهي لغة .

﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ إجابة إلى ملتمسه ، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمه ، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالي وعهد ، والظلم لا يصلح لها ، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم . وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة ، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة . وقرئ الظالمون والمعني واحد إذ كل ما نالك فقد نلته .

بناء الكعبة

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ ﴾ أي الكعبة ،و غلب عليها كالنجم على الثريا . ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم ، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره . وقريء : مثابات أي لأنه مثابة كل أحد . ﴿ وَأَمْنًا ﴾ وموضع أمن لا يتعرض لأهله كقوله تعالي ﴿ حَرَمًا آمِنًا ﴾ (١) . ويتخطف الناس من حولهم ، أو يأمن حاجه من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يجب ما قبله ، أولا يؤاخذ الجاني الملتجيء إليه حتي يخرج ، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ على إرادة القول ، أو عطف على المقدر عاملاً لإذ ، أو اعتراض معطوف على مضمر تقديره توبوا إليه واتخذوا ، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ ، وهو أمر استحباب ، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه

وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه .

وأما الواو والياء فمن ذروت الحب وذريته . قال تعالي : ﴿ فاصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ .

قال الجوهري : ذرت الريح التراب تذروه وتذريه ذرواً وذرياً .

وقال الخليل : إنما سموا ذرية لان الله تعالى ذرأها علي الأرض كما ذرأ الزارع البذر .

وقيل : أصل ذرية ذُرُّورة ، لكن لما كثر التضعيف أبدل من إحدى الرأءات ياء فصارت ذرُّوية ، ثم أدغمت الواو فى الياء فصارت ذرية .

تفسير القرطبى جـ١ ص ٤٩٤ ط دار الشعب ، وراجع لسان العرب مادة ذرر .

(١) القصص : ٥٧ ، العنكبوت : ٦٧ .

أثر قدمه ، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج ، أو رفع بناء البيت وهو موضعه اليوم . روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال «**هذا مقام إبراهيم ، فقال عمر : أفلا نتخذه مصلي ، فقال : لم أومر بذلك ، فلم تغب الشمس حتي نزلت**» [١] .

وقيل : المراد به الأمر بركعتي الطواف ، لما روي جابر أنه عليه الصلاة والسلام (**لما فرغ من طوافه عمد إلي مقام إبراهيم فصلي خلفه ركعتين وقرأ : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي** [٢]).

وللشافعي رحمه الله تعالي في وجوبهما قولان . وقيل : مقام إبراهيم الحرم كله . . وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلي أن يدعي فيها ، ويتقرب إلى الله تعالي . وقرأ نافع وابن عامر واتخذوا بلفظ الماضي عطفاً على جعلنا ، أي : واتخذوا الناس مقامه الموسوم به ، يعني الكعبة قبلة يصلون إليها . ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ**﴾ أمرناهما . ﴿**أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ**﴾ ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معني القول ، يريد طهراه من الأوثان والإنجاس وما لا يليق به ، أو أخلصاه . ﴿**لِلطَّائِفِينَ**﴾ حوله .﴿**وَالْعَاكِفِينَ**﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ . أي المصلين ، جمع راكع وساجد .

---

(١) أخرجه أبو نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر ، وذكره القرطبي في تفسيره وذكره السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الحج – باب حجة رسول الله ﷺ من حديث جابر الطويل ، والذي فيه أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى .

الآيات من ١٢٦ : ١٢٩

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴾ يريد به البلد ، أو المكان . ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ ذا أمن كقوله تعالى ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [١] أو آمنا أهله كقولك : ليل نائم

﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أبدل من ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ اهله بدل البعض للتخصيص ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ ﴾ عطف على من آمن والمعني وارزق من كفر ، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة ، فنبه

(١) الحاقة : ٢١ والقارعة : ٧

* الإعجاز العلمي

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾

من غرائب القرآن

﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ هذه الآية نزلت علي سيدنا إبراهيم منذ آلاف السنين والمقصود بأهل هذا المكان هم أهل مكة ويدعو لهم سيدنا إبراهيم بالخير الوفير من الثمرات لأن هذا من مستلزمات الأمن فمادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة

سبحانه علي أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين . أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ خبره ، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتيع لكنه سبب لقليله ، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب ، ولذلك عطف عليه ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴾ أي ألزه إليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم ، وقليلاً نصب على المصدر ، أو الظرف . وقرئ بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره . وقرأ ابن عامر فأمتعه من أمتع . وقرىء فنمتعه ثم نضطره ، وإضطره بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة ، وأضطره بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس .

﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، وهو العذاب .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ حكاية حال ماضية ، والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبة من القعود ، بمعني الثبات ، ولعله مجاز من المقابل للقيام ، ومنه قعدك الله ، ورفعها البناء عليها فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع ، ويحتمل أن يراد بها سافات [1] البناء فإن كل ساف قاعدة ما يوضع فوقه ويرفعها بناؤها . وقيل المراد رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه ، ودعاء الناس إلى حجه . وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها . ﴿ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ كان

---

(١) السَّاف في البناء : كل صف من اللَّبن أوالأحجار أو الطوب ، ويقال له : مد ماك ـ لسان العرب ـ .

* الإعجاز العلمي

موجودة فيبقي الناس في هذا البلد آمنين وخاصة أن بداية دعاء إبراهيم هو ﴿ اجعل هذا البلد آمنا ﴾ .

ولأن كلام الله حق والقرآن حق نلاحظ أن بعد مرور آلاف السنين علي هذا الدعاء أنك إذا ذهبت إلي مكة الآن وجدت الأسواق بها جميع أنواع الفواكه والخضر والثمار وهي تأتي إليها من سائر بقاع الأرض ولاتزرع فيها تحقيقا لدعوة إبراهيم عليه السلام وهذا من الإعجاز الذي يتحدي به القرآن الذين يكذبون به .

يناوله الحجارة ، لكنه لما كان له مدخل في البناء عطف عليه . وقيل : كانا يبنيان في طرفين ، أو على التناوب . ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا ، وقد قرئ به والجملة حال منهما . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائنا ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنياتنا .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ مخلصين لك ، من أسلم وجهه ، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد ، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان ، أو الثبات عليه . وقرئ مسلمين على أن المراد أنفسهما وهاجر . أو أن التثنية من مراتب الجمع . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا ، وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع ، وخصا بعضهم لما أعلما أن في ذريتهما ظلمة ، وعلما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالي ، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقي لخربت الدنيا ، وقيل : أراد بالأمة أمة محمد ﷺ ، ويجوز أن تكون من للتبيين كقوله تعالي : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ (١) قدم على المبين وفصل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالي : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾(٢) .

﴿ وَأَرِنَا ﴾ من رأي بمعني أبصر ، أو عرف ، ولذلك لم يتجاوز مفعولين

﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ متعبداتنا في الحج ، أو مذابحنا . والنسك في الأصل غاية العبادة ، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة . وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب أرنا ، قياساً على فخذ في فخذ ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها . وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس.

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الطلاق : ١٢ .

﴿ وتُبْ عَلَيْنَا ﴾ استتابة لذريتهما ، و عما فرط منهما سهواً . ولعلهما قالا هضما لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ في الأمة المسلمة ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمي [١] » .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل التوحيد والنبوة . ﴿ ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام . ﴿ ويُزَكِّيهِمْ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المحكم له .

الآيات من ١٣٠ : ١٣٢

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء ، أي لا يرغب أحد عن ملته . ﴿ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها . قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق ، وتغمص الناس[٢] » . وقيل : أصله سفه نفسه على الرفع ، فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه، وقول النابغة الذبياني :

---

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان والطبراني والحاكم من حديث العربا ض بن سارية رضى الله عنه .

الحافظ بن حجر في تخريج أحاديث الكشاف .

(٢) رواه البزار من رواية ابن اسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما .

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبِّ الظَّهرِ ليسَ لَهُ سنَامُ (١)

أو سفه في نفسه ، بنزع الخافض . والمستثني في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في يرغب لأنه في معني النفي .

﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ حجة وبيان لذلك ، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة ، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه ، أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ظرف لا صطفيناه ، أو تعليل له ، أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل : اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفي الصالح المستحق للإمامة والتقدم ، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلي الإذعان وإخلاص السر حين ، دعاه ربه وأخطر بباله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلي الإسلام .

روي أنها نزلت لما دعا عبد الله بن سلام ابني أخيه : سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمة وأبي مهاجر.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ، وأصلها الوصل يقال : وصاه إذا وصله ، وفصاه : إذا فصله ، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصي ، والضمير في بها للملة ، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة ، أو الجملة . وقرأ نافع وابن عامر وأوصي والأول أبلغ ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ عطف على إبراهيم ، اي ووصي هو أيضاً بها بينه . وقرئ بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ . على إضمار القول عند البصريين ، متعلق بوصي عند الكوفيين لأنه نوع منه . ونظيره :

---

(١) قاله النابغة الذبياني من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر وقبل هذا البيت قوله :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

وأبو قابوس كنية النعمان بن المنذر .

وذناب العيش يقصد عقب كل شيء ، وأجب الظهر : منقطع الظهر

يريد أن الحياة تصبح ضيقة شديدة قاسية على سبيل الاستعارة .

رَجُلَانِ (١) مِنْ ضَبَّةَ أَخْبَرَانا أَنَّا رَأَيْنَا رَجُلاً عريَانا

بالكسر (٢) .

وبنو إبراهيم كانوا أربعة : إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان . وقيل : ثمانية . وقيل : أربعة عشر : وبنو يعقوب اثنا عشر : روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وبولون وتفتوني ودون وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالي ﴿ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ظاهره النهي عن الموت علي خلاف حال الإسلام ، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا ، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك : لا تصل إلا وأنت خاشع ، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه ، وأن من حقه أن لا يحل بهم ونظيره في الأمر مت وأنت شهيد . وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : ألست تعلم أن يعقوب أوصي بنيه باليهودية يوم مات فنزلت :

الآيات من ١٣٣ : ١٣٥.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ أم منقطعة ومعني الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون

(١) روى البيت بتسكين الجيم فى رجلان للتخفيف ومراعاة الوزن

(٢) أي بكسرهمزة إنا فى البيت على أنها واقعة بعد قول مقدر أى قالا والفتح فيها جائز كما ذكره المصنف على حذف الجار وتقديره بإنا . ـ من تعليق محقق الكشاف ـ .

اليهودية عليه ، أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين . وقيل : الخطاب للمؤمنين والمعني ما شهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرئ حضر بالكسر

﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ بدل من إذ حضر . ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ أى : أي شئ تعبدونه ؟ أراد به تقريرهم علي التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم علي الثبات عليهما ، وما يسأل به عن كل شئ ما لم يعرف ، فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن تعيينه ، وإن سئل عن وصفه قيل : ما زيد ؟ أفقيه أم طبيب ؟ .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ المتفق علي وجوده وألوهيته ووجوب عبادته ، وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد ، أو لأنه كالأب لقوله ﷺ : « عم الرجل صنو أبيه » (١) . كما قال ﷺ في العباس رضي الله عنه « هذا بقية آبائي » (٢) . وقرئ إله أبيك ، علي أنه جمع بالواو والنون كما قال :

وَلَما تَبَيَّنَّ أصواتَنا   بكَيْنَ وَفَديننا بالأَ بينا (٣)

أو مفرد وإبراهيم وحده عطف بيان .

﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالي ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾(٤). وفائدته التصريح بالتوحيد ، ونفي التوهم الناشئ من تكرير

---

(١) قال الحافظ بن حجر : متفق عليه من حديث أبى هريرة ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ٢ ص ٧٠ وقال : رواه الترمذي عن على والطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورمز له السيوطى بالحسن .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه والطبرانى فى الأوسط وفى الكبير من حديث ابن عباس .

(٣) الشاهد فيه أن أبين جمع أب ، وجمع جمع مذكر سالما .

والبيت المذكور ذكره الزمخشرى فى الكشاف دون أن ينسبه إلى قائل ، ورواه ابن منظور فى لسان العرب هكذا :

فلما تعرفن أصواتنا   بكين وفديننا بالأبينا

(٤) العلق : ١٦ .

المضاف لتعذر العطف علي المجرور والتأكيد ، أو نصب علي الاختصاص ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ حال من فاعل نعبد ،أو مفعوله ، أو منهما . ويحتمل أن يكون اعتراضا .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما ، والأمة في الأصل المقصود وسمي بها الجماعة ، لأن الفرق تؤمها . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ لكل أجر عمله ، والمعني أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ، كما قال ﷺ : « **لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم** » (١) .

﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب وأو للتنويع، والمعني مقالتهم أحد هذين القولين . قالت اليهود كونوا هودا . وقال االنصاري كونوا نصاري ﴿ تَهْتَدُوا ﴾ جواب الأمر . ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي بل نكون ملة إبراهيم ، أي أهل ملته ، أو بل نتبع ملة إبراهيم ، وقرئ بالرفع أي ملته ملتنا ، أو عكسه ، أو نحن ملته بمعني نحن أهل ملته . ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل إلي الحق . حال من المضاف ، أو المضاف إليه كقوله تعالي ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي

---

(١) ذكره الزمخشرى فى الكشاف وقال الحافظ بن حجر محقق أحاديث الكشاف عنه : لم أجده .

وروى الحافظ المناوى فى كتابه : الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور الحديث الثانى : « يا بنى هاشم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى هاشم إن أوليائى منكم المتقون ، يا بنى هاشم اتقو النار ولو بشق تمرة ، يا بنى هاشم لا ألفينكم تاتون بالدنيا تحملونها علي ظهوركم .

وفى حديث آخر : يا بنى هاشم اشتروا أنفسكم من النار واسعوا فى فكاك رقابكم وافتكوا أنفسكم من الله عز وجل فإنى لا أملك لكم من الله عز وجل شيئا . . ـ الجامع الأزهر جـ٣ ص ١٤٦ ـ .

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم ، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون .

الآيات من ١٣٦ : ١٣٩

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) ﴾

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالي ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ القرآن ، قدم ذكره لأنه أول بالإضافة إلينا ، أو سبب للإيمان بغيره ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ الصحف ، وهي وإن نزلت إلي إبراهيم لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضا منزلة إليهم ، كما أن القرآن منزل إلينا ، والأسباط جمع سبط وهو الحافد ، يريد به حفدة يعقوب ، أو أبناءه وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ التوراة والإنجيل ، أفردهما بالذكر بحكم أبلغ لأن أمرهما بالإضافة إلي موسي وعيسي مغاير لما سبق ، والنزاع وقع فيهما ﴿ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين . ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ منزلا عليهم من ربهم . ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، وأحد لوقوعه في سياق النفي عام فساغ أن يضاف إليه

---

(١) الأعراف : ٤٣ . (٢) البقرة : ١٣٧ .

بين . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ ﴾ اى لله . ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ مذعنون مخلصون .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ من باب التعجيز والتبكيت ، كقوله تعالي ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (١) إذ لا مثل لما آمن به المسلمون ، ولا دين كدين الإسلام . وقيل : الباء للآلة دون التعدية ، والمعني إن تحروا الإيمان لطريق يهدي إلي الحق مثل طريقكم ، فإن وحدة المقصد لا تأبي تعدد الطرق ، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالي ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ (٢) . والمعني فإن آمنوابالله إيمانا مثل إيمانكم به ، أو المثل مقحم كما في قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ (٣) أي عليه ، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به ، أو بالذي آمنتم به .

﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان ، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق ، وهو المناوأة والمخالفة ، فإن كل واحد من المتحالفين في شق غير شق الآخر ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين . ووعد لهم بالحفظ والنصرة علي من ناوأهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إما من تمام الوعد ، بمعني أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة ، أو وعيد للمعرضين ، بمعني أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه .

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ أي صبغنا الله صبغته ، وهي فطرة الله تعالي التي فطر الناس عليها ، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته ، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره ، وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ علي المصبوغ ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب ، أو للمشاكلة ، فإن النصاري كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون : هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم ، ونصبها علي أنه مصدر مؤكد لقوله آمنا ، وقيل علي الإغراء ، وقيل علي البدل من ملة إبراهيم عليه السلام .

---

(١) البقرة : ٢٣ . (٢) يونس : ٢٧ .

(٣) الأحقاف : ١٠ .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ لا صبغة أحسن من صبغته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ تعريض بهم ، أي لا نشرك به كشرككم . وهو عطف علي آمنا ، وذلك يقتضي دخول قوله صبغة الله في مفعول قولوا ولمن ينصبها علي الإغراء ، أو البدل أن يضمر قولوا معطوفا علي الزموا ، أو اتبعوا ملة إبراهيم وقولوا آمنا بدل اتبعوا ، حتي لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ أتجادلوننا . ﴿ فِي اللَّهِ ﴾ في شأنه واصطفائه نبيا من العرب دونكم ، روي أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا ، لو كنت نبيا لكنت منا . فنزلت : ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم . يصيب برحمته من يشاء من عباده . ﴿ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا ، كأنه ألزمهم علي كل مذهب ينتحلونه إفحاما وتبكيتا ، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله علي من يشاء والكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق علي المستعدين لها بالمواظبة علي الطاعة والتحلي بالإخلاص . وكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله في إعطائها ، فلنا أيضا أعمال . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم .

الآيات من ١٤٠ : ١٤٢

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار . وعلي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي

وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادلة للهمزة في أتحاجوننا ، بمعني أي الأمرين تأتون المحاجة ، أو ادعاء اليهودية ، أو النصرانية علي الأنبياء ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ وقد نفي الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾[١] واحتج عليه بقوله ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ ﴾[٢] . وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقا . ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفة والبراءة من اليهودية والنصرانية ، والمعني لا أحد أظلم من أهل الكتاب ، لأنهم كتموا هذه الشهادة . أو منا لو كتمنا هذه الشهادة ، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وغيرها ، ومن للابتداء كما في قوله تعالي ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[٣] . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم ، وقرئ بالياء .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم . وقيل : الخطاب فيما سبق لهم ، وفي هذه الآية لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم . وقيل : المراد بالأمة في الأول الأنبياء ، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصاري .

تحويل القبلة

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ الذين خفت أحلامهم ، واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر . يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين . وفائدة تقديم الإخبار به توطين النفس وإعداد الجواب وإظهار المعجزة . ﴿ مَا وَلَّاهُمْ ﴾ ما صرفهم . ﴿ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ يعني بيت المقدس ،

---

(١) آل عمران : ٦٧ .
(٢) آل عمران : ٩٥ .
(٣) التوبة : ١ .

والقبلة في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال ، فصارت عرفا للمكان المتوجه نحوه للصلاة ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه ، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة ، وتقتضيه المصلحة من التوجه إلي بيت المقدس تارة ، والكعبة أخري .

الآيتان من ١٤٣ : ١٤٤

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

الأمة الوسط

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلي مفهوم الآية المتقدمة ، أي كما جعلناكم مهديين إلي الصراط المستقيم ، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل . ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خيرا ، أو عدولا مزكين بالعلم والعمل . وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب ، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ، كالجود بين الإسراف والبخل ، والشجاعة بين التهور والجبن ، ثم أطلق علي المتصف بها ، مستويا فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها ، واستدل له علي أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم .

﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ علة للجعل ،

أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج ، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالي ما بخل علي أحد وما ظلم ، بل أوضح السبل وأرسل الرسل ، فبلغوا ونصحوا . ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء علي اتباع الشهوات ، والإعراض عن الآيات ، فتشهدون بذلك علي معاصريكم وعلي الذين من قبلكم ، أو بعدكم . روي « **أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء فيطالبهم الله ببينة التبليغ - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة علي المنكرين ، فيؤتي بأمة محمد ﷺ فيشهدون ، فتقول الأمم من أين عرفتم ؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالي في كتابه الناطق علي لسان نبيه الصادق ، فيؤتي بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته . فيشهد بعدالتهم** » (١) وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن علي أمته عدي بعلي ، وقدمت الصلة للدلالة علي اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم .

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا** ﴾ أي الجهة التي كنت عليها ، وهي الكعبة فإنه ﷺ كان يصلي إليها بمكة ، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلي الصخرة تألفا لليهود . أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما (**كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها**) (٢) فالمخبر به علي الأول الجعل الناسخ ، وعلي الثاني المنسوخ . والمعني أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس .

﴿ **إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ إلا لنمتحن به الناس ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها ، ممن يرتد عن دينك إلفا لقبلة آبائه . أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه ، وما كان لعارض يزول بزواله . وعلي الأول

---

(١) أخرجه الطبرى عن زيد بن أسلم موقوفا ، وأخرجه النسائى من قول السدى أيضا ، وفى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى فى تفسير سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ .

ورواه ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى سعيد رضى الله عنه .

(٢) أخرجه ابن إسحاق وابن سعد والبزار والطبرانى من رواية مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما .

معناه: ما رددناك إلي التي كنت عليها ، إلا لنعلم الثابت علي الإسلام ممن ينكص علي عقبيه لقلقه وضعف إيمانه ، فإن قيل: كيف يكون علمه تعالي غاية الجعل وهو لم يزل عالما ؟. قلت : هذا وأشباهه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء ، والمعني ليتعلق علمنا به موجودا . وقيل : ليعلم رسوله والمؤمنون لكنه أسنده إلي نفسه لأنهم خواصه ، أو لتميز الثابت من المتزلزل كقوله تعالي ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (١) فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه ، ويشهد له قراءة ليعلم علي البناء للمفعول ، والعلم إما بمعني المعرفة ، أو معلق لما في من من معني الاستفهام ، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب ، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب .

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إن هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفاصلة . وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعني إلا . والضمير لما دل عليه قوله تعالي ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ (٢) من الجعلة ، أو الردة ، أو التولية ، أو التحويلة ، أو القبلة . وقرئ لكبيرة بالرفع فتكون كان زائدة .

﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ إلي حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم علي الإيمان . وقيل : إيمانكم بالقبلة المنسوخة ، أو صلاتكم إليها لما روي « أنه عليه الصلاة والسلام لما وجه إلي الكعبة قالوا : كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا؟ (٣) » فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجرهم ولا يدع صلاحهم ، ولعله قدم الرءوف وهو أبلغ محافظة علي الفواصل وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص لرءوف بالمد ، والباقون بالقصر .

﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ ربما نري ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردد وجهك في جهة

---

(١) الأنفال : ٣٧ .   (٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي ، وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

السماء تطلعا للوحي ، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلي الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأقدم القبلتين وأدعي للعرب إلي الإيمان ، ولمخالفة اليهود ، وذلك يدل علي كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ فلنمكننك من استقبالها من قولك : وليته كذا ، إذا صيرته واليا له ، أو فلنجعلنك تلي جهتها ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ تحبها وتتشوق إليها ، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته .

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ اصرف وجهك . ﴿ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ نحوه . وقيل : الشطر في الأصل لما انفصل عن الشئ من شطر إذا انفصل ، ودار شطور : أي منفصلة عن الدور ، ثم استعمل لجانبه ، وإن لم ينفصل كالقطر ، والحرم المحرم أي محرم فيه القتال، أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه ، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأنه ﷺ كان في المدينة ، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب . روي « أنه ﷺ قدم إلي المدينة ، فصلي نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم وجه إلي الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين ، وقد صلي بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر ، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب ، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم ، فسمي المسجد مسجد القبلتين .

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ خص الرسول بالخطاب تعظيما له وإيجابا لرغبته ، ثم عمم تصريحا بعموم الحكم وتأكيدا لأمر القبلة وتحضيضا للأمة علي المتابعة .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ جملة لعلمهم بأن عادته تعالي تخصيص كل شريعة بقبلة ، وتفصيلا لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلي قبلتين ، والضمير للتحويل أو التوجه .

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ وعد ووعيد للفريقين . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالياء .

الآيات من ١٤٥ : ١٤٧

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ برهان وحجة علي أن الكعبة قبلة، واللام موطئة للقسم ﴿ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ جواب للقسم المضمر ، والقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط ، والمعني ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها بالحجة ، وإنما خالفوك مكابرة وعنادا .

﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ قطع لأطماعهم ، فإنهم قالوا : لو ثبت علي قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره ، تغريرا له وطمعا في رجوعه ، وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق .

﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة ، والنصاري مطلع الشمس . لا يرجي توافقهم كما لا يرجي موافقتهم لك ، لتصلب كل حزب فيما هو فيه .

تهديد المائلين إلي اليهود ومن شاكلهم

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ علي سبيل الفرض والتقدير ، أي : ولئن اتبعتهم مثلا بعدما بان لك الحق وجاءك فيه الوحي .

﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وأكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه :

أحدها : الإتيان باللام الموطئة للقسم : **ثانيها** : القسم المضمر .

ثالثها : حرف التحقيق وهو إن . **رابعها** : تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية .

وخامسها : الإتيان باللام في الخبر .

وسادسها : جعله من الظالمين ، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاما بحصول أنواع الظلم . **وسابعها** : التقييد بمجئ العلم تعظيما للحق المعلوم ، وتحريضا علي اقتفائه وتحذيرا عن متابعة الهوي ، واستفظاعا لصدور الذنب عن الأنبياء .

﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ يعني علماءهم ﴿ **يَعْرِفُونَهُ** ﴾ الضمير لرسول الله ﷺ ، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه ، وقيل للعلم ، أو القرآن ، أو التحويل ﴿ **كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ يشهد للأول : أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم . عن عمر رضي الله تعالي عنه (**أنه سأل عبد الله بن سلام رضي الله تعالي عنه ، عن رسول الله ﷺ فقال : أنا أعلم به مني بابني قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت**) .

﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن .

﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** ﴾ كلام يستأنف ، والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد ، والإشارة إلي ما عليه الرسول ﷺ ، أو الحق الذي يكتمونه ، أو للجنس . والمعني أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالي كالذي أنت عليه لا مالم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب ، وإما خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق . ومن ربك حال ، أو خبر بعد خبر . وقرئ بالنصب علي أنه بدل من الأول ، أو مفعول يعلمون ﴿ **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ الشاكين في أنه من ربك ، أو في كتمانهم الحق عالمين به ، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه ، لأنه غير متوقع منه وليس بقصد واختيار ، بل إما تحقيق الأمر وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر ، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك علي الوجه الأبلغ .

الآيات من ١٤٨ : ١٥٠

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ ولكل أمة قبلة ، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة ، والتنوين بدل الإضافة ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أحد المفعولين محذوف ، أي هو موليها وجهه ، أو الله تعالي موليها إياه . وقرئ ولكل وجهة بالإضافة ، والمعني وكل وجهة الله موليها أهلها ، واللام مزيدة للتأكيد جبرا لضعف العامل . وقرأ ابن عامر : مولاها أي وهو مولي تلك الجهة أي قد وليها ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين ، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامته للكعبة .

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي : في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف ، مجتمع الأجزاء ومفترقها ، يحشركم الله إلي المحشر للجزاء ، أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال ، يقبض أرواحكم ، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة ، يأت بكم الله جميعا ويجعل صلواتكم كأنها إلي جهة واحدة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر علي الإماتة والإحياء والجمع .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إذا صليت ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن هذا الأمر ﴿ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله ، فإنه تعالي ذكر للتحويل ثلاث علل . تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته ، وجري العادة الإلهية علي أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها . ودفع حجج المخالفين علي ما نبينه . وقرن بكل علة معلولها كما يقرن المدلول بكل واحد من دلائله تقريبا وتقريرا ، مع أن القبلة لها شأن . والنسخ من مظان الفتنة والشبهة فبالحري أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخري .

﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ علة لقوله فولوا ، والمعني أن التولية عن الصخرة إلي الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة ، وأن محمدا يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا . والمشركين بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ استثناء من الناس ، أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم بأنهم يقولون ، ما تحول إلي الكعبة إلا ميلا إلي دين قومه وحبا لبلده ، أو بدا له فرجع إلي قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلي دينهم . وسمي هذه حجة كقوله تعالي ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [١] لأنهم يسوقونها مساقها . وقيل الحجة بمعني الاحتجاج . وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأسا كقوله :

ولا عَيْبَ فيهمْ غَيرَ أَنَّ سُيُوفَهمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائبِ [٢] .

للعلم بأن الظالم لا حجة له ، وقرئ : ألا الذين ظلموا منهم . علي أنه استئناف بحرف التنبيه . ﴿ فَلا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فلا تخافوهم ، فإن مطاعنهم لا تضركم . ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به . ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علة محذوف أي وأمرتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم، أو عطف علي علة مقدرة مثل : واخشوني لأحفظكم منهم ولأتم

---

(١) الشوري : ١٦

(٢) البيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها الغساسنة مطلعها :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب .

والبيت الذى ذكره المصنف يعرف عند علماء البلاغة بانه من أساليب المدح التى تشبه الذم .

نعمتي عليكم ، أو لئلا يكون وفي الحديث « **تمام النعمة دخول الجنة** » (١) . وعن علي رضي الله تعالي عنه « **تمام النعمة الموت علي الإسلام** » (٢) .

الآيات من ١٥١ : ١٥٥

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾

﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ** ﴾ متصل بما قبله ، أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة ، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم ، أو بما بعده أي كما ذكرتكم بالإرسال فاذكروني . ﴿ **يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ** ﴾ يحملكم علي ما تصيرون به أزكياء ، قدمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿ **وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ بالفكر والنظر ، إذ لا طريق إلي معرفته سوي الوحي ، وكرر الفعل ليدل علي أنه جنس آخر .

﴿ **فَاذْكُرُونِي** ﴾ بالطاعة . ﴿ **أَذْكُرْكُمْ** ﴾ بالثواب ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي** ﴾ ما أنعمت به عليكم . ﴿ **وَلا تَكْفُرُونِ** ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ** ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس ،

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغيروقال رواه أحمد والبخاري في الأدب والترمذي عن معاذ ورمز له السيوطي بالصحة والحسن .

(٢) قال الحافظ بن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : رواه أحمد والترمذي والبزار من حديث معاذ رضي الله عنه .

﴿ وَالصَّلاةِ ﴾ التي هي أم العبادات ، ومعراج المؤمنين ، ومناجاة رب العالمين .
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ﴾ أي هم أموات ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ أي بل هم أحياء .

﴿ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ ما حالهم ، وهو تنبيه علي أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات ، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بالوحي ، وعن الحسن (**إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم علي أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح ، كما تعرض النار علي أرواح آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع**) .

والآية نزلت في شهداء بدر ، وكانوا أربعة عشر ، وفيها دلالة علي أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقي بعد الموت داركة ، وعليه جمهور الصحابة والتابعين ، وبه نطقت الآيات والسنن ، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالي ، ومزيدة البهجة والكرامة .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم ، هل تصبرون علي البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلله بالإضافة إلي ما وقاهم منه ليخفف عليهم ، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلي ما يصيب به معانديهم في الآخرة ، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ عطف على شئ ، أو الخوف .

وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف : خوف الله . والجوع : صوم رمضان : من الأموال الصدقات والزكوات ، ومن الأنفس : الأمراض ، ومن الثمرات موت الأولاد . وعن النبي ﷺ « **إذا مات ولد العبد قال الله تعالي للملائكة : أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم ، فيقول الله : أقبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولو ن نعم ، فيقول الله تعالي : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون حمدك واسترجع ، فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد** .[1] ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، وأخرجه أحمد وغيره من حديث وصححه ابن حبان ورواه البيهقى فى الشعب مرفوعا وموقوفا ـ من تعليق محقق الكشاف ـ .

الآيات من ١٥٦ : ١٥٨

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ . أو لمن تتأتي منه البشارة . والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه ، لقوله ﷺ : « **كل شئ يؤذي المؤمنين فهو له مصيبة** » .

وليس الصبر بالاسترجاع باللسان ، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله ، وأنه راجع إلي ربه ، ويتذكر نعم الله عليه ليري أن ما بقي عليه أضعاف ما استرده منه فيهون علي نفسه ، ويستسلم له . والمبشر به محذوف دل عليه .

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء ، ومن الله تعالي التزكية والمغفرة . وجمعها للتنبيه علي كثرتها وتنوعها . والمراد بالرحمة اللطف والإحسان . وعن النبي ﷺ « **من استرجع عند المصيبة ، جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه ، وجعل له خلفا صالحا يرضاه** »(١) ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالي .

حكم السعي بين الصفا والمروة

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﴾ هما علما جبلين بمكة . ﴿ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام مناسكه ، جمع شعيرة وهي العلامة . ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ الحج لغة القصد ، والاعتمار الزيارة . فغلبا شرعا علي قصد البيت وزيارته علي الوجهين المخصوصين . ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ كان إساف علي الصفا ونائلة

(١) أخرجه الطبري والطبراني والبيهقى فى الشعب من رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس .

علي المروة ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما . فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينما لذلك، فنزلت . والإجماع علي أنه مشروع في الحج والعمرة ، وإنما الخلاف في وجوبه . فعن أحمد أنه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ (١) فإنه يفهم منه التخيير وهو ضعيف ، لأن نفي الجناح يدل علي الجواز الداخل في معني الوجوب ، فلا يدفع . وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالي أنه واجب ، يجبر بالدم . وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنه ركن لقوله ﷺ « **اسعوا فإن الله كتب عيكم السعي** ».

﴿ **وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً** ﴾ أي فعل طاعة فرضا كان أو نفلا ، أو زاد علي ما فرض الله عليه من حج أو عمرة ، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة .. وخيرا نصب علي أنه صفة مصدر محذوف ، أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه ، أو بتعدية الفعل لتضمنه معني أتي أو فعل . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ، وأصله يتطوع فأدغم مثل يطوف ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ مثيب علي الطاعة لا تخفي عليه .

الآيات من ١٥٩ : ١٦٣

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)** ﴾

عقاب كتم العلم

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ** ﴾ كأحبار اليهود . ﴿ **مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ** ﴾ كالآيات الشاهدة علي أمر محمد ﷺ . ﴿ **وَالْهُدَىٰ** ﴾ وما يهدي إلي وجوب اتباعه

(١) البقرة : ١٥٨ .

والإيمان به . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه . ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة . ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي الذين يتأتي منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ما أفسدوا بالتدارك . ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتهم . وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحوا به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابهم ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ بالقبول والمغفرة . ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكاتمين حتي مات ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ استقر عليهم اللعن من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه . وقيل : الأول لعنهم أحياء ، وهذا لعنهم أمواتاً . وقرئ والملائكة والناس أجمعون عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعني ، كقولك أعجبني ضرب زيدٍ وعمرو ، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة ، أو النار . وإضمارها قبل الذكر تفخيما لشأنها وتهويلاً ، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليها . ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتذروا ، أولا ينظر إليهم نظر رحمة .

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ خطاب عام ، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد أو يسمي إلهاً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية ، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة . ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها ، فإنه لما كان مولي النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره ، وهما خبران آخران لقوله إلهكم ، أو لمبتدأ محذوف . قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا : إن كنت صادقاً فائت بآية نعرف بها صدقك فنزلت .

الآيه ١٦٤

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

العقل طريق الهداية إلى الله

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إنما جمع السموات وأفرد الأرض ، لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين . ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ تعاقبهما كقوله تعالي :﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ (١) ﴿ وَالْفُلْكِ

---

(١) الفرقان : ٦٢ .

* الإعجاز العلمى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

هذه الآية من الآيات التي تحتوي علي أكثر من موضوع للبحث العلمي

علم الفلك ﴿ خلق السموات والأرض ﴾

علم البحار ﴿ والفلك التي تجري ﴾

علم الزراعة ﴿ فأحيا به الأرض ﴾

علم الحيوان ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾

علم الأرصاد الجوية ﴿ وتصريف الرياح والسحاب ﴾

وهذا مثال من أمثلة عديدة يضفي علي القرآن بوجه عام إعجازا علميا ولاسيما عند اتساق معاني الكلمات بصورة توهم الشخص أنها تتناول موضوعا واحدا فإذا تأملها وجدها تشتمل علي أكثر من علم وهذا ما يعجب منه علماء البلاغة والتفسير .

الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ أي ينفعهم ، أو بالذي ينفعهم ، والقصد به الي الاستدلال بالبحر وأحواله ، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب ، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر ، وتأنيث الفلك لأنه بمعني السفينة . وقرئ بضمتين على الأصل ، أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين . ﴿ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ** ﴾ من الأولى للإبتداء ، والثانية للبيان . والسماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو . ﴿ **فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ بالنبات ﴿ **وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾ عطف علي أنزل ، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض ، أو على أحيا فإن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث النشر والتفريق . ﴿ **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ** ﴾ في مهابها وأحوالها ، وقرأ حمزة والكسائي على الإفراد . ﴿ **وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ لا ينزل

*** الإعجاز العلمي**

يقرر العلم الحديث أن طول كل من الليل والنهار يختلف باستمرار علي مدار السنة وأن هذا الاختلاف في التوقيت يرجع إلي دوران الأرض حول الشمس وحول محورها المائل علي مداره بمقدار ٢٣,٥ ° مما يجعل الليل يطول أو يقصر حسب تعامد الشمس علي المكان أو ميلها عنه وهذه الظاهرة مرتبطة بدوران الأرض حول الشمس وهي عملية قدرها الله تقديرا دقيقا غاية الدقة فالأرض تدور مرة حول محورها في أربع وعشرين ساعة بسرعة ألف ميل في الساعة ولو انخفضت هذه السرعة لطال الليل ولو توقفت الأرض عن الدروان لظل وجه الأرض كله ليلا والوجه الآخر كله مسلطة عليه أشعة الشمس وهذا يسبب عدم توازن حراري علي سطح الأرض يقتل الكائنات وتفسد الحياة من شدة حرارة هنا وشدة برودة هناك فسبحان من جعل اختلاف الليل والنهار لمصلحة الكائنات والحياة علي الأرض .

وورد ذكر الماء صراحة في القرآن الكريم في ٦٥ آية فضلا عن الآيات التي ذكرت الماء ضمنيا عند الحديث عن الرياح والأمطار والأنهار والبحار مما يؤكد أهمية هذه النعمة الإلهية.

هكذا يقول الدكتور منصور محمد حسب النبي أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس =

ولا ينقشع ، مع أن الطبع يقتضي أحدهما حتي يأتي أمر الله تعالي . وقيل : مسخر الرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله تعالى ، واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجر بعضاً.

﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم ، وعنه ﷺ « ويل لمن قرأ هذه فمج بها » أي لم يتفكر فيها .

واعلم أن دلالة هذه الآية على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً ، والكلام المجمل أنها : أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة ، وأنحاء مختلفة ، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعكس حركاتها ، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين ، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً ، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها ، فلا بد لها من موجد قادر حكيم ، يوجدها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته ، متعالياً عن معارضة غيره . إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر . فإن توافقت إرادتهما : فالفعل إن كان لهما ، لزم اجتماع مؤثرين علي أثر واحد ، وإن كان لأحدهما ، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح

* الإعجاز العلمي

ورئيس الجمعية المصرية للإعجاز العلمي للقرآن مضيفا : ثبت علميا أن أصل جميع الكائنات الحية في الماء وأنها جميعا تتركب أساسا من الماء سواء الأميبا صاعدا إلي السمك والحشرات وذوات الثدي والطيور والقرود ، والإنسان أو نازلا إلي الجرثومة ، والميكروب والبكتيريا فما أعظم التوافق والتطابق بين العلم والقرآن في قوله تعالي ﴿ وجعلنا من الماء كل شيئ حي أفلا يؤمنون ﴾ .

إن الحياة تستحيل بدون الماء، بل إن جسم الإنسان يتكون من ٧٥٪ من الماء والباقي بروتينات ونشويات وأملاح من طين الأرض ونحن والحيوانات نتغذي علي النبات من طين الأرض وصدق الحق تبارك وتعالي ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ وهكذا يتضح أن الطين والماء هما أصل كل شيء حي ، بل وكل إنسان لافرق بين عربي وعجمي.

وأثبت علماء الجيولوجيا أن كل ماء الأرض خرج من باطنها (وليس من السماء) وذلك بعد مليار سنة من بدء نشأتها في ثورات بركانية وجيولوجية عارمة دامت ملايين السنين

وعجز الآخر المنافي لآلهيته . وإن اختلفت : لزم التمانع والتطارد ، كما أشار إليه بقوله تعالي : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) . وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله ، وحث على البحث والنظر فيه (٢) .

(١) الأنبياء: ٢٢ .

(٢) جاء فى المنتخب من التفسير ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : سبقت هذه الآية ما قرره العلم من أن الكون المرئى يعج بأجرام سماويةوتوجه الآية نظر الإنسان إلى ما فى الوجود من حقائق علمية ، ينطوى تحتها خلق أجرام السماء المتباينة ، والنظم التي تحكمها والأفلاك التي تسير فيها ، وكذلك دوران الأرض حول محورها مما يسبب تتابع الليل والنهار ، ثم تشير الآية إلى المواصلات المائية على الأرض وإلى الماء الذى ينزل من السماء فى دورات متتابعة تبدأ بتبخر ماء البحر ، ثم تكاثفه ، ثم هطوله ، وهو ما يسبب الحياة على الأرض وكذلك تشير الآية إلى الرياح ودورانها وأن الدارس لهذه الحقائق العلمية لا بد أن يلمس قدرة الله تعالى . ـ المنتخب من التفسير ص ٣٦ ـ .

* الإعجاز العلمي

= ولاتزال بعض البراكين تلفظ الماء من جوف الأرض حتي الآن ولقد ظهرت الحياة وحيدة الخلية في مياه البحار الأولية علي شكل طحالب خضراء وبكتيريا منذ ٣,٥ مليار سنة وكان الماء يغطي كل سطح الأرض ثم ظهرت اليابسة وبقي ثلاثة أرباع سطح الأرض مغطي بالماء واستقر هذا الوضع منذ مليار سنة وصدق تعالي بقوله سبحانه.

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ النازعات ٣٠ : ٣٣

فتأمل عبارة (أخرج منها) التي تدل علي أن الغلاف الجوي والمائى والمرعي خرجوا من جوف الأرض حين بردت قشرتها ، ولقد أثبت العلم ذلك بالقياسات الذرية والطيفية والأرض في القرآن هي الكوكب المحتوي علي الماء وبالتالي العامر بالحياة ولهذا ينسب الماء للأرض كما في الآية السابقة وأيضا في قوله تعالي ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ ولقد شاءت إرادة الله أن تعمل الدورة الهيدرولوجية التي تتبخر فيها المياه من البحار المالحة لتتحول إلي أمطار عذبة تسقط علي الجبال العالية لتجري في الأنهار التي تصب في البحار ، وهكذا تستمر الدورة التي تعمل بحرارة الشمس كسراج وهاج يربط الله بينه وبين المطر في إعجاز علمي قرآني.

إحياء الأرض الميتة:

أثبت العلم الحديث أن التراب منذ أن بدأت الحياة علي الأرض عبارة عن وجود حيوي للنبات لأن في التراب بكتيريا النتروجين التي تأخذ النيتروجين من الهواء وتحوله إلي

الآيات من ١٦٥ : ١٦٨

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) ﴾

حب المؤمنين لربهم

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ من الأصنام . وقيل من الرؤساء الذي كانوا يطيعونهم لقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾(١) ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعظمونهم ويطيعونهم ﴿ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته ، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة ، والمحبة : ميل القلب من الحب ، استعير لحبة القلب ، ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها ، ومحبة العبد لله تعالي إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة ، وصونه عن المعاصي . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى،

(١) البقرة : ١٦٦

*** الإعجاز العلمي**

مركبات بقيم سالبة وتحوله إلي مواد مستعدة للاتحاد مع الهيدروجين ولهذا السبب تكون بحاجة إلي الماء أو المطر هذا بخلاف مجموعة أخري من البكتريا التي تتولي تحليل كل ما يقع في التراب إلي مكوناته الأصلية التي يحتاجها النبات . وهذا هو سبب مشاهدتنا إحياء الأرض الميتة بالمطر .

بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدني سبب ، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالي عند الشدائد ، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره .

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ولو يعلم هؤلاء الذي ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ عاينوه يوم القيامة . وأجري المستقبل مجري الماضي لتحققه كقوله تعالي ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ (١) .

﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ ساد مسد مفعولي يري ، وجواب لو محذوف . أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم . وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان ، والتقدير ، ولو يري الذين ظلموا أندادهم لا تنفع ، لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره . وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب : ولو تري على أنه خطاب للنبي ﷺ ، أي ولو تري ذلك لرأيت أمراً عظيماً ، وابن عامر : إذ يرون على البناء للمفعول ، ويعقوب إن بالكسر وكذا ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ على الاستئناف ، أو اضمار القول .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ بدل من إذ يرون ، أي إذ تبرأ المتبوعون من الأتباع . وقرىء بالعكس ، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي رائين له ، والواو للحال ، وقد مضمرة . وقيل : عطف علي تبرأ ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ يحتمل العطف على تبرأ ، أو رأو والواو للحال ، والأول أظهر . والأسباب : الوصل التي كانت بينهم من الاتباع والاتفاق على الدين ، والأغراض الداعية إلي ذلك . وأصل السبب : الحبل الذي يرتقي به الشجر. وقرئ وتقطعت على البناء للمفعول .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ لو للتمني ولذلك أجيب بالفاء ، أي ليت لناكرة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الآراء الفظيع . ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ندامات ، وهي ثالث

---

(١) الأعراف : ٤٤ .

مفاعيل يري إن كان من رؤية القلب وإلا فحال ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ أصله وما يخرجون ، فعدل به إلى هذه العبارة ، للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا .

الدعوة إلى الأكل الحلال

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً ﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ، وحلالاً مفعول كلوا ، أو صفة مصدر محذوف ، أو حال مما في الأرض ومن للتبعيض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿ طَيِّبًا ﴾ يستطيبه الشرع ، أو الشهوة المستقيمة . إذ الحلال دل على الأول . ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والبزي وأبو بكر حيث وقع بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة ، وهي ما بين قدمي الخاطي . وقرئ بضمتين وهمزة جعلت ضمة الطاء كأنها عليها، وبفتحين على أنه جمع خطوة وهي المرة من الخطو ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالاة لمن يغويه ، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ (١) .

الآيات من ١٦٩ : ١٧٢

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ بيان لعداوته ، ووجوب التحرز عن

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .

متابعته . واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم ، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل واستقبحه الشرع ، والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به ، وفحشاء باستقباحه إياه . وقيل : السوء يعم القبائح ، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر وقيل : الأول ما لا حد فيه ، والثاني ما شرع فيه الحد ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات ، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً . وأما اتباع المجتهد لما أدي إليه الظن مستند إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي ، والظن في طريقه كما بيناه في الكتب الأصولية .

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ الضمير للناس ، وعدل بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم ، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم : انظروا إلى هؤلاء الحمقي ماذا يجيبون . ﴿ **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ ما وجدناهم عليه . نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج والآيات ، فجنحوا إلى التقليد . وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيرا منا وأعلم . وعلي هذا فيعم ما أنزل الله التوراة لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام .

﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ الواو للحال ، أو العطف . والهمزة للرد والتعجيب . وجواب لو محذوف أي لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين ، ولا يهتدون إلى الحق لا تبعوهم . وهو دليل علي المنع من التقليد لمن قدر علي النظر والاجتهاد . وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليده بل اتباع لما أنزل الله .

﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً** ﴾ على حذف مضاف تقديره : ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق . والمعني أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلي ما يتلي عليهم ، ولا يتأملون فيما يقرر معهم ، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه ، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه .

وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها ، بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته . أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام ، بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم ، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء ، لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ رفع على الذم . ﴿ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ لما وسع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوي ما حرم عليهم ، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ علي ما رزقكم وأحل لكم . ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة ، وتقرون أنه مولي النعم ، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر . فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه ، وهو عدم عند عدمه . وعن النبي ﷺ «**يقول الله تعالي إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري**[1]» .

الآيات من ١٧٣ : ١٧٥

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ﴾

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ [2] أكلها ، أو الانتفاع بها . وهي التي ما تت

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من رواية بقية من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

(٢) جاء في المنتخب من التفسير: سبق القرآن الكريم الطب الحديث بتحريم الميتة ، لأن ما

من غير ذكاة . والحديث ألحق بها ما أبينَ من حي . والسمك والجراد أخرجهما العرف عنها ، أو استثناه الشرع . والحرمة المضافة إلي العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل ، كالتصرف في المدبوغ . ﴿ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ إنما خص اللحم بالذكر ، لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتبع له . ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي رفع به الصوت عند ذبحه للصنم . والإهلال أصله رؤية الهلال ، يقال : أهل الهلال وأهللته . لكن لما جرت العادة أن

يموت بشيخوخة أو مرض يكون موته بسبب مواد سامة ضارة تصل إلى من يأكله وفوق ذلك فإن الموت بالاختناق أو المرض ينحبس فيه الدم ، وفيه مواد ضارة كثيرة يشتمل عليها العرق والبول ، والخنزير ينقل الأمراض الخطيرة مثل التنيا كما أنه الحيوان الوحيد الذى يصاب بالتركينا التي تصيب آكله إذا أكله . ـ المنتخب من التفسير ص ٤٨٧ ـ .

* الإعجاز العلمى

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

الإسلام حرم لحم الميتة منذ أكثر من خمسة عشر قرنا وذلك :

أن جسم الميتة يحتبس فيه الدم بكل رواسبه وسمومه وقد يتخلل الأنسجة اللحمية وتعمل فيه السموم وهذا سبب اكتساب الميتة للون الداكن.

وتتوقف الدورة الدموية دون أن يتسرب شيء من الدم إلي خارج الجسم فتصبح الميتة كلها بؤرة فساد ومجمعا للميكروبات .

وكذلك حرم الدم ولنستعرض ما قاله الأستاذ الدكتور / عفيفي محمود الأستاذ بكلية العلوم جامعة المنصورة عن الدم:

قال تعالي ﴿ قل لاأجد فيما أوحي إلي محرما علي طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا ﴾ الأنعام ١٤٥

*** من خصائص الدم أنه بمجرد خروجه من العروق وتعرضه للجو تحدث فيه تغيرات خطيرة أهمها :**

يرفع الصوت بالتكبير إذا رُئي سمي ذلك إهلالاً ، ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره. ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ بالاستيثار على مضطر آخر . وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر النون . ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ سد الرمق ، أو الجوعة . وقيل : غير باغ على الوالي ، ولا عاد بقطع الطريق . فعلي هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالي . ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ في تناوله .

* الإعجاز العلمي

= أنه يفقد خواصه المناعية بسبب موت ما فيه من الخلايا المضادة للميكروبات (دون تعرضها لانفصال الدم عن مصدر توليد هذه الخلايا في الجسم الحي) وبذلك يخلو الميدان للميكروبات (وبعضها موجود في تيار الدم كجبهة حرب داخلية) وتفتح جبهة جديدة للغزو الميكروبي من الخارج وتتغذي الميكروبات من الجبهتين علي مكونات الدم وتتكاثر بسرعة فتتحول كل نقطة دم إلي مزرعة كثيفة لأنواع الميكروبات المختلفة المسببة للأمراض والمفرزة للسموم.

والتغير الخطير الثاني الناتج عن سفح الدم هو التخثر (أو التجلط) وهو يحدث نتيجة لتوقف فاعلية ماكان يحويه الدم في تياره من مواد مانعة للتجلط ومن ناحية أخري لتولد المود البادئة لأول حلقة في سلسلة التفاعلات التي تؤدي إلي تكوين الجلطة.

* ونتيجة لهذه التغيرات فإن مكونات الدم (وهي في الأصل خلاصات غذائية نافعة وخلايا من البروتوبلازم وهو مادة الحياة) هذه المكونات النافعة تتحول إلي مركبات عضوية ضارة تغذويا (حتي بعد هضمها) لأنها بالتحلل أولا و بالهضم ثانيا تصبح مواد غريبة حتي عن جسم صاحبها . فإذا دخلت تيار الدم (سواء مباشرة عن طريق من الأمعاء) فإن الدم يعاملها كبروتينات غريبة بل قد يكون لها نفس تأثير الميكروبات المسببة للأمراض (حتي لو تم تعقيم الدم المسفوح تماما من الميكروبات) .

* أما الدم الجاري في العروق فمعروف أنه (ماء الحياة) إذ أنه يحمل في تياره بل وفي مكوناته ذاتها - كل مقومات الحياة بناء وأداء ...وهو يحتفظ بكل صلاحياته هذه.أو بمعظمها - مالم يتعرض للهواء أوالمسببات التلوث الميكروبي أو التجلط وهذه هي الاحتياطات التي تتوافر في بنوك الدم وفي حجرات العناية المركزة حيث تجري عمليات نقل الدم بنجاح - مادام الشخص الواهب (المتبرع بالدم) خاليا من الميكروبات المسببة =

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فعل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالرخصة فيه . فان قيل : إما تفيد قصر الحكم علي ما ذكر وكم من حرام لم يذكر . قلت : المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً ، أو قصر حرمته على حال الاختيار كانه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها .

* الإعجاز العلمي

للأمراض ومادامت فصيلته متوافقة بيولوجيا مع فصيلة دم المتلقي (المريض الذي ينقل إليه الدم) .

* وفي ضوء هذه الحقائق الثابتة يتضح لنا الفرق الشاسع بين الدم الجاري في العروق وبين الدم المسفوك (أوالمسفوح طبقا للنص القرآني) .. ونمسك بأيدينا السند العلمي لما اتخذته الشرائع السماوية والإسلام اكملها - أساسا لاعتبار الدم المسفوح من الخبائث (ومن ثم من المحرمات)

كما يتضح لنا جانب مهم من جوانب الإعجاز العلمي والدقة البيانية للقرآن (وهو المهيمن علي ما سبقه من الكتب السماوية) وذلك في الآية ١٤٥ من سورة الأنعام : الذي بدأنا بها مقالنا وأرجو أن نضع خطا أو أكثر تحت كلمة ﴿ طاعم يطعمه ﴾ لنستبين الفرق بين ما هو محرم شرعا وهو تناول الدم كطعام وما هو مباح شرعا وهو نقل الدم من العروق إلي العروق دون أن يمر في الجهاز الهضمي (وهو المسار المألوف لمرحلة الطعام من الفم إلي الدم) وخطا تحت كلمة (مسفوحا، لنستشعر التغييرات التي تحدث للدم إذا أريق وتعرض للوسط الخارجي.

ولا يفوتنا .. قبل أن نختم الحديث أن نذكر حقائق علمية أخري متعلقة بنفس الموضوع تبين في ضوئها صدق رسالة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم الذي لاينطق عن الهوي.. فمن المأثور عنه صلي الله عليه وسلم أنه أباح لامته أكل الكبد والطحال وهما من أغني أعضاء الجسم بالدم .. بل إن الدم بالفعل يتكون فيهما ويختزن بحيث لانكون مبالغين إذاقلنا إن الكبد والطحال هما بالفعل مصانع حية لانتاج الدم ، وادخاره بطرق تفوق كل ما توصلت إليه بنوك الدم العالمية حتي عصرنا هذا من حيث ضمان بقاء الدم نقيا من التلوث خاليا من مسببات التجلط بل إن الدم المختزن في الجيوب الكبدية أو فجوات النسيج الشبكي للطحال تفوق علي الدم المحفوظ في بنوك الدم نقاء لأنه دم حديث التكون لم

عقاب كاتم العلم ومحرق الكتاب

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ عوضاً حقيراً . ﴿ أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾ إما في الحال ، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار كقوله :

أَكَلْتُ دَماً إِنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضرةٍ بَعِيدة مَهوي القِرطِ طيبة النَّشر (١)

يعني الدية . أو في المآل أي لا يأكلون يوم القيامة إلا النار . ومعني في بطونهم: ملء بطونهم . يقال أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه كقوله :

كُلوا في بَعضِ بَطنِكُمُو تُعفُوا

(١) هذا البيت لأعرابي تزوج امرأة فلم توافقه ، فقيل لها : إن حمى دمشق سريعة فى موت النساء فقال :

دمشق خذيها واعلمي أن ليلة تمر بعودي نعشها ليلة القدر

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

من تعليق محقق الكشاف .

* الإعجاز العلمى

= يسبق استعماله أو دورانه في أنسجة الجسم وبذلك لم يعلق به أي شيء من المواد الضارة (مثل البولينا وحمض اللكتيك وغيرهما) التي تلفظها خلايا الجسم في تيار الدم ..

إذن فأكل الكبد والطحال ليس من المحظورات التي تباح عند الضرورات ولكنهما طعام مباح بصفة أصلية لأن الدم الموجود فيهما لاتنطبق عليه الصفة المسببة للتحريم فهو غير مسفوح وإنما محفوظ في مكان تكوينه وهو بنك الدم الرباني ، كما أن مواصفاته كطعام تجعله من الطيبات .

فسبحان من أوحي إلي عبده محمد صلي الله عليه وسلم بهذا العلم الذي لم يؤته أحدا من عباده ولم يتوصل إليه البيولوجيون إلا بعد أن نطق به من لاينطق عن الهوي باكثر من ألف وأربعمائة عام.

﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ عبارة عن غضبه عليهم ، وتعريض بحرمانهم حال مقابليهم في الكرامة والزلفي من الله . ﴿ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾ لا يثني عليهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ في الدنيا . ﴿ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ في الآخرة ، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية . ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس بموجبات النار من غير مبالاة . وما تامة مرفوعة بالابتداء ، وتخصيصها كتخصيص قولهم :

شرٌّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ (١)

أو استفهامية وما بعدها الخبر ، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف .

الآيتان من ١٧٦ : ١٧٧

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ ﴾ اللام فيه إما للجنس ، واختلافهم إيمانهم ببعض كتب الله تعالي وكفرهم ببعض . أو للعهد ، والإشارة إما إلى التوراة ، واختلفوا بمعني تخلفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها ، أو خلفوا خلال ما أنزل الله تعالي مكانه ، أي حرفوا ما فيها .

---

(١) مثل ذكره الميداني في مجمع الأمثال جـ١ ص ٣٢٧ يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله .

وإما إلى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحر ، وتَقوُّلَ ، وكلام علمه بشر ، وأساطير الأولين . ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ في خلاف بعيد عن الحق .

حقيقة البر

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ البر : كل فعل مرضٍ ، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت ، وادعي كل طائفة أن البر هو التوجه إلي قبلته ، فرد الله تعالي عليهم وقال : ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ ، ولكنِ البر ما بينه الله واتبعه المؤمنون . وقيل عام لهم وللمسلمين ، أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة ، و ليس البر العظيم الذي يحسن بأن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها ، وقرأ حمزة وحفص البر بالنصب ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يهتم به بر من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن ، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن البار، والأول أوفق وأحسن . والمراد بالكتاب الجنس ، أو القرآن . وقرأ نافع وابن عامر ولكنْ بالتخفيف ورفع البر . ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ أي على حب المال ، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل قال « **أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش، وتخشي الفقر** » (١) .

وقيل الضمير لله ، أو للمصدر ، . والجار والمجرور في موضع الحال . ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ يريد المحاويج منهم ، ولم يقيد لعدم الالتباس . وقدم ذوي القربي لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام « **صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان ، صدقة وصلة** » . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكنته الخلة ، وأصله دائم السكون كالمسكير للدائم السكر . ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ المسافر ، سمي به لملازمته السبيل كما سمي القاطع ابن الطريق . وقيل الضيف لأن السبيل يرعف به . ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه موقوفا عن الثورى عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود رضى الله عنه .

وأخرجه البيهقى من رواية شعبة عن زبيد أيضا موقوفا .

السؤال ، وقال عليه السلام « للسائل حق وإن جاء على فرسه» . ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين ، أو فك الأساري ، أو ابتياع الرقاب لعتقها . ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة . ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله : وآتي المال الزكاة المفروضة ، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها ، ومن الثاني أداؤها والحث عليها . ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوي الزكاة . وفي الحديث (نسخت الزكاة كل صدقة) . ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ عطف على من آمن . ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ نصبه على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال . وعن الأزهري : البأساء في الأموال كالفقر ، والضراء في الأنفس كالمرض ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ وقت مجاهدة العدو .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل . والآية كما تري جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، دالة عليها صريحاً أو ضمناً ، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس .

وقد أشير إلي الأول بقوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ إلى ﴿ والنبين ﴾ . وإلى الثاني بقوله : ﴿ وآتي المال ﴾ إلي ﴿ وفي الرقاب ﴾ و إلى الثالث بقوله : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ إلي آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق . وإليه أشار بقوله عليه السلام « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان » .

الآيتان من ١٧٨ : ١٧٩

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾

حكمة القصاص فى الإسلام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثي . فلما جاء الإسلام تحاكموا إلي رسول الله ﷺ فنزلت ، وأمرهم أن يتباوءوا . ولا تدل علي أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثي ، كما لا تدل على عكسه ، فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوي اختصاص الحكم ، وقد بينا ما كان الغرض. وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالي عنهما قتل الحر بالعبد سواء كان عبده أو عبد غيره ، لما روي عن على رضي الله تعالي عنه : (**أن رجلاً قتل عبده فجلده الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يقده به**) وروي عنه أنه قال (**من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد**) ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالي عنهما ، كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير . وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالته فليس له دعوي نسخه بقوله تعالي ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾[1] لأنه حكاية ما في التوراة فلا ينسخ ما في القرآن .

واحتجت الحنفية به علي أن مقتضي العمد القود وحده ، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يصدق عليه أنه وجب وكتب ، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه . وقرئ كَتَبَ علي البناء للفاعل والقصاصَ بالنصب ، وكذلك كل فعل جاء في القرآن . ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ أي

---

(١) المائدة : ٤٥ .

شيء من العفو ، لأن عفا لازم . وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص . وقيل عفا بمعني ترك ، وشيء مفعول به وهو ضعيف ، إذ لم يثبت عفا الشيء بمعني تركه بل أعفاه . وعفا يعدي بعن إلى الجاني وإلى الذنب ، قال الله تعالي ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ (١) وقال ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ (٢) . فإذا عدي به إلى الذنب عدى إلى الجاني باللام وعليه ما في الآية كأنه قيل : فمن عفي له عن جنايته من جهة ، أخيه ، يعني ولي الدم ، وذكره بلفظ الإخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرق له ويعطف عليه . ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ أي فليكن اتباع ، أو فالأمر اتباع . والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يعنف ، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان : وهو أن لا يمطل ولا يبخس . وفيه دليل على أن الدية أحد مقتضي العمد ، وإلا لما رتب الأمر بأدائها على مطلق العفو . وللشافعي رضي الله تعالي عنه في المسألة قولان . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية . ﴿ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل كتب علي اليهود القصاص وحده ، وعلى النصاري العفو مطلقاً . وخيرت هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حسب مراتبهم . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قتل بعد العفو وأخذ الدية . ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

وقيل في الدنيا بأن يقتل لا محالة لقوله عليه السلام « **لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية** » .

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده ، وعرف القصاص ونكر الحياة ، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً ، ذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل ، فيكون سبب حياة نفسين . ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل ، والجماعة بالواحد ، فتثور الفتنة بينهم . فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم . وعلى الأول فيه إضمار وعلي الثاني تخصيص . وقيل : المراد بها الحياة الأخروية ، فإن

---

(١) التوبة : ٤٣ . (٢) المائدة : ٩٥ .

القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة . ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ ﴾ يحتمل أن يكونا خبرين لحياة وأن يكون أحدهما خبراً والآخر صلة له ، أو حالاً من الضمير المستكن فيه . وقرئ في القصص أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب . ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ذوي العقول الكاملة . ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له ، أو عن القصاص فتكفوا عن القتل .

الآيات من ١٨٠ : ١٨٣

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾

حكم الوصية ونسخها

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً . وقيل مالاً كثيراً ، لما روي عن علي رضي الله تعالي عنه (**أن مولي له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم ، فمنعه وقال قال الله تعالي ﴿ إن ترك خيراً ﴾ والخير هو المال الكثير**) . وعن عائشة رضي الله تعالي عنها (**أن رجلا أراد أن يوصي فسألته كم مالك ، فقال : ثلاثة آلاف فقالت : كم عيالك قال : أربعة قالت : إنما قال الله تعالي إن ترك خيراً وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك**) [١] .

---

(١) أخرجه ابن ابى شيبة فى مصنفه قال : حدثنا أبو معاوية عن محمد بن شريك عن ابن ابى مليكة .

﴿ **الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ مرفوع بكتب ، وتذكير فعلها للفصل ، أو على تأويل أن يوصي ، أو الإيصاء ولذلك ذكر الراجع في قوله ﴿ **فَمَن بَدَّلَهُ** ﴾ . والعامل في إذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها . وقيل مبتدأ خبره للوالدين، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله :

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يشكرُهَا وَالشَّرُّ بِالشَّرِ عِنْدَ اللهِ مِثْلاَنِ

وَرُدَّ بأنه إن صح فمن ضرورات الشعر .

وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث وبقوله عليه الصلاة والسلام « **إن الله أعطي كل ذي حق حقه ، ألا لا وصية لوارث** [1] . وفيه نظر : لأن المواريث لا تعارضه بل تؤكده من حيث إنها تدل علي تقديم الوصية مطلقاً ، والحديث من الآحاد ، وتلقي الأمة له بالقبول لا يلحقه بالمتواتر . ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصي به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله يوصيكم الله . أو بإيصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصي به الله عليهم ﴿ **بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ بالعدل فلا يفضل الغني ، ولا يتجاوز الثلث . ﴿ **حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً .

﴿ **فَمَن بَدَّلَهُ** ﴾ غيره من الأوصياء والشهود . ﴿ **بَعْدَمَا سَمِعَهُ** ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده ، ﴿ **فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ** ﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل، إلا على مبدليه لأنهم الذين حافوا وخالفوا الشرع . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ وعيد للمبدل بغير حق .

﴿ **فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ** ﴾ أي توقع وعلم ، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر مُوَصٍّ مشدداً . ﴿ **جَنَفًا** ﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية . ﴿ **أَوْ إِثْمًا** ﴾ تعمداً للحيف . ﴿ **فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ** ﴾ بين الموصي

---

(١) رواه أبو داود فى سننه والترمذى فى صحيحه وحسنه ، ورواه ابن ماجة فى سننه من حديث أبى أمامة .

ورواه الترمذى أيضا والنسائى وابن ماجة من حديث عمرو بن خارجة .

لهم بإجرائهم علي نهج الشرع . ﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ في هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل إلي حق بخلاف الأول . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وعد للمصلح ، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم .

فريضة الصوم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام ، وفيه توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب على النفس . والصوم في اللغة : الإمساك عما تنازع إليه النفس ، وفي الشرع : الإمساك عن المفطرات بياض النهار ، فإنها معظم ما تشتهيه النفس .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال عليه الصلاة والسلام « فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » أو الإخلال بأدائه لأصالته وقدمه .

الآية ١٨٤

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ مؤقتات بعدد معلوم ، أو قلائل . فإن القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلاً ، ونصبها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار

* **الإعجاز العلمى**

﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أثبتت الدراسات الطبية والعلمية في الغرب والشرق والتي قام بها كبار علماء الطب من كل جنس ودين أن الصوم وقاية وعلاج لأخطر أمراض العصر وهذا ما شهد به أئمة الكفر في بلادهم وأوصوا به في نصائحهم العلاجية لأن الصيام يقوم بتلك الفوائد :

١) يجدد الأنسجة .

صوموا لدلالة الصيام عليه ، والمراد به رمضان أو ما وجب صومه قبل وجوبه ونسخ به ، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر ، أو بكما كتب على الظرفية ، أو على أنه مفعول ثان لكتب عليكم علي السعة . وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام لما روي: رمضان كتب على النصاري ، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلي الربيع وزادوا عليه عشرين كفارة لتحويله . وقيل زادوا ذلك لموتان أصابهم .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه . ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أو راكب سفر ، وفيه إيماء إلي أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر . ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي فعليه صوم عدد أيام المرض ، أو السفر من أيام أخر إن أفطر ، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها . وقرئ بالنصب أي فليصم عدة ، وهذا على سبيل الرخصة ، وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه .

*** الإعجاز العلمي**

٢) يؤدي إلي تآكل المواد الضارة الزائدة في الجسم.

٣) تظل المعدة والأمعاء خالية من الطعام وقتا طويلا وبهذا تهدأ حركات وإفرازات المعدة والأمعاء مما يعطي الفرصة الملائمة التي تشفي فيها القروح والجروح بالأغشية المخاطية.

٤) وعندما يتوقف امتصاص الأمعاء للطعام لايصل إلي الكبد أحماض أمينية أو جلوكوز أو أملاح فيتيح للكبد الفرصة للتخلص مما بداخله من دهنيات .

٥) كذلك ينخفض السكر في الدم اثناء الصيام.

٦) يفيد الصيام في معالجة الأمراض الجلدية حيث يقل الماء في الجسم والدم والجلد أيضا فتزداد مقاومة الجلد للأمراض الميكروبية .

٧) كما أن الصيام والامتناع عن الطعام والشراب يقلل المجهود علي القلب والشرايين وارتفاع ضغط الدم والاصابة بالبؤرات الصديدية .

هذا كلام قليل من بحوث وشروح ومؤلفات ضخمة في موضوع الصوم نكتفي به مع الإشارة إلي الإعجاز العلمي في كلمة ﴿ خير لكم ﴾ فيا أطباء العالم أجمع نقبوا وابحثوا ماوراء هذا المعني الذي نزل علي النبي الأميّ(محمد) عليه الصلاة والسلام منذ خمسة عشرا قرنا والشيء العجيب في أمر الصوم أن أول ما يوصي به الطبيب لأي مريض هو أن

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العراق ، ومد عند فقهاء الحجاز . رخص لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه ، ثم نسخ . وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع المساكين . وقرأ ابن عامر برواية هشام مساكين بغير إضافة الفدية إلي الطعام ، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين ، وقرئ يطوقونه أي يكلفونه ويقلدونه من الطوق بمعني الطاقة ، أو القلادة . ويتطوقونه أي يتكلفونه ، أو يتقلدونه . ويطوقونه بالإدغام ، ويطيقونه ويطيقونه علي أن أصلهما يطيوقونه من فيعل وتفيعل بمعني يطوقونه ويتطوقونه ، وعلي هذه القرءات يحتمل معني ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده ـ وهم الشيوخ والعجائز ـ في الإفطار والفدية ، فيكون ثابتاً وقد أول به القراءة المشهورة ، أي يصومونه جهدهم وطاقتهم . ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً ﴾ فزاد في الفدية . ﴿ فَهُوَ ﴾ فالتطوع أو الخير . ﴿ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا ﴾

* الإعجاز العلمي

= ينظم الطعام والشراب بل ويقلل منه وكذلك تجد أن أول نصيحة تعطي لمن أراد أن يمارس الرياضة ويحافظ علي قوة جسمه هو أن يقلل وينظم أوقات تناول طعامه وشرابه وهذا هو ما يأمر به الصيام بل إن النصيحة الأساسية لجميع الطلاب والدارسين أثناء مذاكرتهم وامتحاناتهم أن لايفرطوا في تناول الطعام حتي يحصلوا علي أعلي قدر من التركيز .

هذا بخلاف ما في الصيام من آثار نفسية وعقائدية من مراقبة المولي عز وجل والارتقاء إلي مرتبة الإحسان – أن تعبد الله كأنك تراه لأنه لارقيب عليك في الصيام إلا الله .

وكذلك ما في الصيام من توحيد لمشاعر المسلمين في أوقات سحورهم وإفطارهم وصيامهم وفي هذا معني معنوي للاتحاد في كل شيء وتجديد العهد مع الخالق هذا غير خصائص أخري سوف يكشف العلم الحديث عنها مستقبلا ألم يقل سبحانه وتعالي في الحديث القدسي [كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه ليّ وأنا أجزي به] .

أيها المطيقون ، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم . أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر . ﴿ خَيْرٌ لَكُم ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء . ﴿ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مافي الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة ، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه . وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك .

الآيتان ١٨٥ ، ١٨٦

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنزِلَ فيه الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك شهر رمضان ، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب علكيم الصيام صيام شهر رمضان . وقرئ بالنصب على إضمار صوموا ، أو على أنه مفعول ، وأن تصوموا وفيه ضعف ، أو بدل من أيام معدودات . والشهر : من الشهرة ، ورمضان : مصدر رمض إذا احترق ؛ فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون ، كما منع دأية في ابن دأية علماً للغراب للعلمية والتأنيث ، وقوله عليه الصلاة والسلام « **من صام رمضان** » فعلي حذف المضاف لأمن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش ، أو لارتماض الذنوب فيه أو لوقوعه أيام رمض الحر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة . ﴿ الَّذي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآن ﴾ أي ابتديء فيه إنزاله ، وكان ذلك ليلة القدر ، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم منجماً إلي الأرض ، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ . وعن النبي ﷺ « **نزلت صحف**

إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين ، والإنجيل لثلاث عشرة ، والقرآن لأربع وعشرين [1] والموصول بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد ، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معني الشرط . وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم .

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ حالان من القرآن ، أي أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق ، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام . **﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾** فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه ، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه ، لكن وضع المظهر موضع المضمر الأول للتعظيم ، ونصب على الظرف وحذف الجار ونصب الضمير الثاني على الاتساع . وقيل فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه ، على أنه مفعول به كقولك : شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون **﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾** مخصصاً له ، لأن المسافر شهد الشهر ولعل تكريره لذلك ، أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق ، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالقضاء ومراعاة عدة ما أفطر فيه ، والترخيص لتكملوا العدة إلى آخرها على سبيل اللف ، فإن قوله ولتكملوا العدة علة الأمر بمراعاة العدة ، ولتكبروا الله علة الأمر بالقضاء وبيان كيفيته ، ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير . أو الأفعال كل لفعله ، أو معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم ، أو لتعلموا ما تعلمون ولتكملوا العدة ، ويجوز أن يعطف على اليسر أي ويريد بكم لتكملوا

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا ، ورواه أبو داود ، والثعلبي في تفسيره ، وأخرجه أبو يعلى من حديث جابر.

كقوله تعالي ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ (١) والمعني بالتكبير تعظيم الله بالحمد والثناء عليه ، ولذلك عدي بعلي . وقيل تكبير يوم الفطر ، وقيل التكبير عند الإهلال وما يحتمل المصدر ، والخبر أي الذي هداكم إليه وعن عاصم برواية أبي بكر ولتكمّلوا بالتشديد .

سرعة استجابة الله لعباده

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ أي فقل لهم إني قريب ، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه علي أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم، روي (**أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه**)(٢) فنزلت ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ووعد للداعي بالإجابة . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ راجين إصابة الرشد وهو إصابة الحق . وقرئ بفتح الشين وكسرها . واعلم أنه تعالي لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة ، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر ، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالي خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه .

---

(١) الصف : ٨ .

(٢) رواه الطبرى وابن أبى حاتم والدارقطنى فى المؤتلف من حديث الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده .

الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾

من حقائق الصوم

ثم بين أحكام الصوم فقال ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ روي **(أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلي أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا ، ثم : إن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتي النبي ﷺ واعتذر إليه ، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت[1])**

وليلة الصيام : الليلة التي تصبح منها صائماً .

والرفث : كناية عن الجماع ، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكني عنه ، وعدي بإلى لتضمنه معني الإفضاء ، وإيثاره ههنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة . وقريء الرفوث .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة ، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه باللباس قال الجعدي:

---

(١) رواه الطبرى من طريق عطية عن ابن عباس فى تفسير الآية المذكورة .

إذَا مَا الضجيعُ ثَني عِطْفَهَا تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا(١)

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور . ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب ، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب . ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ لما تبتم مما اقترفتموه . ﴿ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ ومحا عنكم أثره .

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ لما نسخ عنكم التحريم وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن ، والمباشرة : إلزاق البشرة بالبشرة كنى به عن الجماع . ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد ، والمعني أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه الحكمة من خلق الشهوة . وشرع النكاح لإقضاء الوطر ، وقيل النهي عن العزل ، وقيل عن غير المأتي . والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل، بخيطين أبيض وأسود ، واكتفي بيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود ، لدلالته عليه . وبذلك خرجا عن الاستعارة إلي التمثيل. ويجوز أن تكون من للتبعيض ، فإن مايبدو بعض الفجر .

وما روي أنها نزلت ـ ولم ينزل من الفجر ـ فعمد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتي يتبينا لهم فنزلت ، إن صح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلي وقت الحاجة جائز، أو اكتفي أولاً باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس علي بعضهم ، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم المصبح جنباً ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾

---

(١) من قصيدة للنابغة الجعدى من قصيدة شيبة أنشدها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قدومه عليه .منها:

لبست أناسًا فافنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

بيان لآخر وقته ، وإخراج الليل عنه فينفي الوصال .

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ معتكفون فيها . والاعتكاف : هو اللبث في المسجد بقصد القربة .

والمراد بالمباشرة : الوطء . وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك . وفيه دليل علي أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد . وأن الوطء يحرم به ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي الأحكام التي ذكرت . ﴿ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ نهي أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل ، فضلاً عن أن يتخطي عنه . كما قال عليه الصلاة والسلام « **إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه فمن رتع حول الحمي يوشك أن يقع فيه** (١) » . وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها ، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي .

النهي عن أكل أموال الناس بالباطل

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالي . وبين نصب على الظرف ، أو الحال من الأموال .﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ عطف على المنهي ، أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء ، أي ولا تلقوا حكومتها إلي الحكام . ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ بالتحاكم . ﴿ فَرِيقًا ﴾ طائفة . ﴿ مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ ﴾ بما يوجب إثما ، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم . ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم مبطلون ، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح . روي أن عبدان الحضرمي ادعي على امريء القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بينة ، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف

---

(١) رواه ابن ماجة فى الفتن ١٤ ، وأحمد في مسنده جـ ٤ ص ٢٦٩ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب البيوع ، ومسلم في كتاب المساقاة ١٠٧ .

امرؤ القيس ،فهم به ، فقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾(١) الآية . فارتدع عن اليمين ، وسلم الأرض إلي عبدان ، فنزلت . وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطناً ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام « **إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار** » (٢) .

الآيتان ١٨٩ ، ١٩٠

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾

السؤال عن الأهلة

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا : (**ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ، ثم يزيدحتي يستوي ، ثم لا يزال ينقص حتي يعود كما بدا**) ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ فإنهم سالوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره ، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم ، ومعالم للعبادات المؤقتة يعرف بها أوقاتها . وخصوصاً الحج فإن الوقت مراعي فيه أداء وقضاء . والمواقيت جمع ميقات ، من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان : أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها . والزمان : مدة مقسومة ، والوقت : الزمان المفروض لأمر .

---

(١) آل عمران : ٧٧ .

(٢) الحديث رواه أبو داود والدارقطني والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلي من حديث أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها . وله أصل في الصحيحين .

﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء ، والباقون بالكسر .

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ولكنْ، ورفع البر . كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه ، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه ، ويعدون ذلك براً ، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر من اتقي المحارم والشهوات ، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سالوا عن الأمرين . أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد ، أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة، عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً علي أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها ، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه . والمعني : وليس البر بان تعكسوا مسائلكم ولكن البر من اتقي ذلك ولم يجسر على مثله . ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ إذ ليس في العدول بر فباشروا الأمور من وجوهها . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على فعاله . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تظفروا بالهدي والبر.

مشروعية الجهاد في سبيل الله

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه . ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ قيل : كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين . وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء ، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلي قصده . ويؤيد الأول ما روي (أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وصالحوه علي أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ـ شرفها الله ـ ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم . أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك) فنزلت ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ بابتداء القتال ، أو بقتال المعاهد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المثلة ، أو قتل مَنْ نهيتم عن قتله . ﴿ إِنَّ

اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) لا يريد بهم الخير.

الآيات من ١٩١ : ١٩٤

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾

﴿ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ في حل أو حرم . وأصل الثقف : الحذق في إدراك الشيء علما كان أو عملاً . فهو يتضمن معني الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فـإمَّا تَـثْـقَـفُـونـي فاقتلوني فَمَنْ أُثْقفْ فَلَيْسَ إلى خُلُود (٢)

﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح . ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي المحنة التي يفتتن بها الإنسان ، كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها . وقيل : معناه شركهم في الحرم وصدهم إياكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه . ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُم

---

(١) هذه الآية الكريمة تدحض ادعاء الذين يزعمون أن الإسلام قام علي السيف ، وهي تشير إلى أن المسلمين لا يبدأون غيرهم بقتال ، ولا يقاتلون إلا من اعتدى عليهم . . وأول آية نزلت في مشروعية القتال هى قوله تعالى فى سورة الحج ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ .

(١) البيت ذكره الزمخشرى فى الكشاف ولم ينسبه لقائل ، ولم ينسبه المحقق كذلك ورواه ابن منظور فى لسان العرب هكذا :

فإما تثقفونى فاقتلونى فإن أثقف فسوف ترون بالى

وفسر تثقفونى بقوله : تصادقونى أو تلقونى .

عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام . ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمته . وقرأ حمزة والكسائي ولا تقتلوهم حتي يقتلوكم فيه فإن قتلوكم . والمعني حتي يقتلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو أسد . ﴿ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا .

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عن القتال والكفر﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفرلهم ما قد سلف ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ شرك ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب .

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عن الشرك . ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم ، فوضع العلة موضع الحكم . وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) . أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم ، والفاء الأولي للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه ، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته فقيل لهم هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكه فلا تبالوابه . ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ احتجاج عليه ، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجد فيها القصاص . فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله ، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم . كما قال : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو فذلكه التقرير .﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلي ما لم يرخص لكم . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم .

---

(١) البقرة: ١٩٤ .

الآيتان من ١٩٥ : ١٩٦

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

من أنواع الجهاد الإنفاق في سبيل الله

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك . ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش ، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه ، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم . ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال : (**لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلي أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت**) (١) أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلي الهلاك المؤبد ، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد ، والإلقاء : طرح الشيء ، وعدي بإلي لتضمن معني الانتهاء ، والباء مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس ، والتهلكة والهلاك والهلك واحد فهي مصدر كالتضرة والتسرة ، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك وقيل : معناه لا تجعلوها أخذة بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول .

﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أعمالكم وأخلاقكم ، أو تفضلوا على المحاويج . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الثعلبى من طريق الدارمى من حديث أبى أيوب ، وأخرجه كذلك أحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبرى وغيرهم .

حول الحج والعمرة

﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ﴾ أي ائتوا بهما تامين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالي ، وهو علي هذا يدل علي وجوبها ويؤيده قراءة من قرأ واقيموا الحج والعمرة لله ، وما روي جابر رضي الله تعالي عنه « **أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج ، فقال : لا ولكن إن تعتمر خير لك** » [١] فمعارض بما روي « **أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالي عنه ، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما جميعا ، فقال : هديت لسنة نبيك** » [٢] ولا يقال إنه فسر وجدانهما مكتوبين بقوله أهللت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاله بهما ، لأنه رتب الإهلال على الوجدان ، وذلك يدل على أنه سبب الإهلال دون العكس ، وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، أو أن تفرد لكل منهما سفراً ، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوى ، أو أن تكون النفقة حلالا .

﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ** ﴾ منعتم ، يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضى ، مثل صده وأصده ، والمراد حصر العدو عند مالك والشافعى رحمهما الله تعالي لقوله تعالي ﴿ **فإذا أمنتم** ﴾ ولنزوله في الحديبية ، ولقول ابن عباس رضي الله تعالي عنهما (**لا حصر إلا حصر العدو**) وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالي ، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام « **من كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل** [٣] » وهو ضعيف مؤول بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير« **حجي واشترطي وقولي : اللهم محلي حيث حبستني** [٤] »

﴿ **فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** ﴾ فعليكم ما استيسر ، أو الواجب ما استيسر . أو

---

(١) رواه الترمذى من رواية حجاج بن أرطاة عن محمد بن المنكدر .

(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان .

(٣) أخرجه أصحاب السنن الأربعة وأحمد وإسحاق بن راهوية ، وابن أبى شيبة فى مصنفه والطبرانى من حديث عكرمة عن ابن عمرو بن غزية الأنصارى .

(٤) رواه ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٣٣٥ وهو فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٦ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

فاهدوا ما استيسر . والمعني إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدي تيسر عليه ، من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر ، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل ، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالي يبعث به ، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالي .

﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ أي لا تحلوا حتي تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه ، وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً ، واقتصاره على الهدي دليل على عدم القضاء . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالي يجب القضاء و والمحل ـ بالكسر ـ يطلق على المكان والزمان . والهدي : جمع هدية كجدي وجدية ، وقرىء من الهدي جمع هدية كمطي في مطية .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق . ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ كجراحة وقمل . ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ فعلية فدية إن حلق . ﴿ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ بيان لجنس الفدية ، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة « **لعلك آذاك هوَامُكَ ، قال : نعم يا رسول الله قال : احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة** (٤١١) » والفرق ثلاثة آصع ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ الإحصار . أو كنتم في حال سعة وأمن . ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلي الله بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره . وقيل : فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلي أن يحرم بالحج . ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع ، فهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالي ، إنه دم نسك فهو كالأضحية .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ أي الهدي . ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل . قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٣٣٦ وعزاه إلى البخاري وأحمد وابن أبي حاتم وغيرهم .

الإحرامين ، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه . ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين . ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ إلى أهلكم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالي عنه ، أو نفرتم وفرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالي . وقرئ سبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام .

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ فذلكة الحساب ، وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أن الواو بمعني أو ، كقولك جالس الحسن وابن سيرين . وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب ، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد ، أو مبينة كمال العشرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها ، أو مقيدة تقيد كمال بدليتها من الهدي .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلي الحكم المذكور عندنا . والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالي لأنه لا متعة ولا قران لحاضري السجد الحرام عنده ، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعليه دم جناية .

﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو من كان من الحرم علي مسافة القصر عندنا ، فإن من كان على أقل فهو مقيم في الحرام ، أو في حكمه . ومن مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحل عند طاوس وغير المالكي عند مالك .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم للعلم به عن العيان .

الآيات من ١٩٧ : ٢٠٢

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ ﴾ أي وقته . كقولك البرد شهران .﴿ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ معروفات وهي : شوال وذو القعدة تسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا ، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالي . وذي الحجة كله عند مالك . وبناء على الخلاف علي أن المراد بوقته وقت إحرامه ، أو وقت أعماله ومناسكه ، أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً ، فإن مالكاً كره العمرة في بقية ذي الحج . وأبو حنيفة رحمه الله وأن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه . وإنما سمي شهران وبعض شهر أشهراً إقامة للبعض مقام الكل ، أو إطلاقاً للجمع إلى ما فوق الواحد .

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا ، بالتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالي وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام . ﴿ فَلا رَفَثَ ﴾ فلا جماع ، أو فلا فحش من الكلام . ﴿ وَلا فُسُوقَ ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع

بالسيئات وارتكاب المحظورات . ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ ولا مراء مع الخدم والرفقة . ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ في أيامه ، نفي الثلاثة على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون ، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح كلبسه الحرير في الصلاة . والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضي الطبع والعادة إلى محض العبادة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأولين بالرفع على معني : لا يكونن رفث ولا فسوق . والثالث بالفتح على معني الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج ، وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام ، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقفوا أيضاً بعرفة . ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ حث علي الخير عقب به النهي عن الشر ليستدل به ويستعمل مكانه .

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وتزودوا لمعادكم التقوي فإنه خير زاد ، وقيل : نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس ، فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والتثقيل علي الناس . ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فإن قضية اللُّب خشية الله وتقواه ، حثهم علي التقوي ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالي فيتبرأمن كل شيء سواه ، وهو مقتضي العقل المعري عن شوائب الهوي فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا ﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا . ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ عطاء ورزقاً منه ، يريد الربح بالتجارة ، وقيل : كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج ، وكانت معايشهم منها ، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت .

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾ دفعتم منها بكثرة ، من أفضت ماء إذا صببته بكثرة . وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول كما حذف في دفعت من البصرة .

وعرفات : جمع سمي به كأذرعات ، وإنما نون وكسر وفيه العلمية والتأنيث لأن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكين ولذلك يجمع مع اللام ،

وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف ، وهنا ليس كذلك . أو لأن التأنيث إما أن يكون بالتاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث . وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ، أو بتاء مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبدل لها لاختصاصها بالمونث كتاء بنت.

لماذا سمي الموقف عرفة

وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلما أبصره عرفه . أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال : قد عرفت . أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا . أو لأن الناس يتعارفون فيه . وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتجلة إلإ أن يجعل جمع عارف وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالي : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا ﴾ أو مقدمة للذكر المامور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب ، وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيد لا واجب مطلق حتي تجب مقدمته والأمر به غير مطلق .

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء . وقيل : بصلاة العشاءين . ﴿ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمي قزح وقيل : ما بين مازمي عرفة ووادي محسر ، ويؤيد الأول ما روي جابر (**أنه عليه الصلاة والسلام لما صلي الفجر يعني بالمزدلفة ـ بغلس** ، **ركب ناقته حتي أتي المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل** ، **ولم يزل واقفاً حتي أسفر**) وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَم العبادة ، ووصف بالحرام لحرمته : ومعني عند المشعر الحرام : مما يليله ويقرب منه فإنه افضل ، والإ فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر .

﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كما علمكم ، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ،. وما مصدرية أو كافة . ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي الهدي . ﴿ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة ، وأن هي المخففة من الثقلية واللام هي الفارقة . وقيل : إن نافية واللام بمعني إلا ، كقوله

تعالي ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (١) .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة ، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمروا بأن يساووهم . وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلي غير كريم . وقيل : من المزدلفة إلي مني بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام . وقريء الناس بالكسر أي الناسى يريد آدم من قوله سبحانه وتعالي ﴿ فَنَسِيَ ﴾ (٢) والمعني أن الإفاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّه ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ فإذا قضيتم العبادات الحجية وفرغتم منها . ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة . وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم .

﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ إما مجرور معطوف على الذكر يجعل الذكر ذاكراً على المجاز والمعنى : فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ . أو على ما أضيف إليه على ضعف بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً . وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعني أو كذكركم أشد مذكورية من آبائكم . أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره : أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم .

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مقل لا يطلب بذكر الله

---

(١) الشعراء : ٦٦ .

(٢) طه : ١١٥ من قوله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

تعالى إلا الدنيا ومكثر يطلب به خير الدارين ، والمراد الحث على الإكثار والإرشاد إليه .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا فى الدنيا ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ أى نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا ، أو من طلب خلاق .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ يعنى الصحة والكفاف وتوفيق الخير .﴿ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ يعنى الثواب والرحمة . ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ بالعفو والمغفرة ، وقول علي رضي الله تعالي عنه : (**الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة ، وفى الآخرة الحوراء . وعذاب الدنيا المرأة السوء**) وقول الحسن : (**الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة ، وفى الآخرة الجنة**) . وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني . وقيل إليهما ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه ، أو من أجله كقوله تعالي ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ (١) أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه فسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال . ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة ، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلي الطاعات واكتساب الحسنات .

---

(١) نوح ٢٥ .

الآيات من ٢٠٣ : ٢٠٥

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ كبروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها في أيام التشريق . ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ ﴾ فمن استعجل النفر . ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يوم القر[١] والذى بعده ، أى فمن نفر فى ثانى أيام التشريق بعد رمى الجمار عندنا ، وقبل طلوع الفجر عند أبى حنيفة . ﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ باستعجاله ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال ، وقال أبو حنيفة : يجوز تقديم رميه علي الزوال . ومعني نفى الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر . ﴿ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ أى الذى ذكر من التخيير ، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج علي الحقيقة والمنتفع به ، أو لأحله حتي لا يتضرر بترك ما يهمه منهما . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى مجامع أموركم ليعبأ بكم . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء بعد الإحياء ، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾[٢] يروقك ويعظم فى نفسك ،

---

(١) يوم القر هو أول أيام التشريق ، اليوم التالى ليوم النحر ، مأخوذ من الاستقرار ولزوم منازلهم في منى .

(٢) جاء في كتاب مفاتيح الغيب للفخر الرازى : أنها نزلت فى الأخنس بن شريق وهو حليف لبنى زهرة ، أقبل إلى النبى ﷺ وأظهر الإسلام ، وزعم أنه يحبه ويحلف بالله علي ذلك غير أنه كان منافقا حسن العلانية خبيث الباطن ، ثم خرج من عند النبى ﷺ فمر بزرع =

والتعجب : حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه . ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ متعلق بالقول ، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش ، أو فى معنى الدنيا فإنها مراد من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان ، أو بيعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك فى الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحبسة ، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام . ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ يحلف ويستشهد الله علي أن ما فى قلبه موافق لكلامه . ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين ؛ والخصام المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خصم كصعب وصعاب بمعني أشد الخصوم خصومة . قيل نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام. وقيل فى المنافقين كلهم .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أدبر وانصرف عنك . وقيل : إذا غلب وصار واليًا . ﴿ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم ، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف ، أو بالظلم حتي يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه .

= لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحمر .

وهناك أسباب أخري لنزول الآية راجعها في مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٢٢٧ .

الآيات من ٢٠٦ : ٢١٠

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى يؤمر باتقانه لجاجاً ، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه . ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ كفته جزاءً وعذاباً ، وجهنم علم لدار العقاب وهو فى الأصل مرادف للنار . وقيل معرب . ﴿ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به ، والمهاد الفراش . وقيل ما يوطأ للجنب .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾ يبيعها أى يبذلها فى الجهاد ، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل . ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ طلباً لرضاه . قيل : إنها نزلت فى صهيب بن سنان الرومى ، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال : إنى شيخ كبير لا ينفعكم إن كنتُ معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوه منه وأتى المدينة .

﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء .

دعوة الإسلام إلى السلام العادل

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ السلم بالكسر والفتح الاستسلام والطاعة ، ولذلك يطلق فى الصلح والإسلام . فتحه ابن كثير ونافع

والكسائى وكسره الباقون . وكافة اسم للجملة لأنها تكف الأجزاء من التفرق حال من الضمير أو السلم لأنها تؤنث كالحرب قال :

السِّلْمُ تَأخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِه وَالحَرْبُ يَكفيْكَ مِنْ أنْفَاسِها جُرَعُ (١)

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً ، والخطاب للمنافقين ، أو ادخلوا فى الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره . والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عظموا السبت وحرموا الإبل وألبانها ، أو فى شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب ، أو فى شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشىء والخطاب للمسلمين .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ بالتفرق والتفريق . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ عن الدخول فى السلم . ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه الانتقام . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا ينتقم إلا بحق .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام في معنى النفى ولذلك جاء بعده . ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾(٢) ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ (٣) أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ جمع ظله كقلة وقلل وهى ما أظلك ، وقرئ ظلال كقلال . ﴿ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة ، فإذا جاء منه العذاب كان أفظع لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير .

---

(١) البيت من أبيات للعباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة ، ومن هذه الأبيات قوله:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضَّبُعُ

وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة .

(٢) النحل : ٣٣ . (٣) الأعراف : ٤ .

﴿ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ فإنهم الواسطة فى إتيان أمره ، أو الآتون على الحقيقة ببأسه . وقرئ بالجر عطفًا على ظلل أو الغمام .

﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه ، وضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه . وقرئ وقضاء الأمر عطفًا على الملائكمة .

﴿ وَإِلَى اللَّه تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع ، وقرأ الباقون علي البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع ، وقرئ أيضا بالتذكير وبناء المفعول .

الآيتان من ٢١١ : ٢١٢

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّه مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾

تكذيب بنى إسرائيل بالآيات

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أمر للرسول ﷺ ، أو لكل أحد والمراد بهذا السؤال تقريعهم . ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ معجزة ظاهرة ، أو آية فى الكتب شاهدة علي الحق والصواب على أيدى الأنبياء ، وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء علي حذف العائد من الخبر إلى المبتدأ . وآية مميزها . ومن للفصل . ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّه ﴾ أى آيات الله فإنها سبب الهدى الذى هو أجل النعم ، يجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس ، أو التحريف والتأويل الزائغ . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها ، وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعد ما عقلوها ولذلك قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة .

الكفار مفتونون بالدنيا

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها ، والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله ، ويدل عليه قراءة زَيَّنَ على البناء للفاعل ، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلقه الله فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض .

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أى يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى ، ومن للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لأنهم فى عليين وهم فى أسفل السافلين ، أو لأنهم فى كرامة وهم فى مذلة ، أو لأنهم يتطاولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا ، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا ، ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للتقوي . ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ فى الدارين . ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجًا تارة وابتلاء أخرى .

الآيتان من ٢١٣ : ٢١٤

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

اختلاف أهل الكتاب

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح

بعد الطوفان ، أو متفقين على الجهالة والكفرفى فترة إدريس أو نوح . ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ أى فاختلفوا فبعث الله ، وإنما حذف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه . وعن كعب (**الذى علمته من الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون**) ﴿ **وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه ، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم ، وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم . ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ حال من الكتاب ، أى ملتبساً بالحق شاهداً به .

﴿ **لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ أى الله ، أو النبى المبعوث ، أو كتابه . ﴿ **فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ فى الحق الذى اختلفوا فيه ، أو فيما التبس عليهم . ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ** ﴾ فى الحق ، أو الكتاب . ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ** ﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الخلاف أى عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه .

﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ حسداً بينهم وظلما لحرصهم على الدنيا . ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف . ﴿ **مِنَ الْحَقِّ** ﴾ بيان لما اختلفوا فيه . ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه . ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ لا يضل سالكه.

تعرض المؤمنين للاختبار

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ** ﴾ خاطب به النبى ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم علي الأنبياء بعد مجيء الآيات ، تشجيعاً لهم علي الثبات مع مخالفتهم . وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿ **وَلَمَّا يَأْتِكُم** ﴾ ولم يأتكم، وأصل لما لم زيدت عليها ما وفيها توقع ولذلك جعلت مقابل قد .

﴿ **مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم** ﴾ حالهم التي هى مثل فى الشدة .

﴿ **مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ** ﴾ بيان له على الاستئناف . ﴿ **وَزُلْزِلُوا** ﴾

وأزعجوا إزعاجًا شديدًا بما أصابهم من الشدائد .

﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ لتناهى الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر . وقرأ نافع يقولُ بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مرض حتى لا يرجونه . ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ استبطاء له لتأخره . ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ استئناف على إرادة القول أى فقيل لهم ذلك إسعافًا لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر ، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ، ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

الآيتان من ٢١٥ : ٢١٦

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

وجوه الإنفاق في سبيل الله

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن عمرو بن الجموح الأنصارى كان شيخًا ذا مال عظيم ، فقال : يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت) ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ سئل عن المنفق فأجيب ببيان المصرف لأنه أهم فإن اعتداد النفقة باعتباره ، ولأنه كان فى سؤال عمرو وإن لم يكن مذكورًا فى الآية ، واقتصر فى بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير . ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ فى معنى الشرط . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ جوابه أى إن تفعلوا خيرا فإن الله يعلم كنهه ويوفى ثوابه ، وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به .

فرضية القتال في سبيل الله

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ شاق عليكم مكروه طبعًا ، وهو مصدر نعت به للمبالغة ، أو فعل بمعني مفعول كالخبز . وقرىء بالفتح على أنه لغة فيه كالضعف والضعف ، أو بمعني الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (١) .

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وهو جميع ما كلفوا به ، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم . ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه ، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضى بها إلى الردى ، وإنما ذكر عسى لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما هو خير لكم ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينها .

الآيتان ٢١٧ : ٢١٨

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾

متى يباح القتال في الشهر الحرام ؟

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ روي أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ابن عمته علي سرية في جمادي الآخرة ـ قبل بدر بشهرين ـ ليترصّد عيراً لقريش فيها

(١) الأحقاف : ١٥ .

عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف ، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ، ويبذعر فيه الناس إلي معايشهم . وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتي تنزل توبتنا ، ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة فى الإسلام) والسائلون هم المشركون كتبوا إليه فى ذلك تشنيعاً وتعييراً وقيل أصحاب السرية . ﴿ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام . وقرئ عن قتال بتكرير العامل . ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ أى ذنب كبير ، والأكثر أنه منسوخ بقوله تعالي :﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (١) خلافا لعطاء وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف ، والأولى منع دلالة الآية علي حرمة القتال في الشهر الحرام مطلقا فإن قتال فيه نكرة في حيز مثبت فلا يعم . ﴿ وَصَدٌّ ﴾ صرف ومنع. ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى الإسلام ، أو ما يوصل العبد إلي الله سبحانه وتعالى من الطاعات . ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ أى بالله ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ على إرادة المضاف أى وصد المسجد الحرام كقول أبى دؤاد (٢) :

أكلَّ امرىءٍ تَحسبينَ امرأً ... وَنارٍ توقدُ بالليلِ نَارا

ولا يحسن عطفه على ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأن عطف قوله ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ علي ﴿ وَصَدٌّ ﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف علي الموصول علي العطف علي الصلة ولا علي الهاء فى به ، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبى ﷺ والمؤمنون . ﴿ أَكْبَرُ

---

(١) التوبة : ٥ .

(٢) البيت لأبى دؤاد الإيادى واسمه جارية بن الحجاج .

واستشهد به النحاة علي جواز حذف المضاف والتقدير : وكلَّ نارٍ .

راجع شرح ابن عقيل للألفية باب الإضافة جـ ٢ ص ١٦٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

عندَ اللَّه ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن ، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش . وأفعل مما يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أى ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه من قتلى الحضرمى (١) .

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتي يردوهم عن دينهم ، وحتى للتعليل كقولك أعبد الله حتى أدخل الجنة . ﴿ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواثق بقوته : علي قرنه إن ظفرت بى فلا تبق علي ، وإيذان بأنهم لا يردونهم .

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ قيد الردة بالموت عليها فى إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، والمراد بها الأعمال النافعة ، قرئ حَبَطت بالفتح وهى لغة فيه . ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ لبطلان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية . ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ بسقوط الثواب . ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كسائر الكفرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نزلت أيضا فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر . ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ ثوابه ، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع فى الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لما فعلوه خطأ وقلة احتياط . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بإجزال الأجر والثواب .

---

(١) الحضرمى : هو عمرو بن الحضرمي وكان في تجارة لقريش ، وقُتل فى هذه السرية التي كان على رأسها من المسلمين عبد الله بن جحش .

راجع خبر هذه السرية في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٦ .

الآيتان من ٢١٩ : ٢٢٠

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾

أول ما نزل فى تحريم الخمر

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ روى (أنه نزل بمكة قوله تعالي : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [١] فأخذ المسلمون يشربونها ، ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا : أفتنا يا رسول

---

(١) النحل : ٦٧ .

* الإعجاز العلمى

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

من الإعجاز فى هذه الآية الإشارة إلى تحريم الخمر منذ زمن نزول القرآن ثم يأتي العلم الحديث الآن ليبين للناس الكثير من أضرار تناول الخمر .

وسوف نتعرض لأخطار الكحوليات والمسكرات فى أكثر من موضع فى هذا التفسير ونقول بداية إن من أضرار إدمان الخمر :

١ ـ التليف الكبدي : تحول خلايا الكبد الحية إلي خلايا ميتة .

٢ ـ التهابات البنكرياس : يفقد خلايا البنكرياس القدرة على إفراز هرمونات .

٣ ـ يؤثر الكحول على قشرة المخ وهي الجزء المسئول عن التفكير والإدراك والتحكم العضلى .

الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال . فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا ، فأم أحدهم فقرأ : ﴿قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون﴾ فنزلت ﴿ **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ﴾ (١) فقلَّ من يشربها ، ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصاري بلحى بعير فشجه ، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿**إنما الخمر والميسر**﴾ إلى قوله ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ فقال عمر رضي الله عنه انتهينا يا رب) .

والخمر في الأصل مصدر خمره إذا ستره ، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل ، كما سمي سكرًا لأنه يسكره أى يحجزه ، وهي حرام مطلقًا وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة رحمه الله

---

(١) النساء : ٤٣ .

* الإعجاز العلمى

٤ ـ يؤدى تعاطى الخمور إلي تفاقم المرض الجلدى المعروف باسم « البورفيريا » الذى يجعل الجلد شديد الحساسية لأشعة الشمس .

٥ ـ يؤدى تعاطى الخمور إلي تمدد الأوعية الدموية الموجودة داخل جدار المعدة والأمعاء نتيجة تخمر المواد الكحولية مما يؤدى إلى امتصاص المواد البروتينية قبل امتصاصها بالكامل .

٦ ـ يؤدى تعاطى الخمور إلى نقص تمثيل مادة الزنك داخل الجسم مما ينتج عنه فقدان الشهية للطعام أو التهابات المعدة .

٧ ـ التأثير السيئ على المراكز العصبية لمهاجمة الكحوليات مراكز المخ العليا الراقية مما يجعل شارب الخمر يفقد الوعى والإحساس فيصبح غير قادر على التصرف السليم .

تعالي : نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر .

والميسر أيضا مصدر كالموعد ، وسمى به القمار لأنه أخذ مال الغير بيسر أو سلب يساره ، والمعنى يسألونك عن تعاطيهما لقوله تعالي .

﴿ **قُلْ فِيهِمَا** ﴾ أى فى تعاطيهما . ﴿ **إِثْمٌ كَبِيرٌ** ﴾ من حيث إنه يؤدى إلى الانتكاب [1] عن المأمور ، وارتكاب المحظور . وقرأ حمزة والكسائى وابن كثير بالثاء . ﴿ **وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ من كسب المال والطرب والالتذاذ ومصادقة الفتيان ، وفى الخمر خصوصا تشجيع الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة . ﴿ **وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ أى المفاسد التي تنشأ منها أعظم من المنافع المتوقعة منهما ، ولهذا قيل إنها المحرمة للخمر لأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل ، والأظهر أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة .

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ﴾ قيل سائله أيضا عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المنفق والمصرف ، ثم سأل عن كيفية الإنفاق . ﴿ **قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ العفو نقيض الجهد ومنه يقال للأرض السهلة ، وهو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد . قال :

خُذِى العفْوَ منِّى تَسْتَدِيمى مَوَدَّتى وَلا تَنْطقِى فِى سَورَتِى حِيْنَ أغْضَبُ [2]

وروي (أن رجلاً أتي النبى ﷺ ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال: خذها منى صدقة ، فأعرض ﷺ عنه حتي كرر عليه مراراً فقال : **هاتها** مغضباً فأخذها فحذفها حذفًا لو أصابه لشجه ثم قال : « **يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى** » [3]) وقرأ أبو

(١) الانتكاب : الابتعاد .

(٢) قال هذا البيت أسماء بن خارجة النزاري أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها، فى أبيات أخرى من عيون الحكمة

والمقصود بالعفو : الشيء السهل اليسير ، والسَّوْرة : شدة الغضب .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه وابن حبان والبزار والدارمى وأبو يعلى وابن أبى شيبة وغيرهم =

عمرو برفع العفو . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ أى مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد ، أو ما ذكر من الأحكام ، والكاف فى موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيينا مثل هذا التبيين ، وإنما وحد العلامة والمخاطب به جمع علي تأويل القبيل والجمع ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى الدلائل والأحكام .

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ فى أمور الدارين فتأخذون بالأصلح والأنفع فيهما ، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم ، أو يضركم أكثر مما ينفعكم .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ لما نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾[1] الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أى مداخلتهم لإصلاحهم ، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم . ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ حث على المخالطة ، أى أنهم إخوانكم فى الدين ومن حق الأخ أن يخالط الأخ . وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح ، أى يعلم أمره فيجازيه عليه . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ أى ولو شاء الله إعناتكم لأعنتكم ، أى كلفكم ما يشق عليكم من العنت وهى المشقة ولم يجوز لكم مداخلتهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب يقدر على الإعنات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة .

= من أصحاب المسانيد من حديث جابر بن عبد الله . رضي الله عنه .

(١) النساء : ١٠ .

الآيتان من ٢٢١ : ٢٢٢

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾

تحريم المشركات

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ أى ولا تتزوجوهن . وقرئ بالضم أى ولا تزوجوهن من المسلمين ، والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالي : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [١] إلى قوله ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٢] ولكنها خصت عنها بقوله ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [٣] روى (أنه ﷺ بعث مرثداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين ، فأتته عناق وكان يهواها فى الجاهلية فقالت : ألا تخلو . فقال : إن الإسلام حال بيننا قالت : هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أستأمر رسول الله ﷺ فاستأمره) فنزلت [٤] .

﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ أى ولامرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة ، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه . ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ بحسنها وشمائلها ، والواو للحال بمعني إن وهو كثير . ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾ ولا

---

(١) التوبة : ٣٠ .

(٢) التوبة : ٣١ . (٣) المائدة : ٥ .

(٤) رواه الواحدى فى أسباب النزول من تفسير ابن الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

تزوجوا منهم المؤمنات حتي يؤمنوا ، وهو علي عمومه . ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ تعليل للنهى عن مواصلتهم ، وترغيب فى مواصلة المؤمنين .

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى الكفر المؤدى إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم . ﴿ وَاللَّهُ ﴾ أى وأولياؤه ، يعنى المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيما لشأنهم . ﴿ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ أى إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بتوفيق الله تعالى وتيسيره ، أو بقضائه وإرادته .

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لكي يتذكروا ، أو ليكونوا بحيث يرجى منهم التذكر لما ركز فى العقول من ميل الخير ومخالفة الهوي .

النهى عن إتيان النساء فى أثناء الحيض

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ روى (أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحَيَّضَ ولا يؤاكلونها ، كفعل اليهود والمجوس ، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو

*** الإعجاز العلمى**

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾

ها هو ذا كتابنا المقدس العظيم القرآن الكريم يحثنا على الأهتمام بأمر من الأمور الهامة فى الدين والدنيا وهو الحيض ، فإن مبحث الحيض بالنسبة للدنيا أهم مؤشر لبدء الحياة التناسلية للمراة وأول علامة من علامات الحمل كما أن انتهاء هذه الدورة أي توقف الحيض هو أهم علامة لوصول المرأة لسن اليأس .

ومن الناحية الدينية فهناك أمور تتعلق بالعبادات يمتنع أداؤها أثناء فترة الحيض كالصلاة والصوم والطواف وقراءة القرآن ومس المصحف واللبث فى المسجد والجماع .

الدحداح في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت) . والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالي إنما ذكر يسألونك بغير واو ثلاثًا ، ثم بها ثلاثا لأن السؤالات الأول كانت فى أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع . ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أى الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقربه نفرة منه . ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ فاجتنبوا مجامعتهن لقوله ﷺ « **إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم** » [١] .وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود ، وتفريط النصاري فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض . وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعارا بأنه العلة .

---

(١) رواه الزمخشرى فى الكشاف ، وقال ابن حجر محقق أحاديث الكشاف : لم أجده .

* الإعجاز العلمى

وللحيض فى اللغة أسماء مثل الطمث ـ العراك ـ الضحك ـ الاكبار ـ الإعصار ـ القرء .

إن مدة الحيض ودورته تختلف من امرأة إلي أخرى بل تختلف في المرأة ذاتها من حين لآخر في حياتها التناسلية .

وهى فى أغلب الأحيان تحتسب الدورة من نهاية الحيض إلى بداية الحيضة التي تليها وتكون فى أغلب النساء ٢٨ يوما قد تزيد أو تنقص يوما أو يومين .

وقد قيست كمية الدم النازل في فترة الحيض وزنا وحجما وهي تختلف كما قلنا من أمرأة إلى أخرى فوجد ما بين أوقيتين « ٦٠ ملم » إلى ثمان أوقيات « ٢٤٠ مليمتر » .

أما لون دم الحيض فهو أسود ، ودم الحيض لا يتجلط .

ويتضح الإعجاز العلمى فى إخبار القرآن لنا بضرورة اعتزال النساء فى الحيض وعدم الاتصال بها جنسيا وذلك لأن حساسية جدار المهبل تزداد خلال فترة المحيض ويكون جدار الرحم ملتهبا جدا ومتقرحا ويكون أشبه بمنطقة الجلد المتسلخ فتقل مقاومته لعدوان الميكروبات التى قد تغزوه ويكون بيئة مناسبة لتكاثر ونمو الميكروبات لأن الدم أفضل بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها .

﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته ، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحا قراءة حمزة والكسائى وعاصم فى رواية ابن عباس يطهرن أى يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاما قوله ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل . وقال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل . ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى المأتي الذى أمركم الله به وحلله لكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ من الذنوب . ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أى المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض والإتيان فى غير المآتي .

* الإعجاز العلمى

ويصبح دخول الميكروبات الموجودة علي سطح ذكر الإنسان في حالة الجماع أثناء المحيض يشكل خطرا داهما علي الرحم حيث أن مقاومته فى هذا الوقت للميكروبات تكون منعدمة .

ومن المعلوم أن علي جلد قضيب الإنسان ميكروبات عديدة لكن المواد المطهرة والإفراز الحامض للمهبل تقتلها أثناء طهر المرأة أى فى غير وقت المحيض ، أما فى أثناء المحيض فأجهزة الدفاع تكون مشلولة والبيئة صالحة لتكاثر الميكروبات .

كما أن المرأة فى ذلك الوقت تصاب بانحراف في مزاجها فتعانى من التوتر والقلق وتصبح فى حالة عصبية وتنخفض رغبتها الجنسية فالجماع في هذا الوقت ليس فيه مراعاة للحالة النفسية والجسمية للمرأة .

وصدق الله العظيم خالق كل شيء ومقدر كل شيء .

﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾

من أجمل ما قاله الشيخ « محمد متولى الشعراوي » فى تفسير هذه الآية أنه فسرها بالآية التي تليها ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ فقال فضيلته ما معناه :

إن الحرث يكون في الأرض « أى فى المكان » الصالح للإنبات فغير معقول أن تحرث فى مكان لا ينبت ، من هنا نفهم أن الله سبحانه وتعالي يأمرنا أن نأتى النساء في عضو التأنيث .

الآيات من ٢٢٣ : ٢٢٦

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) ﴾

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ مواضع حرث لكم . شبههن بها تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ أى فائتوهن كما تأتون المحارث . وهو كالبيان لقوله تعالي : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ من أي جهة شئتم ، روي (أن اليهود كانوا يقولون : من جامع امرأته

* **الإعجاز العلمى**

وسبب ذلك أن الاتصال الجنسى بالمرأة في غير عضو التأنيث يسبب أضرارا بالغة على الرجل والمرأة .

لأن فتحة الشرج عند المرأة هى آخر منطقة المستقيم فى الأمعاء الغليظة تكثر فيها البكتريا التي تساعد على هضم المواد السيلولوزية وهذه المنطقة مدعمة تكوينيا ضد البكتريا ومن ثم فإن انغماس عضو التذكير بها وهو غير مدعم تكوينينا ضد هذه الأنواع من البكتريا يعرضه لأمراض تلحق به ضعفا فى المجال الجنسى غير الإصابة بأمراض مثل الالتهاب في مجرى البول قد يصل إلى البروستاتا وقد يسبب العقم كما يحدث للمرأة تشققات فى فتحة الشرج والتهابات .

كما أنه يفقد المرأة حقها الطبيعى فى الاستمتاع الجنسي والذى لا يكون إلا فى موضعه الطبيعى .

ـ وها هو ميكروب « الأيدز » جاء ليلفت نظرنا إلي تلك الآية الكريمة التي نزلت منذ خمسة عشر قرنا من الزمان .

من دبرها في قبلها كان ولدها أحول ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت)[١] ﴿ **وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ** ﴾ ما يدخر لكم من الثواب . وقيل هو طلب الولد . وقيل التسمية عند الوطء . ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ بالاجتناب عن معاصيه . ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ** ﴾ فتزودوا ما لا تفتضحون به ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الكاملين فى الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم . أمر الرسول ﷺ أن ينصحهم ويبشر من صدقه وامتثل أمره منهم .

من أسباب نزول آية الأيمان

﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾

نزلت فى الصديق رضى الله عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضى الله تعالى عنها ، أو فى عبد الله بن رواحة حلف أن لا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته . والعرضة فعله بمعنى المفعول كالقبضة تطلق لما يعرض دون الشيء وللمعرض للأمر ، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير ، فيكون المراد بالأيمان الأمور المحلوف عليها ، كقوله ﷺ لابن سمرة « **إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك** »[٢] .وأن مع صلتها عطف بيان لها ، واللام صلة عرضة لما فيها من معنى الاعتراض ، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعرضة أى ولا تجعلوا الله عرضة لأن تبروا لأجل أيمانكم به ، وعلى الثانى ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به ، ولذلك ذم الحلاف بقوله ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ** ﴾[٣] وأن تبروا علة للنهى أى أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس ، فإن الحلاَّف مجترئ على الله تعالى ، والمجترئ عليه لا يكون براً متقياً ولا موثوقاً به فى إصلاح ذات البين ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ** ﴾ لأيمانكم . ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بنياتكم .

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره مطولا من حديث أم سلمة رضى الله عنها جـ ٣ ص ٣٨١ .

(٢) رواه ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٣٩٠ وعزاه إلى مسلم من حديث أبى هريرة .

(٣) القلم : ١٠ .

اليمين اللغو

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ اللغو الساقط الذى لا يعتد به من كلام غيره ، ولغو اليمين ما لا عقد معه كما سبق به اللسان ، أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب : لا والله وبلى والله ، لمجرد التأكيد لقوله ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ والمعنى لا يؤاخذكم الله بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطات فيها قلوبكم ألسنتكم . وقال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب ، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطاتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه. ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿ حَلِيمٌ ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة علي يمين الجد تربصًا للتوبة .

الإيلاء

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ أى يحلفون على أن لا يجامعوهن . والإيلاء: الحلف ، وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدى بمن. ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ مبتدأ وما قبله خبره ، أو فاعل الظرف على خلاف سبق ، والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع ، أى للمولى حق التلبث فى هذه المدة فلا يطالب بفيء ولا طلاق ، ولذلك قال الشافعي : لا إيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿ فَإِن فَاءُوا ﴾ رجعوا فى اليمين بالحنث ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ للمولى إثم حنثه إذا كفر ، أو ما توخى بالإيلاء من ضرار المرأة ونحوه ، بالفيئة التى هى كالتوبة .

الآيتان من ٢٢٧ : ٢٢٨

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ ﴾ وإن صمموا قصده ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لطلاقهم. ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بغرضهم فيه ، وقال أبو حنيفة : الإيلاء فى أربعة أشهر فما فوقها ، وحكمه أن المولى إن فاء فى المدة بالوطء إن قدر ، وبالوعد إن عجز ، صح الفيء ولزم الواطئ أن يكفر وإلا بانت بعدها بطلقة . وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ يريد بها الدخول بهن من ذوات الأقراء لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر . ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيير العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يسارع إلى امتثاله ، وكأن المخاطب قصد أن يمتثل الأمر فيخبر عنه كقولك فى الدعاء : رحمك الله ، وبناؤه على المبتدأ بزيادة فضل تأكيد ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ تهييج وبعث لهن علي التربص ، فإن نفوس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعنها ويحملنها على التربص .

﴿ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ نصب على الظرف ، أو المفعول به . أى يتربصن مضيها . وقروء جمع قرء وهو يطلق للحيض ، كقوله ﷺ « **دعى الصلاة أيام أقرائك** » وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشي :

مُورَّثَةً مَالاً وَفِي الحَيِّ رِفْعَةً ... لَما ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا[1]

---

(١) رواه صاحب الكشاف واقتصر على عجز البيت فقط ، ورواه محقق الكشاف بلفظ: مؤثلة مالا وفى الحى رفعة .

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض ، وهو المراد به فى الآية لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض ، كما قاله الحنفية لقوله تعالى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ (١) أى وقت عدتهن . والطلاق المشروع لا يكون في الحيض ، وأما قوله ﷺ : « **طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان** » (٢) فلا يقاوم ما رواه الشيخان فى قصة ابن عمر « **مره فليراجعها ، ثم ليمسكها حتي تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء** » (٣) . وكان القياس أن يذكر بصيغة القلة التي هى الأقراء ، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر ، ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها .

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الولد ، أو الحيض استعجالاً فى العدة وإبطالاً لحق الرجعة ، وفيه دليل على أن قولها مقبول فى ذلك . ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ليس المراد منه تقييد نفى الحل بإيمانهن ، بل التنبيه على أنه ينافى الإيمان ، وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغي له أن يفعل .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ أى أزواج المطلقات . ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن ، ولكن إذا كان الطلاق رجعيا للآية التي تتلوها فالضمير أخص من المرجوع إليه ولا امتناع فيه ، كما لو كرر الظاهر وخصصه . والبعولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤولة ، أو مصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أى وأهل بعولتهن ، وأفعل ههنا بمعني الفاعل . ﴿ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى زمان التربص . ﴿ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ بالرجعة لا لإضرار

والشاعر يخاطب جاراً له . وفسر المحقق : القروء بالأطهار .

(١) الطلاق : ١ .

(٢) رواه الشوكاني فى نيل الأوطار جـ ٦ ص ٢٩٠ باب الاعتداد بالأقراء وتفسيرها .

(٣) رواه الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٦ ص ٢٢١ باب النهى عن الطلاق فى الحيض وفى الطهر بعد أن يجامعها .

المرأة ، وليس المراد منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرر .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى ولهن حقوق علي الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها ، لا فى الجنس .

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه ، لأن حقوقهم فى أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها ، أو شرف وفضيلة لأنهم قوام عليهن وحراص لهن يشاركوهن في غرض الزواج ويخصون بفضيلة الرعاية والإنفاق . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يقدر علي الانتقام ممن خالف الأحكام . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ . يشرعها لحكم ومصالح .

الآيتان من ٢٢٩ : ٢٣٠

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾

من أحكام الطلاق

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾ أى التطليق الرجعي اثنان لما روي (أنه ﷺ سُئِلَ أين الثالثة ؟ فقال عليه ﷺ أو تسريح بإحسان) [١] . وقيل : معناه التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة علي التفريق ، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين

(١) رواه الدارقطني من رواية عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس رضي الله عنه .

والثلاث بدعة . ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة ، وهو يؤيد المعني الأول . ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ بالطلقة الثالثة ، أو بأن لا يراجعها حتي تبين ، وعلي المعنى الأخير حكم مبتدأ أو تخيير مطلق عقب به تعليمهم كيفية التطليق .

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ أى من الصدقات . روي (أن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شيء، والله ما أعيبه فى دين ولا خلق ولكني أكره الكفر فى الإسلام ، وما أطيقه بغضا إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى جماعة من الرجال ، فإذا هو أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهًا) فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها (١) .

والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند الترافع . وقيل إنه خطاب للأزواج وما بعده خطاب للحكام وهو يشوش النظم على القراءة المشهورة . ﴿ إِلَّا أَن يَخَافَا ﴾ أى الزوجان . وقرئ يظنا وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن .

﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية . وقرأ حمزة ويعقوب يخافا علي البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال . وقرئ تخافا وتقيما بتاء الخطاب . ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أيها الحكام . ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ على الرجل فى أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت ، وعلي المرأة فى إعطائه .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلي ما حد من الأحكام . ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ فلا تتعدوها بالمخالفة . ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ تعقيب للنهى بالوعيد مبالغة فى التهديد ، واعلم أن ظاهر الآية يدل علي أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق ، ولا بجميع ما ساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد ،

---

(١) رواه الشوكاني فى نيل الأوطار جـ٦ ص ٢٤٦ كتاب الخلع ، وقال رواه ابن ماجه .

ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة »[1] وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة : « أتردين عليه حديقته ؟ فقالت : أردها وأزيد عليها ، فقال ﷺ أما الزائد فلا ». والجمهور استكرهوه ولكن نفذوه فإن المنع عن العقد لا يدل على فساده ، وأنه يصح بلفظ المفاداة ، فإنه تعالى سماه افتداء . واختلف فى أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق ، ومن جعله فسخا احتج بقوله :﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ فإن تعقيبه للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضى أن يكون طلقة رابعة لو كان الخلع طلاقا . والأظهر أنه طلاق لأنه فرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعوض . وقوله فإن طلقها متعلق بقوله ﴿ الطلاق مرتان ﴾ أو تفسير لقوله ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ اعترض بينهما ذكر الخلع دلالة علي أن الطلاق يقع مجانًا تارة وبعوض أخرى ، والمعني فإن طلقها بعد الثنتين .

﴿ فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ ﴾ من بعد ذلك الطلاق . ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ حتي تتزوج غيره ، والنكاح يستند إلى كل منهما كالتزوج ، وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد كابن المسيب واتفق الجمهور علي أنه لا بد من الإصابة لما روي (أن إمرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ : إن رفاعة طلقنى فبتَّ طلاقى ، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدبة الثوب . فقال رسول الله ﷺ : « أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ قالت : نعم ، قال : لا حتي تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك »)[2] . فالآية مطلقة قيدتها السنة ، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة ، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج . والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها ، والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر . وجوزه أبو حنيفة مع الكراهة ، وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له .

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ ١ ص ١٢٠ وقال أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث ثوبان ورمز له بالحسن .

(٢) رواه عبد الرزاق فى مصنفه مطولا قال أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة .

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني ، ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا ﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلي الآخر بالزواج . ﴿ إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حدده الله وشرعه من حقوق الزوجية ، وتفسير الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم ، ولأنه لا يقال علمت أن يقوم زيد لأن أن الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم . ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي الأحكام المذكورة . ﴿ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم .

الآية ٢٣١

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي آخر عدتهن ، والأجل يطلق للمدة ولمنتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال :

كُلُّ حَيٍ مُسْتَكْمِلٍ مُدَّةَ العُمُرِ وَمَوتٌ إِذَا انْتَهَى أَجَلُه (١)

والبلوغ هو الوصول إلي الشيء ، وقد يقال للدنو منه علي الاتساع ، وهو المراد في الآية ليصح أو يرتب عليه . ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل ، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار ، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل ، وهو إعادة للحكم في بعض

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف بلفظ :

ومودٍ إذا انتهى أمده

ومود أي هالك . ولم ينسبه المحقق إلي أحد .

صوره للاهتمام به . ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً ﴾ ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن ، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهى عنه بعد الأمر بضده مبالغة . ونصب ضراراً علي العلة أو الحال بمعنى مضارين . ﴿ لِّتَعْتَدُوا ﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء ، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها للعقاب .

﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد فى الأمر إنما أنت هازئ ، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده . وقيل : (كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول : كنت ألعب) فنزلت. وعنه ﷺ : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد ، الطلاق والنكاح والعتاق »[1] ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التى من جملتها الهداية ، وبعثة محمد ﷺ بالشكر والقيام بحقوقها . ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهارا لشرفهما . ﴿ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ بما أنزل عليكم . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تأكيد وتهديد .

الآية ٢٣٢

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى انقضت عدتهن ، وعن الشافعى

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ١ ص ١٤٠ وقال أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، ورمز له بالحسن .

رحمه الله تعالى دل بسياق الكلامين على افتراق البلوغين . ﴿ **فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ** ﴾ المخاطب به الأولياء لما روي (أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلاء أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئناف) فيكون دليلاً على أن المرأة لا تزوج نفسها ، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى ، ولا يعارض بإسناد النكاح إليهن لأنه بسبب توقفه على إذنهن . وقيل الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد مضي العدة ولا يتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً ، لأنه جواب قوله وإذا طلقتم النساء . وقيل الأولياء والأزواج . وقيل الناس كلهم ، والمعنى : لا يوجد فيما بينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له . والعضل الحبس والتضييق منه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها لم يخرج .

﴿ **إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم** ﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأن ينكحن أو لا تعضلوهن . ﴿ **بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة ، حال من الضمير المرفوع ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو تراضيا كائنا بالمعروف . وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهي عنه . ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما مضى ذكره ، والخطاب للجميع على تأويل القبيل ، أو كل واحد ، أو أن الكاف لمجرد الخطاب . والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين ، أو للرسول ﷺ على طريقة قوله ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ (١) للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يتصوره كل أحد . ﴿ **يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع . ﴿ **ذَلِكُمْ** ﴾ أي العمل بمقتضي ما ذكر . ﴿ **أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ أنفع . ﴿ **وَأَطْهَرُ** ﴾ من دنس الآثام . ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ** ﴾ ما فيه النفع والصلاح . ﴿ **وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ لقصور علمكم .

---

(١) الطلاق : ١ .

الآية ٢٣٣

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة ومعناه الندب، أو الوجوب فيخص بما إذا لم يرتضع الصبى إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر ، أو عجز الوالد عن الاستئجار . والوالدات يعم المطلقات وغيرهن . وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن . ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أكده بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه . ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ بيان للمتوجه إليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة ، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة ، والأم ترضع

* الإعجاز العلمى

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾

يقول الدكتور عبد المحسن صالح ، مجلة الوعى الإسلامى عدد أكتوبر ١٩٨٤ »

« إن البحوث التى قام بها العلماء توضح بدقة أن أول رضعة يستقبلها الرضيع من ثدى أمه أثناء اليومين الأولين بعد ولادته ، تحتوى علي تركيزات عالية من بروتينات خاصة مضادة لنمو الميكروبات التي تسبب الأمراض . . وهى ما يطلق عليها اسم الأجسام المضادة ، وهذه الأجسام من العوامل المهمة التى تقف بجوار الوليد ، وهو لا يزال فى أشد حالات ضعفه . . فلبن الأم معقم بطبيعته ، وليس به ميكروبات تسبب نزلات معدية أو معوية ، وهو جاهز في كل وقت تحت طلب الطفل ، كما أن تركيبه يتغير تبعًا لاحتياجات الطفل وتغير سنه .

له . وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه .

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أى الذى يولد له يعني الوالد ، فإن الولد يولد له وينسب إليه . وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضي لوجوب الإرضاع ومؤن المرضعة عليه . ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ أجرة لهن ، واختلف في استئجار الأم ، فجوزه الشافعي ، ومنعه أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما دامت زوجة أو معتدة نكاح . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ حسب ما يراه الحاكم ويفى به وسعه . ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييد بالمعروف ، ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه وذلك لا يمنع إمكانه . ﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ تفصيل له وتقرير ، أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما ليس فى وسعه ، ولا يضاره بسبب الولد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لا تضار بالرفع بدلا من قوله لا تكلف ، وأصله على القراءتين تضارر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول ، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أى لا يضر الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له . وقرئ لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره ، وإضافة الولد إليها تارة وإليه

*** الإعجاز العلمى**

= **كما وجد أن اللبن الذى يعطى للطفل له دخل كبير في تكوين جسم الطفل وعقله وسلوكه ؛ لأن الطفل يتأثر باللبن الذى يتعاطاه في حياته الأولى ، ولأن جسمه وعقله يكونان في دور التكوين والبناء .**

وقد ثبت علمياً أهمية الرضاعة الطبيعية فى حماية الأطفال من الإصابة بضغط الدم، فهؤلاء أقل عرضه للإصابة بضغط الدم من الأطفال الذين يعتمدون فى غذائهم على الألبان الصناعية ، نظراً لتناسب تكوين لبن الأم مع احتياجات الطفل ، وانخفاض نسبة أملاح الصوديوم فى لبن الأم عنه فى اللبن الصناعى .

وتقول الأبحاث العلمية إن أعراض ضغط الدم فى الأطفال قد تكون على هيئة =

أخري استعطاف لهما عليه ، وتنبيه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضرا به ، أو أن يتضارا بسببه .

﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ عطف علي قوله وعلي المولود له رزقهن وكسوتهن ، وما بينهما تعليل معترض . والمراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي أي مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب . وقيل الباقي من الأبوين من قوله ﷺ : « واجعله الوارث منا » ، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لا نفقة عنده فيما عدا الولادة . وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى . وقيل وارثه المحرم منه ، وهو مذهب أبي حنيفة . وقيل عصابته وبه قال أبو زيد وذلك إشارة إلي ما وجب على الأب من الرزق والكسوة . ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾ أي فصالاً صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين ، والتشاور والمشاورة والمشورة واستخراج الرأي ، من شُرْتُ العسل إذا استخرجته . ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الطفل ، وحذراً أن يقدم أحدهما علي ما يَضُرُّ به لغرض أو غيره .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ ﴾ أي تسترضعوا المراضع لأولادكم ، يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها إياه ، كقولك أنجح الله حاجتي

* الإعجاز العلمي

= صداع وزغللة وقيء . . وكذلك يصاب الطفل بالعصبية الزائدة والتشنجات ، وهنا تتضح حكمة الإسلام العلمية عندما أمر الأمهات برضاعة أطفالهن رضاعة طبيعية .

وقد ثبت أن لبن الأم يحمي الأطفال الرضع من كثير من الأمراض ، إلى أن يحين الوقت لنضوج جهاز المناعة عندهم للاعتماد عليه في التعامل مع الميكروبات والطفيليات التي يتعرضون لها .

هذا . . والجديد في ذلك الموضوع هو أن لبن الأم يستطيع أن يقتل طفيلا دقيقا يعرف باسم « جيارديا » . . وهو من الحيوانات الأولية الدقيقة التي قد تصيب أمعاء الأطفال ، وقد تبقى الإصابة لسنوات طويلة ، لكن الغريب أن كفاءة لبن الأم تقتل هذا الطفيل . =

واستنجحته إياها ، فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه وإطلاقه يدل على أن للزوج أن يسترضع الولد ويمنع الزوجة من الإرضاع . ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم ﴾ إلى المراضع . ﴿ مَّا آتَيْتُم ﴾ ما أردتم إيتاءه كقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ [1] وقراءة ابن كثير ما أتيتم ، من أتى إليه إحسانًا إذا فعله . وقرئ أوتيتم أى ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة .

(1) المائدة : ٦ .

* الإعجاز العلمي

ولقد تمكن العلماء من عزل المادة الفعالة في لبن الأمهات ، واتضح أنها إحدى مكونات الصفراوية التي تجيء علي هيئة خميرة (أنزيم) منشطة .

ولقد جُرِّبت هذه المادة على طفيليات أخري مثل الطفيل الذى يسبب مرض الدوسنطاريا الأميبية فقتلته . . أما كيف يقوم هذا الأنزيم بعملية الإبادة فلا أحد يعرف سر ذلك حتي الآن .

إن لبن الأم ينمي ذكاء الطفل . . وقد ثبت أن الأطفال الذين اعتمدوا فى طفولتهم علي الرضاعة الطبيعية هم أكثر ذكاء من غيرهم .

والسبب فى ذلك . . هو أن أسرع مرحلة لنمو المخ فى الإنسان تكون في العام الأول من حياته . . وخلال هذه الفترة يكون في حاجة إلى مواد غذائية كاملة ومتوازية ، وهى لا تتوافر بالشكل المطلوب إلا في لبن الأم فقط .

وأى نقص يتعرض له الطفل غالبا ما يؤدى إلي نقص فى القدرات العقلية للأطفال . . كما ثبت علميا أن الأطفال الذين يتناولون الألبان الصناعية يتعرضون للإصابة بالنزلات المعوية ، والنزلات الشعبية أكثر من الأطفال الذين يرضعون ألبان أمهاتهم . . وفوق ذلك نجد أن الطفل يشعر بالأمان والاستقرار بين ذراعى أمه ، فينشأ الطفل نفسيا واجتماعيا نشأة صحيحة .

تلك هى فوائد الرضاعة للطفل . . أما فوائدها بالنسبة للأم فقد ثبت علميا أن الرضاعة تقلل من احتمال الإصابة بسرطان الثدى ، فقد وجد أن المرضعات هن أقل النساء تعرضا للإصابة بهذا المرض الخبيث ، وأنه كلما أكثرت المرأة من الرضاعة ،

﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾صلة سلمتم ، أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعًا . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الأولي والأصلح للطفل . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ مبالغة في المحافظة علي ما شرع في أمر الأطفال والمراضع . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ حث وتهديد .

* الإعجاز العلمي

= كان ذلك أدعي لحمايتها من سرطان الثدى .

كما ثبت أن الرحم يعود إلي وضعه وحجمه الطبيعي بسرعة أثناء الرضاعة . . ذلك لأن امتصاص الثدى يؤدى إلى إفراز هرمون من الغدة النخامية يدعى الأوكسيتوسين Oxytocin الذى يؤدى بدوره إلى انقباض الرحم ، وعودته إلى حالته الطبيعية .

يضاف إلى ذلك أن الإرضاع من الثدى هو أحد العوامل الطبيعية لمنع الحمل . . وهي وسيلة خالية من المضاعفات التي تصحب استعمال حبوب منع الحمل أو اللولب أو الحقن . . الخ .

فمص حلمة الثدى يحرض على إفراز هرمون البرولاكتين من الفصّ الأمامى للغدة النخامية .

والبرولاكتين يزيد من إفراز اللبن من الثدى ، وفي نفس الوقت يقلل من إفرازات الهرمونات المنمية للمبيض : Gonado Trophins وبذلك لا يحدث التبويض ويمتنع الحمل .

فضلا عن ذلك كله يعد الارتباط النفسى والعاطفى بين الأم وطفلها أثناء الرضاعة من أهم العوامل لاستقرار الأم والطفل نفسيا .

الآية ٢٣٤

﴿ وَالَّذِيـنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنـكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنـفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيـمَا فَعَلْنَ فِي أَنـفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

من أحكام العدة

﴿ وَالَّذِيـنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنـكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنـفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾أى أزواج الذين ، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم ، كقولهم السمن منوان بدرهم . وقرئ يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم ، وتأنيث العشر باعتبار الليالى لأنها غرر الشهور والأيام ، ولذلك لا يستعملون التذكير فى مثله قط ذهابا إلى الأيام حتى إنهم يقولون صمت عشرا ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴾ [(١)] ثم ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ

(١) طه : ١٠٣ .

* الإعجاز العلمي

﴿ وَالَّذِيـنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنـكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنـفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾

لم يتوصل العلم الحديث حتي يومنا هذا فى معرفة الحكمة العلمية الطبية التي تجعل المطلقة تتربص بنفسها ثلاث قروء والمتوفى عنها زوجها هي أربعة قروء وعشرا ولعل الأيام القادمة مع تقدم العلوم والبحوث القرآنية العلمية يمكن أن تكشف لنا عن جديد.

ولكن أجمل ما قيل تحت تفسير هذه الآية من الناحية النفسية للمرأة هو ما قاله فضيلة الشيخ / محمد متولى الشعراوي حيث يقول :

والعدة ـ كما عرفنا ـ هى الفترة الزمنية التى شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج . والعدة إما أن تكون بعد طلاق ، وإما بعد وفاة زوج ، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء ، والقرء ـ كما عرفنا ـ هو الحيضة أو الطهر ، فإن كانت

يَوْمًا ﴾(١) ولعل المقتضى لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكرًا ، ولأربعة إن كان أنثى فاعتبر أقصى الأجلين ، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضعف حركته في المبادى فلا يحس بها ، وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية فيه ، كما قاله الشافعي، والحرة والأمة كما قاله الأصم ، والحامل وغيرها ، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة ، والإجماع

(١) طه : ١٠٤ .

* الإعجاز العلمى

= المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح « ثلاثة أشهر » .

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولى أمرها ، وله ذلك فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه في مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أن يراجعها ، ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقى له حق أى لم يستنفد مرات الطلاق .

وقد قلنا : إن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول . وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، هذا إن لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا فعدتها أبعد الأجلين ، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فتلك عدتها ، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهى الحمل . لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهى فى الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن ؟ وهل يعنى ذلك أن عدتها انتهت ؟ لا ، إنها تنتهى بأبعد الأجلين وهو فى هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا ، وإن قال بعض الفقهاء : إن عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكن زوجها متوفًى عنها فعدتها أن تضع حملها ، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة . وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فيقولون : لأنها إن كانت حاملا بذكر =

خص الحامل منه لقوله تعالي : ﴿ أُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾(١) . وعن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطًا : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى انقضت عدتهن . ﴿ فَلا جُنَاحَ

---

(١) الطلاق : ٤ .

* الإعجاز العلمي

فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة شهر ، وإن كانت حاملا بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليال .

ونقول لهم : جزاكم الله خيرا علي تفسيركم ، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة المرأة بمجرد ولادتها ، ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه ، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض ، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر . لكن الله اختصها بأربعة عشر وعشر وفاء لحق زوجها عليها وإكراما لحياتهما الزوجية .

إذن فالله عز وجل جعل المتوفى عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحداً وفاءً للزوج ، فإذا انتهت عدتها أي مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة ، ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ وهو يعنى أن تتزين فى بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها . وقوله تعالي : ﴿ أربعة أشهر وعشرا ﴾ والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال .

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعى فى جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماسا لهم ؛ فالمتوفى عنها زوجها تربصت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها في مدة العدة ، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاء لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال : ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ ، ولم يقل : فلا جناح عليهن .

لقد وجه الخطاب هنا للرجال ؛ لأن كل مؤمن له ولاية علي كل مؤمنة ، فإذا رأى فى سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافي العدة فله أن يتدخل . مثلا إذا رآها تتزين قال

عَلَيْكُمْ ﴾ أيها الأئمة والمسلمون جميعا . ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع ، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهم أن يكفوهن ، فإن قصروا فعليهم الجناح . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه .

*** الإعجاز العلمى**

= لها أو أرسل إليها من يقول لها : لماذا تتزينين ؟ إن قول الله ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ يجعل للرجل قوامة علي المتوفى عنها زوجها .

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتي تنتهى العدة ، وحق المتوفى عنها زوجها في أثناء العدة ، وحمي أيضا بكل التشريعات كرامة المرأة . وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخدش حجابها ، إن عليها عدة محسوبة في هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحق لأحد أن يقترب منها .

لماذا ؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة قد تتملكها رغبة فى أن تثأر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت التزوج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها ، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تستشرف هي من ناحيتها من تراه صالحا كزوج لها . ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمي المرأة حماية موضوعية لا شكلية .

إن التشريع الإسلامي يعالج هذه المأله بدقة وحزم ـ لإنه من إله رحيم ـ لا يهدر عواطف النفس البشرية : لا من ناحية الذي يرغب فى أن يتزوج ، ولا من ناحية المرأة التي تستشرف أن تتزوج .

الآيتان من ٢٣٥ : ٢٣٦

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾

خطبة المرأة في أثناء عدتها

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً ، كقول السائل جئتك لأسلم عليك ، والكناية هي الدلالة علي الشيء بذكر لوازمه وروادفه ، كقولك الطويل النجاد للطويل ، وكثير الرماد للمضياف . والخطبة بالضم والكسر اسم الحالة، غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة ، والمراد بالنساء المعتدات للوفاء ، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقه ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك . ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أو أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحًا ولا تعريضًا .

﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ ولا تصبرون علي السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ . ﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحًا أو جماعًا ، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يسر ثم عن العقد لأنه سبب فيه . وقيل معناه لا تواعدوهن فى السر على أن المعنى بالمواعدة فى السر المواعدة بما يستهجن. ﴿ إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا والمستثني منه محذوف أي : لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة معروفة ، أو إلا مواعدة بقول معروف . وقيل إنه استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى

قولك لا تواعدهن إلا التعريض ، وهو غير موعود . وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة . واختلف في معتدة الفراق البائن والأظهر جوازه .

﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد ، أي ولا تعزموا عقد عقدة النكاح . وقيل معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع .﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ حتي ينتهى ما كتب من العدة . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ من العزم علي ما لا يجوز . ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ ولا تعزموا . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه تعالى . ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة .

الطلاق قبل الدخول

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ لا تبعة من مهر . وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس . وقيل : كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطلاق فظن أن فيه حرجا فنفى ﴿ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أى تجامعوهن . وقرأ حمزة والكسائي تماسوهن بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن . ﴿ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ إلا أن تفرضوا ، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا . والفرض تسمية المهر ، وفريضة نصب على المفعول به بمعنى فعيلة بمعني مفعول . والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية ، ويحتمل المصدر . والمعنى أنه لا تبعة على المطلق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسم لها مهراً ، إذ لو كانت ممسوسة فعليه المسمى ، أو مهر المثل . ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى ، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى ، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الأخيرتين .

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ عطف علي مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن ، والحكمة في إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق ، وتقديرها مفوض إلى رأى الحاكم ويؤيده قوله : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ أى على كل من الذى له سعة ،

والمقتر الضيق الحال ما يطيقه ويليق به ، ويدل عليه قوله ﷺ لأنصارى طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسها « متعها بقلنسوتك » . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : هى درع وملحفة وخمار علي حسب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل ، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التى لم يمسها الزوج ، وألحق بها الشافعى رحمه الله تعالى فى أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً ، وهو مقدم علي المفهوم . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وابن ذكوان بفتح الدال ﴿ مَتَاعًا ﴾ تمتيعًا . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالوجه الذى يستحسنه الشرع والمروءة . ﴿ حَقًّا ﴾ صفة لمتاعاً ، أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقًا . ﴿ عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلي الامتثال ، أو إلى المطلقات بالتمتيع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشارفة ترغيبا وتحريضاً .

الآيات من ٢٣٧ : ٢٣٩

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ لما ذكر حكم المفوضة أتبعه حكم قسيمها ، ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ أى فلهن ، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن ، وهو دليل على أن الجناح المنفى ثم تبعة المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسيمها ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ ﴾ أى المطلقات فلا يأخذن شيئا ، والصيغة تحتمل التذكير والتأنيث ، والفرق فى الأول أن الواو ضمير والنون علامة الرفع والثانى لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه .

﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ أى الزوج المالك لعقده وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً ، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخير للزوج غير مشطر بنفسه ، وإليه ذهب بعض أصحابنا والحنفية . وقيل الولى الذى يلى عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة ، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى .

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلي الوجه الآخر عبارة عن الزيادة علي الحق ، وتسميتها عفواً إما على المشاكلة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج ، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يسترده فقد عفا عنه . وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو . ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم علي بعض ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم .

ضرورة المحافظة على الصلوات

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها ، ولعل الأمر بها فى تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها . ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ أي الوسطى بينها ، أو الفضلى منها خصوصا وهى صلاة العصر لقوله ﷺ يوم الأحزاب « **شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً** » (١) . وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها ، واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله ﷺ « **أفضل العبادات أحمزها** » (٢) وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة . وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد ووتر النهار . وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفى الليل . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها : أنه ﷺ كان يقرأ :

---

(١) أخرجه الطبرى من طريق أبى بشر عن سالم عن حفصة .

(٢) احمزها : أشقها وأشدها .

والصلاة الوسطى صلاة العصر ، فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل . وقرئ بالنصب على الاختصاص والمدح . ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ في الصلاة ﴿ قَانِتِينَ ﴾ذاكرين له في القيام ، والقنوت الذكر فيه وقيل خاشعين ، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من عدو أو غيره . ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو رجل بمعناه كقائم وقيام ، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال المسايفة وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلى حال المشي والمسايفة ما لم يمكن الوقوف . ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ وزال خوفكم . ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ صلوا صلاة الأمن ، أو اشكروه على الأمن . ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ ذكرا مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتى الخوف والأمن ، أو شكراً يوازيه وما مصدرية أو موصولة . ﴿ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ مفعول علمكم .

الآيات من ٢٤٠ : ٢٤٢

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾

حكم آخر في عدة الوفاة

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصية ، أو ليوصوا وصية ، أو كتب الله عليهم وصية ، أو ألزم الذين يتوفون وصية . ويؤيد ذلك قراءة كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه . وقرأ الباقون بالرفع على تقدير ووصية الذين يتوفون ، أو وحكمهم

وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية ، أو كتب عليهم وصية ، أو عليهم وصية وقرئ متاع بدلها . ﴿ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ ﴾ نصب بيوصون إن اضمرت وإلا فبالوصية وبمتاع علي قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتيع . ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول ، أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات ، والمعني : أنه يجب علي الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة ، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله ﴿ أربعة أشهر وعشرا ﴾ وهو وإن كان متقدما فى التلاوة فهو متأخر في النزول ، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن ، والسكني لها بعد ثابتة عندنا خلافا لأبي حنيفة رحمه الله . ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ عن منزل الأزواج .﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها الأئمة . ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ كالتطيب وترك الإحداد . ﴿مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ مما لم ينكره الشرع ، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم . ﴿حَكِيمٌ ﴾ يراعى مصالحهم .

المتعة للمطلقة

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعا بعدما أوجبها لواحدة منهن ، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير لكل مطلقة ، وأول غيره بما يعم التمتيع الواجب والمستحب . وقال قوم المراد بالمتاع نفقة العدة ، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرير القضية .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة .

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ وعد بانه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشا ومعاداً . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها .

الآيات من ٢٤٣ : ٢٤٥

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾

قصة الذين خرجوا من ديارهم خوفا من الموت

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ ، وقد يخاطب به من لم يرو ومن لم يسمع فإنه صار مثلاً في التعجب . ﴿ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ يريد أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين ، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالي وقدره . أو قوما من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلي الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم . ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ أى ألوف كثيرة . قيل عشرة ، وقيل ثلاثون ، وقيل سبعون وقيل متألفون جمع إلف أو آلف كقاعد وقعود والواو للحال . ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ مفعول له . ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ﴾ أى قال لهم موتوا فماتوا كقوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة ، بأمر الله تعالي ومشيئته .

وقيل : ناداهم به ملك وإنما أسند إلي الله تعالي تخويفا وتهويلا . ﴿ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ قيل :مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم ، فتعجب من ذلك فأوحي الله تعالى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالي ، فنادى فقاموايقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة ، وحثهم علي

---

(١) الأنعام : ٧٣ ، النحل : ٤٠ ، مريم : ٣٥ ، يس : ٨٢ ، غافر : ٦٨ .

التوكل والاستسلام للقضاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي ، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه وأن المقدر لا محالة واقع ، أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم فى سبيل الله وإلا فالنصر والثواب ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقوله المتخلف والسابق . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يضمرانه وهو من وراءالجزاء .

الجهاد بالمال

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ من استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء ، وذا خبره ، والذى صفة ذا أو بدله ، وإقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذى به يطلب ثوابه ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ إقراضا حسنًا مقرونًا بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضًا حلالاً طيبًا . وقيل : القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق فى سبيل الله ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ فيضاعف جزاءه ، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة ، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى ، فإن من ذا الذى يقرض الله فى معنى أيقرض الله أحد ، وقرأ ابن كثير فيضعفه بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب . ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى . وقيل الواحد بسبعمائة . وأضعافًا جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب ، أو المفعول الثانى لتضمن المضاعفة معني التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتنويع .

﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ يقتر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته ، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم . وقرأ نافع والكسائي والبزى وأبو بكر بالصاد ومثله فى الأعراف في قوله تعالى ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ [1] ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم .

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

الآيات من ٢٤٦ : ٢٤٨

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

قصة أخرى من قصص بنى إسرائيل

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الملأ جماعة يجتمعون للتشاور ، ولا واحد له كالقوم ومن للتبعيض . ﴿ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ أى من بعد وفاته ومن للابتداء . ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ﴾ هو يوشع ، أو شمعون ، أو شمويل عليهم السلام . ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أقم لنا أميرًا ننهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه ، وجزم نقاتل على الجواب . وقرئ بالرفع على أنه حال أى ابعثه لنا مقدرين القتال ، ويقاتل بالياء مجزومًا ومرفوعًا على الجواب والوصف للملكا . ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ﴾ فصل بين عسي وخبره بالشرط ، والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم ، فأدخل هل على فعل التوقع مستفهما عما هو المتوقع عنده تقريرًا وتثبيتًا . وقرأ نافع عسيتم بكسر السين . ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أى أى غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد ، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين ، فظهروا علي بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمائة وأربعين . ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وعيد لهم علي ظلمهم في ترك الجهاد .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ طالوت علم عبري كداود وجعله فعلوتا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه ، روى أن نبيهم عليه السلام لما دعا الله أن يملكهم أتي بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل . ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه وراثة ومكنة وإنه فقير لا مال له يعتضد به ، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيرا راعيًا أو سقاء أو دباغًا من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك ، وإنما كانت النبوة فى أولاد لاوى بن يعقوب والملك فى أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطين خلق .

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك . **أولا** بأن العمدة فيه اصطفاه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، **وثانيا** بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية ، وجسامة البدن ليكون أعظم خطرا في القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، لا ما ذكرتم . وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه ، **وثالثا** بأن الله تعالى مالك الملك علي الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء ، **ورابعا** أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليهم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم . ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾الصندوق فعلوت من التوب ، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه ، وليس بفاعول لقلة نحو سلس وقلق ، ومن قرأه بالهاء فلعله ابدله منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة ، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع فى ذراعين .

﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الضمير للإتيان أى فى إتيانه سكون لكم وطمانينة، أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة . وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون . وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر . وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وقيل التابوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقرا للعلم والوقار بعد أن لم يكن . ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ رضاض الألواح وعصا موسي وثيابه وعمامة هارون ، وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ، أو أنبياء بنى إسرائيل لأنهم أبناء عمهما .

﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه . وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان فى أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتابوت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت .﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبى ﷺ وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالي .

الآيات من ٢٤٩ : ٢٥١

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة ، وأصله فصل نفسه عنه ولكن لما كثر حذف مفعوله صار كاللازم . روى : أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب النشيط الفارغ ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفا ، وكان الوقت قيظًا فسلكوا مفازة وسألوا أن يجري الله لهم نهرا . ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ معاملكم معاملة المختبر بما اقترحتموه . ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ فليس من أشياعي ، أو ليس بمتحد معي . ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي من لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه مأكولا أو مشروبا قال الشاعر : وَإِن شِئْتُ لَمْ أَطعم نقاخًا وَلا بَرْدا . وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبيا كما قيل ، أو بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام . ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه ، وإنما قدمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قدم والصابئون على الخبر في قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ [١] والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير ، وقرأ ابن عامر والكوفيون غرفة بضم الغين .

---

(١) البقرة : ٦٢ ، المائدة : ٦٩ ، الحج : ١٧ .

﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ أى فكرعوا فيه إذ الأصل فى الشرب منه أن لا يكون بوسط ، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء ، أو أفرطوا فى الشرب منه إلا قليلاً منهم . وقرئ بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه والقليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً . وقيل ثلاثة آلاف . وقيل : ألفًا روى أن من اقتصر علي الغرفة كفته لشربه وإداوته ، ومن لم يقتصر غلب عليه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أى القليل الذين لم يخالفوه . ﴿ قَالُوا ﴾ أى بعضهم لبعض . ﴿ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ لكثرتهم وقوتهم .

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ ﴾ أى قال الخلص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه ، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى . وقيل : هم القليل الذين ثبتوا معه ، والضمير فى قالوا للكثير المنخذلين عنه اعتذارًا فى التخلف وتخذيلاً للقليل ، وكأنهم تقاولوا به والنهر بينهما . ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بحكمه وتيسيره ، وكم تحتمل الخبر والاستفهام ، ومن مبينة أو مزيدة . والفئة الفرقة من الناس من فأوت رأسه إذا شققته، أو من فاء رجع فوزنها فعة أو فلة . ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والإثابة .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أى ظهروا لهم ودنوا منهم . ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالي بالدعاء ، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولا إفراغ الصبر فى قلوبهم الذى هو ملاك الأمر ، ثم ثبات القدم فى مداحض الحرب المسبب عنه ، ثم النصر علي العدو المترتب عليهما غالبًا .

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فكسروهم بنصره ، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم . ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ قيل : كان إيشا فى عسكر طالوت معه ستة

من بنيه ، وكان داود سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم ، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه فى الطريق ثلاثة أحجار وقالت له : إنك بنا تقتل جالوت ، فحملها في مخلاته ورماه بها فقتله ثم زوجه طالوت بنته . ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أى ملك بنى إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك . ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى النبوة . ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ كالسرد وكلام الدواب والطير .

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالي يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين علي الكفار ويكف بهم فسادهم ، لغلبوا وأفسدوا في الأرض ، أو لفسدت الأرض بشؤمهم . وقرأ نافع هنا وفى الحج دفاع الله .

الآيات من ٢٥٢ : ٢٥٤

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ . ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لما اخترت بها من غير تعرف واستماع .

تفضيل بعض الرسل على بعض

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة ، أو المعلومة للرسول ﷺ ، أو جماعة الرسل واللام للاستغراق . ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره . ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ تفضيل له ، وهو موسى عليه الصلاة والسلام . وقيل : موسي ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، كلم الله موسى ليلة الحيرة وفي الطور ، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بون بعيد ، وقرئ كلم الله وكالم الله بالنصب ، فإنه كلم الله كما أن الله كلمه ولذلك قيل كليم الله بمعنى مكالمه .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ بأن فضله علي غيره من وجوه متعددة ، أو بمراتب متباعدة . وهو محمد ﷺ فإنه خصه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة ، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر ، والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر . والإبهام لتفخيم شانه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغنى عن التعيين . وقيل : إبراهيم عليه السلام خصصه بالخلة التي هى أعلى المراتب . وقيل: إدريس عليه السلام لقوله تعالي : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١) . وقيل: أولو العزم من الرسل .

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ خصه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى فى تحقيره وتعظيمه ، وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ أى هدى الناس جميعًا ﴿ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم ﴾ من بعد الرسل . ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أى المعجزات الواضحة لاختلافهم فى الدين ، وتضليل بعضهم بعضاً . ﴿ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً . ﴿ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ لإعراضه عنه بخذلانه . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ كرره للتاكيد . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فيوفق من يشاء فضلاً ،

---

(١) مريم : ٥٧ .

ويخذل من يشاء عدلاً . والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام ، وأنه يجوز تفضيل بعضهم علي بعض ، ولكن بقاطع لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالي تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيمانًا أو كفراً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ما أوجبت عليكم إنفاقه . ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه علي تدارك ما فرطتم ، والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه ، أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتي يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحوكم به ولا شافعة ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ (١) حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حط ما فى ذممكم ، وإنما رفعت ثلاثتها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب : هل فيه بيع ؟ أو خلة ؟ أو شفاعة ؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب علي الأصل . ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم ، أو وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه علي غير وجهه ، فوضع الكافرون موضعه تغليظًا لهم وتهديداً كقوله ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ (٢) مكان ومن لم يحج وإيذانًا بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾(٣).

---

(١) طه : ١٠٩ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

(٣) فصلت : ٦ ، ٧ .

الآيتان ٢٥٥ : ٢٥٦

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾

أعظم آية فى القرآن

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾مبتدأ وخبر والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره . وللنحاة خلاف فى أنه هل يضمر للأخير مثل فى الوجود أو يصح أو يوجد . ﴿ الْحَيُّ ﴾ الذى يصح أن يعلم ويقدر وكل ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان . ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه فيعول من قام بالأمر إذا حفظه ، وقرئ القيام والقيم . ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ السنة فتور يتقدم النوم قال ابن الرقاع (١) :

---

(١) هو عدى بن الرقاع شاعر أموى والبيت من قصيدة يمدح فيها الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وبدأها بالغزل ، وهذا البيت من أبيات الغزل فى القصيدة .

وأقصده النعاس : أصابه ، ورنقت : كدرت والمقصود : وقفت .

* الإعجاز العلمى

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

هذه الآية من أقوى وأشد الآيات التي اشتملت على أمهات المسائل الإلهية وهي

وَسَنانٌ أقْصَدهُ النَعاسُ فَرَنَّقتْ في عَيْنِه سِنَةٌ وَلَيس بِنَائمِ

والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة ، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً (١) .

---

(١) جاء في المنتخب من التفسير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ النبأ:٩ ، النوم هو توقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ ـ أى قشرته ، أو هبوط ذلك النشاط هبوطا كبيرا متفاوت الدرجات في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته ، مما يترتب عليه انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته ، ثم يأخذ الجسم أثناء النوم نصيبا من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العضلية أو العصبية أو كليهما ، فتهبط جميع وظائف الجسم الحيوية ما عدا عمليات الهضم وإفراز البول من الكليتين والعرق من الجلد ، فإن في وقف هذه العمليات الأخيرة ضررا على حياة الفرد : أما التنفس فيبطئ ويصير أكثر عمقا ، ويغدو صدريا أكثر منه بطنيا ، وتبطئ سرعة النبض ويقل مقدار ما يدفعه من القلب من كل ضربة ، ويضعف توتر العضلات ويصير من الصعب الحصول على الحركات العكسية ، وكل هذا يسبب الراحة للإنسان أثناء نومه .

المنتخب من التفسير ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٨٧٨ .

*** الإعجاز العلمى**

= أكبر من أن تتخيلها أو تحيط بهاالعلوم الدنيوية خاصة في قوله سبحانه وتعالي : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ ولذلك نكتفى هنا بالإشارة إلى حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : سألت النبى ﷺ عن الكرسى فقال : « يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضين السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش علي الكرسى كفضل الفلاة علي تلك الحلقة » .

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحيه من ضواحي الأرض .

فحدود ملك الله فوق تصورنا وإذا كان الله هو المهيمن وهو الخالق لهذه الأشياء العظيمة فيحق له أن يصف نفسه بأنه « عليّ » و « عظيم » لأنه لا يوجد شيء أعلى منه. وكل شيء دونه ، لذلك انتهت هذه الآية العظيمة بقوله تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ .

وتقديم السِّنة عليه وقياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود ، والجملة نفى للتشبيه وتأكيد لكونه حيًا قيومًا ، فإن من أخذه نعاس أو نوم كان موءوف (١) الحياة قاصرًا في الحفظ والتدبير ، ولذلك ترك العاطف فيه وفى الجمل التي بعده .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ تقرير لقيوميَّته واحتجاج به علي تفرده فى الألوهية ، والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلاً فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنًا فيهما فهو أبلغ من قوله « له السموات والأرض وما فيهن » .

﴿ مَن ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإِذْنِه ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالي ، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلا عن أن يعاوقه عنادًا أو مناصبة أى مخاصمة .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما قبلهم وما بعدهم ، أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي ، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة ، أو عكسه ، أو ما يحسونه وما يعلقونه ، أو ما يدركونه وما لا يدركونه ، والضمير لما فى السموات والأرض ، لأن فيهما العقلاء ، أو لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه ﴾ من معلوماته .

﴿ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ أن يعلموه ، وعطفه علي ما قبله لأن مجموعهما يدل علي تفرده بالعلم الذاتى التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد كقوله تعالي ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه ﴾ (٢) ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه ﴾ (٣) ولا كرسى فى الحقيقة ، ولا قاعد . وقيل : كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه ، مأخوذ من كرسى العالم والملك . وقيل : جسم بين يدى العرش ولذلك سمى كرسيًا محيط بالسموات السبع ، لقوله ﷺ « ما

---

(١) موءوف : في اللسان : طعام موءوف ومأووف أصابته آفة ، وإيف الطعام فهو مئيف .

(٢) الأنعام : ٩١ . (٣) الزمر : ٦٧ .

السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي ، إلا كحلقة في فلاة ، وفضل العرش علي الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » (١) ولعله الفلك المشهور بفلك البروج ، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد ، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو الملبد .

﴿ **وَلَا يَئُودُهُ** ﴾ أي ولا يثقله ، مأخـوذ من الأود وهو الاعوجاج . ﴿ **حِفْظُهُمَا** ﴾ أي حفظه السموات والأرض ، فحذف الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول . ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ** ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه . ﴿ **الْعَظِيمُ** ﴾ المستحقر بالإضافة إليه كل ما سواه .

اشتمال هذه الآية على أمهات المسائل الإلهية

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية فإنها دالة علي أنه تعالي موجود واحد في الألوهية ، متصف بالحياة ، واجب الوجود لذاته موجد لغيره ، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرأ عن التغير والفتور ، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعتري الأرواح ، مالك الملك والملكوت، ومبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد ، الذى لا يشفع عنده إلا من أذن له عالم الأشياء كلها ، جليها وخفيها ، كليها وجزئيها ، واسع الملك والقدرة ، كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه ، لا يئوده شاق ، ولا يشغله شأن ، متعال عما يدركه ، وهو عظيم لا يحيط به فهم ، ولذلك قال عليه ﷺ : **إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي ، من قرأها بعث الله ملكا يكتب من حسناته ، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة »** . وقال : « **من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله »** .

لا إكراه في الدين

(١) رواه ابن كثير في تفسيره من حديث أبي ذر الغفاري ، وقال أخرجه أبو بكر بن مردويه ـ راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٨ .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ إذ الإكراه فى الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه ، ولكن ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية ، والكفر غي يؤدى إلى الشقاوة السرمدية ، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلبًا للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء .

وقيل : إخبار في معنى النهى ، أى لا تكرهوا في الدين ، وهو إما عام منسوخ بقوله ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ، أو خاص بأهل الكتاب لما روى (أن أنصاريًا كان له ابنان تنصرا قبل المبعث ، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتي تسلما فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما)(٢) .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ بالشيطان ، أو الأصنام ، أو كل ما عبد من دون الله ، أو صد عن عبادة الله تعالي . فعلوت من الطغيان قلبت عينه ولامه . ﴿ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل . ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ طلب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق ، وهى مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم . ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا ﴾ لا انقطاع لها يقال فصمته فانفصم إذا كسرته . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات ، ولعله تهديد على النفاق .

الآيتان من ٢٥٧ : ٢٥٨

---

(١) التوبة ٧٣ ، التحريم : ٩ .

(٢) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ، وأخرجه الطبرى فى تفسيره من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ محبهم ، أو متولى أمورهم ، والمراد بهم من أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن . ﴿ **يُخْرِجُهُم** ﴾ بهدايته وتوفيقه . ﴿ **مِّنَ الظُّلُمَاتِ** ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿ **إِلَى النُّورِ** ﴾ إلى الهدى الموصل إلى الإيمان ، والجملة خبر بعد خبر ، أو حال من المستكن فى الخبر ، أو من الموصول ، أو منهما ، أو استئناف مبين ، أو مقرر للولاية .

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ** ﴾ أى الشياطين ، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما . ﴿ **يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ من النور الذى منحوه بالفطرة إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك فى الشهوات ، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات . وقيل : نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام ، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وإرادته بها .

﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ وعيد وتحذير ، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم .

من قصة إبراهيم مع النمروذ

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ** ﴾ تعجيب من محاجة نمرود وحماقته . ﴿ **أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** ﴾ لأن آتاه أى أبطره إيتاء الملك وحمله على

المحاجة أو حاج لأجله شكرًا له علي طريقة العكس كقولك عاديتني لأني أحسنت إليك ، أو وقت أن آتاه الله الملك ، وهو حجة علي من منع إيتاء الله الملك الكافر من المعتزلة .﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ظرف لحاجَّ ، أو بدل من أن آتاه الله الملك علي الوجه الثاني .

﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد . وقرأ حمزة رب بحذف الياء . ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل . وقرأ نافع أنا بلا ألف .

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض علي معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه علي نحو هذا التمويه دفعًا للمشاغبة ، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جَليّ من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره،

*** الإعجاز العلمي**

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

كان القدماء يعتقدون أن الشمس ثابتة في مكانها وأن حركة الشمس من الشرق إلى الغرب إنما هي حركة ظاهرية إلى أن اكتشف علماء الفلك أن الشمس لها مجموعة من الكواكب والأقمار والمذنبات تتبعها دائما وتخضع لقوة جاذبيتها وتجعلها تدور من حولها في مدارات متتابعة بيضاوية الشكل ودوران الأرض حول نفسها ينتج عنه تتابع الشروق والغروب يوميا .

تميل الأرض حول محورها بزاوية ٢٣,٥ ْ وهذا الميل يلعب دورًا مهمًا في تتابع الفصول الأربعة على وجه الكرة الأرضية كما يلعب دورًا مهمًا في تتابع الليل والنهار . . والكرة الأرضية تدور حول الشمس من الغرب إلى الشرق فتضئ بنور ربها سبحانه وتعالي وتشرق ـ أى يبدو قرص الشمس من الشرق ـ ثم يتتابع هذا الشروق من جهة الشرق حسب المكان والموقع فمثلا يأتى شروق الشمس في بلاد الحجاز قبل مصر والشروق فى مصر قبل تونس وهكذا ، وهذا الفرق في التوقيت يجعل تتابع الليل والنهار أشبه بدائرة مقفلة فكيف لإنسان أن يأتى بهذا النظام الدقيق .

لا عن حجة إلى أخري . ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك ، وإنما حمله عليه بطر الملك وحماقته ، أو اعتقاد الحلول .

وقيل : لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياماً ثم أخرجه ليحرقه ، فقال له من ربك الذى تدعو إليه ؟ وحاجه فيه . ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ فصار مبهوتاً . وقرئ فَبَهَتَ أى فغلب إبراهيمُ الكافرَ .

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية . وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة ، أو طريق الجنة يوم القيامة .

الآية رقم ٢٥٩

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

قصة عزير

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ تقديره أو أرأيت مثل الذى فحذف لدلالة ألم تر عليه ، وتخصيصه بحرف التشبيه لأن المنكر للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى ، بخلاف مدعى الربوبية . وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر إلى الذى حاج أو الذى مر . وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل : ألم تر كالذى حاج ، أو كالذى مر . وقيل : إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديره أو إن كنت تحيى فأحيى كإحياء الله تعالى الذى مر على قرية وهو عزير بن شرحيا . أو الخضر ، أو كافر بالبعث . ويؤيده نظمه مع نمروذ .

والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر . وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القري وهو الجمع .

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقوفها . ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ اعترافًا بالقصور عن معرفة طريق الإحياء ، واستعظاما لقدرة المحيى إن كان القائل مؤمنًا ، واستبعادًا إن كان كافرًا . وأنَّى فى موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو علي الحال بمعني كيف .

﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ فألبثه ميتًا مائة عام ، أو أماته الله فلبث ميتًا مائة عام . ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ بالإحياء . ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ القائل هو الله وساغ أن يكلمه وإن كان كافرًا لأنه آمن بعد البعث أو شارف الإيمان . وقيل ملك أو نبى .

﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كقول الظان . وقيل : إنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يومًا ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب .

﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير بمرور الزمان ، واشتقاقه من السَّنَه . والهاء أصلية إن قدرت لام السنه هاء وهاء سكت إن قدرت واوًا . وقيل : أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقصى البازى (١) . وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب

*** الإعجاز العلمي**

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

من الأمور المعجزة فى هذه الآية الكريمة والتى تدعو إلى التفكر والتأمل أن العزير أماته الله مائة عام و لما استيقظ ظن أنه لم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم ، ولقد تأكد من ظنه هذا لأنه وجد طعامه لم يتغير أو يصبيه العفن فما الحكمة من ذلك ؟

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت لنا أنه سبحانه قادر على أن يطوى الزمان فهو سبحانه وتعالى القابض الباسط .

كالجنس الواحد . وقيل كان طعامه تينًا وعنبًا وشرابه عصيراً أو لبنًا وكان الكل على حاله .

وقرأ حمزة والكسائى لم يتسن بغير الهاء فى الوصل .

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ كيف تفرقت عظامه ، أو انظر إليه سالمًا فى مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظنا الطعام والشراب من التغير ، ولأول أدل على الحال وأوفق لما بعده .

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى وفعلنا ذلك لنجعلك آية . روي أنه أتي قومه على حماره وقال أنا عزير فكذبوه ، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك ، وقالوا هو ابن الله . وقيل : لما رجع إلى منزله كان شابًا وأولاده شيوخًا فإذا حدثهم بحديث قالوا حديث مائة سنة .

---

(١) تقضّى البازى ـ هكذا فى الأصل والأصوب بالصاد تقول : تقصى البازى ، وأصلها تقصص بصادين قلبت الأخيرة ياء للتخفيف . جاء فى لسان العرب : سنه الطعام إذا تغير، وقال أبو عمر الشيبانى : هو من قولهم حمأ مسنون ، فابدلوا من يتسنّن كما قالوا : تظنيت وقصيت أظفارى . ـ لسان العرب مادة سنه ـ .

* الإعجاز العلمى

١ ـ فقد طوى الزمان فى قضية الطعام فلم يتغير ولم يتأثر بمرور الزمن .

٢ ـ وبسط الزمان فى قضية الحمار فتأثر الحمار بالزمن فتحلل وصار عظاما فهو الذى قبض الزمان في حق شيء وبسطه فى حق آخر .

والشيئان متعاصران معا وهذا أمر لا يكون إلا لصاحب هذا الكون الذى يستطيع وحده أن يغير القوانين والنواميس .

والمعجزة العلمية هنا هو قول الحق سبحانه وتعالي : ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ .

وها هو العلم الحديث يثبت صحة هذا الكلام فمراحل أطوار الجنين هي:

﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ يعنى عظام الحمار ، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم . ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ كيف نحييها ، أو نرفع بعضها علي بعض ونركبه عليه ، وكيف منصوب بننشزها والجملة حال من العظام أى : انظر إليها محياة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب نُنشِرُها من أنشر الله الموتى ، وقرئ نُنَشِّرُها من نَشَّر بمعنى أنشر .

﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ فاعل تبين مضمر يفسره ما بعده تقديره : فلما تبين له أن الله علي كل شيء قدير . ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، أو يفسره ما قبله أى فلما تبين له ما أشكل عليه . وقرأ حمزة والكسائى قال أعلم على الأمر والآمر مخاطب ، أو هو نفسه خاطبها به علي طريق التبكيت .

*** الإعجاز العلمى**

نطفة ـ علقة ـ مضغة مخلقة أو غير مخلقة ـ عظام ـ لحم يكسو العظام ـ التسوية والتصوير ـ نفخ الروح .

هذا في جميع المراجع الطبية مع اختلاف الاصطلاحات الطبية العلمية ولكنها بنفس الترتيب القرآني الذى ذكرنا هنا وفي قضية العزير أراد الله أن يريه لقطة واحدة من مراحل الخلق والتكوين وهي مرحلة كسوة العظام لحما ، وهى مرحلة تستغرق فى الجنين الإنسانى الأسبوع الخامس والسادس والسابع من الحمل وسوف نستعرض هذا الأمر بمشيئة الله تعالى عند تفسير قوله تعالى ﴿ فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ﴾ .

الآيات من ٢٦٠ : ٢٦٢

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾

سؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عيانًا ، وقيل لما قال نمروذ أنا أحيي وأميت قال له : إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها ، فقال نمروذ : هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم . وانتقل إلى تقرير آخر ، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إن سئل عنه مرة أخري .

﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ بأنى قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة ، قال له ذلك وقد علم أنه أغرق الناس فى الإيمان ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه .

﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ اى بلى آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامّة العيان إلى الوحي أو الاستدلال .

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ﴾ قيل طاوسا وديكًا وغرابًا وحمامة ، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة ، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذى هو صفة الطاوس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب ، والترفع والمسارعة إلي الهوى الموسوم بهما الحمام . وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع

لخواص الحيوان ، والطير مصدر سمى به أو جمع كصحب . ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ فأملهن واضممهن إليك لتتاملها وتعرف شياتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء . وقرأ حمزة ويعقوب فصرهن بالكسر وهما لغتان قال :

وَمَا صَيَدُ الأَعْنَاقِ فِيهِم جِبِلَّةً   وَلَكِنْ أَطْرَافَ الرِّماحِ تَصُورُهَا (١)

وقال :

وَفَرْعٍ يصيرُ الجيدَ وَحْفٍ كَأَنَّهُ   عَلى اللَّيتِ قِنْوانُ الكُرُومِ الدَّوالِحِ (٢)

وقرئ فصُرهن بضم الصاد وكسرها وهما لغتان ، مشددة الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وفصرهن من التصرية وهى الجمع أيضاً .

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ أى ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك . قيل كانت أربعة . وقيل سبعة . وقرأ أبو بكر جزؤا وجزؤ بضم الزاى حيث وقع .

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى . ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ساعيات مسرعات طيرانا أو مشيا .

روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رءوسها ، ويخلط

---

(١) روى الزمخشرى فى الكشاف عجزه فقط .

وصَيَدُ الأعناق بالتحريك اعوجاج العنق ويقال فيه صَيَر أيضاً بالراء وصار عنقه أماله ، يقال : صارَ الرمح عنقه يصوره .

يقول الشاعر:

ليست إمالة الأعناق طبيعة فيهم   ولكن لكثرة تعرضها للرماح مالت

وهذا كناية عن شجاعتهم وكثرة خوضهم للحروب .

(٢) البيت ذكره الزمخشرى أيضا فى الكشاف

ويصير : يميل ، الجيد : العنق ، اللّيت : صفحة العنق ، ووحف : أسود وهو صفة لفرع، والقنوان: جمع قِنْو وهو العنقود ، والدوالح : المثقلات بالحمل . يصف الشاعر شعر محبوبته ـ وهو الفرع ـ بأنه يميل عنقها لثقله عليه ، وصور الغدائر على جانب جيدها بعناقيد الكروم المثقلات بالحمل .

سائر أجزائها ويوزعها علي الجبال ، ثم يناديهن . ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن إلي رءوسهن .

من بدائع التأويل

وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية ، فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتي تنكسر سورتها ، فيطاوعنه مسرعات متي دعاهن بدعاية العقل أو الشرع . وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويُمْنُ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالي أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه ، وأراه عُزَيرًا بعد أن أماته مائة عام . ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه عما يريده . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة فى كل ما يفعله ويذره .

مضاعفة الثواب للمتصدق

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ أى مثل نفقتهم كمثل حبة ، أو مثلهم كمثل باذر حبة علي حذف المضاف . ﴿ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ اسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب ، كما يسند إلى الأرض والماء ، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى والمعنى : أنه يخرج منها ساق يتشعب لكل منه سبع شعب ، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة . وهو تمثيل لا يقتضي وقوعه وقد يكون في الذرة والدخن [1] فى البر فى الأراضى المغلة . ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ ﴾ تلك المضاعفة . ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ بفضله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه .

من آداب المتصدق

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا

(١) الدخن : نبات عشبى من النجليات ، حبه صغير أملس كحب السمسم ، ينبت بريا ومزروعا

أَذًى ﴾ نزلت فى عثمان رضى الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها . وعبد الرحمن بن عوف فإنه أتى النبى ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة . والمن أن يعتد بإحسانه علي من أحسن إليه . والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم إليه ، وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى .

﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لعله لم يدخل الفاء فيه وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط إيهامًا بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا .

الآيتان من ٢٦٣ : ٢٦٤

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ رد جميل . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة ، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل ، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغتفر رده .

﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ خبر عنهما ، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة . ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن إنفاق بمن وإيذاء . ﴿ حَلِيمٌ ﴾ عن معاجلة من يمن ويؤذى بالعقوبة .

مثل المنان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما . ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ كإبطال المنافق الذى يرائى بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالي ولا ثواب الآخرة ، أو مماثلين الذى ينفق رئاءَ الناس ، والكاف فى محل النصب على المصدر أو الحال ، ورئاء نصب على المفعول له أوالحال بمعني مرائيًا أو المصدر أى

إنفاق رئاء . ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أى فمثل المرائى فى إنفاقه . ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ كمثل حجر أملس . ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ مطر عظيم القطر . ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ أملس نقيًا من التراب . ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثوابًا ، والضمير للذى ينفق باعتبار المعني لأن المراد به الجنس . أو الجمع كما فى قوله :

إنَّ الَّذى حَانَتْ بِفَلَجٍ (١) دِمَاؤُهُمْ   هُمُ القَومُ كُلّ القَومِ يَا أمَّ خَالدِ

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ إلى الخير والرشاد ، وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى علي الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها .

الآيتان من ٢٦٥ : ٢٦٦

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

ومثل المخلص الذى يريد وجه الله

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

---

(١) بفلج : فلج اسم موضع بين البصرة وحَيرِيّة مذكر ، وقيل : هو واد بطريق البصرة إلى مكة ببطنه منازل للحاج ، والبيت المذكور نسبه ابن منظور فى لسان العرب للأشهب بن رُمَيْلة . قال ابن بري : والنحويون يستشهدون بهذا البيت على حذف النون من الذين لضرورة الشعر ، والأصل فيه : وإن الذين .

لسان العرب ـ مادة فلج .

وتثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان ، فإن المال شقيق الروح ، فمن بذل ماله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها ، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم ، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال . ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أى ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة ، كمثل بستان بموضع مرتفع ، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكي ثمراً . وقرأ ابن عامر وعاصم بربوة بالفتح وقرئ بالكسر وثلاثتها لغات فيها . ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ مطر عظيم القطر . ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ثمرتها . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف . ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل . والمراد بالضعف المثل كما أريد بالزوج الواحد فى قوله تعالى : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١) وقيل : أربعة أمثاله ونصبه على الحال أى مضاعفاً .

﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ أى فيصيبها ، أو فالذى يصيبها طل ، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها . وهو المطر الصغير القطر ، والمعني أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله ، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين فى زلفاهم بالوابل والطل .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تحذير عن الرئاء وترغيب فى الإخلاص .

مثل آخر

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الهمزة فيه للإنكار . ﴿ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ جعل الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغلباً لهما لشرفهما وكثرة منافعهما ، ثم ذكر أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار ، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع .

﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ أى كبر السن ، فإن الفاقة والعالة فى الشيخوخة أصعب،

---

(١) هود : ٤٠ ، المؤمنون : ٢٧ .

والواو للحال أو للعطف حملاً على المعنى ، فكأنه قيل : أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر .

﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب . ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ عطف على أصابه ، أو تكون باعتبار المعنى . والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود ، والمعني تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء فى الحسرة والأسف ، فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه . وأشبههم به من جال بسره فى عالم الملكوت ، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلي ما سوي الحق وجعل سعيه هباء منثوراً . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها .

الآيتان من ٢٦٧ : ٢٦٨

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾

مراعاة الطيب فى الإنفاق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ من حلاله أو جياده . ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أى ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن ، فحذف المضاف لتقدم ذكره .

﴿ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ ﴾ أى ولا تقصدوا الردىء منه أى من المال ، أو مما أخرجنا لكم . وتخصيصه بذلك لأن التفاوت فيه أكثر . وقرئ ولا تؤمموا ولا تيمموا بضم التاء . ﴿ تُنفِقُونَ ﴾ حال مقدرة من فاعل تيمموا ، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالاً منه .

﴿ ولَستُم بآخذيه ﴾ أى وحالكم أنكم لا تأخذونه فى حقوقكم لرداءته . ﴿ إلاَّ أن تُغمضُوا فيه ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه ، مجاز من أغمض بصره إذا غضه . وقرئ تغمضوا أى تحملوا على الإغماض ، أو توجدوا مغمضين . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه . ﴿ واعلَمُوا أنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن إنفاقكم ، وإنما يأمركم به لانتفاعكم . ﴿ حَميدٌ ﴾ بقبوله وإثباته .

تزيين الشيطان لأوليائه

﴿ الشَّيْطَانُ يَعدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ فى الإنفاق ، والوعد فى الأصل شائع فى الخير والشر . وقرئ الفقر بالضم والسكون وبضمتين وفتحتين . ﴿ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ويغريكم على البخل ، والعرب تسمى البخيل فاحشًا . وقيل المعاصى ﴿ وَاللَّهُ يَعدُكُم مَّغفرَةً مِّنْهُ ﴾ أى يعدكم فى الإنفاق مغفرة لذنوبكم . ﴿ وفَضْلاً ﴾ خلفًا أفضل مما أنفقتم فى الدنيا ، أو فى الآخرة . ﴿ وَاللَّهُ واسِعٌ ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق . ﴿ عَليمٌ ﴾ بإنفاقه .

الآيات من ٢٦٩ : ٢٧١

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

عظمة الحكمة

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ﴾ تحقيق العلم وإتقان العلم . ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول الثاني ﴿ ومَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ ﴾ بناؤه للمفعول لأنه

المقصود . وقرأ يعقوب بالكسر أى ومن يؤته الله الحكمة . ﴿ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ أى : أىُّ خير كثير ؟ إذ حيز له خير الدارين .

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات ، أو ما يتفكر ، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله فى قلبه من العلوم بالقوة . ﴿ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ ذو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوي .

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ ﴾ قليلة أو كثيرة ، سراً أو علانية ، فى حق أو باطل . ﴿ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ ﴾ بشرط أو بغير شرط ، فى طاعة أو معصية . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ فيجازيكم عليه . ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ الذين ينفقون فى المعاصى وينذرون فيها ، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر . ﴿ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه .

الصدقة بين الإخفاء والإظهار

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ فنعم شيئًا إبداؤها . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وكسر العين على الأصل . وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون بكسر النون وسكون العين ، وروى عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس . ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ ﴾ أى تعطوها مع الإخفاء . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فالإخفاء خير لكم ، وهذا فى التطوع ولمن لم يعرف بالمال فإن إبداء الغرض لغيره أفضل لنفى التهمة عنه . عن ابن عباس رضى الله عنهما (صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفًا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا) . ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم فى رواية حفص بالياء أى والله يكفر أو الإخفاء . وقرأ ابن كثير وعمرو وعاصم في رواية ابن عياش ويعقوب بالنون مرفوعًا على أنه جملة فعلية مبتدأة أو إسمية معطوفة علي ما بعد الفاء أى : ونحن نكفر . وقرأ نافع وحمزة والكسائى به مجزومًا علي محل الفاء وما بعده . وقرئ بالتاء مرفوعًا ومجزومًا والفعل للصدقات .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإسرار .

الآيات من ٢٧٢ : ٢٧٤

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

الهداية بيد الله وحده

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن ، والنهى عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث .﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته ، وإنها تخص بقوم دون قوم . ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ من نفقة معروفة . ﴿ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا عليه ولا تنفقوا الخبيث . ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾حال ، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لإبتغاء وجه الله وطلب ثوابه ، أو عطف على ما قبله أى وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث . وقيل : نفى فى معنى النهى .

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ ثوابه أضعافًا مضاعفة ، فهو تأكيد للشرطية السابقة ، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله ﷺ « **اللهم اجعل لمنفق خلفًا ، ولممسك تلفًا** » روي : أن ناسًا من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع فى اليهود ، وكانوا ينفقون عليهم ، فكرهوا لما أسلموا أن ينفعوهم فنزلت . وهذا فى غير الواجب أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار . ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

أى لا تنقصون ثواب نفقاتكم .

من المستحق للصدقة ؟

﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ متعلق بمحذوف أى اعمدوا للفقراء ، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ، أو صدقاتكم للفقراء . ﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أحصرهم الجهاد . ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لاشتغالهم به . ﴿ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ ﴾ ذهابا فيها للكسب . وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة ، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ .

﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ ﴾ بحالهم ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين . ﴿ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال . ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ من الضعف ورثاثة الحال ، والخطاب للرسول ﷺ ، أو لكل أحد .

﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ إلحاحًا ، وهو أن يلازم المسؤول حتي يعطيه ، من قولهم لحفى من فضل لحافه ، أى أعطانى من فضل ماعنده ، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا . وقيل : هو نفى للأمرين كقوله :

على لا حب لا يهتدى بمناره (١) .

فنصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال ، أو على الحال .

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً علي هؤلاء .

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس الشاعر الجاهلى ، وعجزه هو :

إذا سافه العود النباطيُّ جرجرا .

واللاحب : الطريق الواسع ، والمنار : أعلام الطريق ، وسافه : شمه ، والعود : الجمل المسن ويطلق على الطريق القديم ، والنباطى نسبة للنبط وهم قوم يحلون البطاح يستنبطون منها الماء ، وجرجر : أخرج صوتا من حنجرته ومعنى البيت .

هذا طريق واسع لا منار فيه يهتدي به ، إذا شمه الجمل المسن عرف أنه طريق صعب لخبرته بالطرق فجرجر خوفا منه .

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾ أي يعمون الأوقات والأحوال بالخير . نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية . وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه : لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً ، ودرهم سراً ودرهم علانية . وقيل : في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ خبر الذين ينفقون ، والفاء للسببية . وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على وعلانية .

الآيات من ٢٧٥ : ٢٧٩

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾

تحريم الربا وسببه

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ أي الآخذون له ، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال ، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل ، بأن يباع مطعوم بمطعوم ، أو نقد بنقد إلى أجل ، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من

جنسه ، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع . ﴿ لا يَقُومُونَ ﴾ إذا بعثوا من قبورهم . ﴿إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع ، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء. ﴿ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أى الجنون ، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله ولذلك قيل : جَنَّ الرجلُ . وهو متعلق بلا يقومون أى لا يقومون من المس الذى بهم بسبب أكل الربا . أو بيقوم أو بيتخبط فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى فى بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الـرِّبَا ﴾ أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله . وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة ، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع ، والفرق بينٌ فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً ومن اشترى سلعة تساوى درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها ، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن .

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ إنكار لتسويتهم ، وإبطال القياس بمعارضة النص . ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهى عن الربا . ﴿ فَانتَهَىٰ ﴾ فاتعظ وتبع النهى . ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه ، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت من موصولة، وبالابتداء إن جعلت شرطية على رأى سيبويه إذ الظرف غيرمعتمد على ما قبله . ﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية . وقيل يحكم فى شانه ولا اعتراض لكم عليه . ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى تحليل الربا ، إذ الكلام فيه . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لأنهم كفروا به .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه . ﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه ، وعنه ﷺ « إن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره » [1] وعنه ﷺ « ما نقصت زكاة من مال قط » . ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوابين . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ مصر على تحليل المحرمات . ﴿ أَثِيمٍ ﴾ منهمك فى ارتكابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة . ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من آت . ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت .

تحذير من الربا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم علي الناس من الربا . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمرتم به . روى : أنه كان لثقيف مال علي بعض قريش ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا . فنزلت .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى فاعلموا بها ، من أذن بالشيء إذا علم به ، وقرأ حمزة وعاصم فى رواية ابن عياش فآذنوا أى فأعلموا بها غيركم ، من الأذن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم ، وتنكيرحرب للتعظيم وذلك يقتضى أن يقاتل المربي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله ، كالباغى ولا يقتضى كفره . روى : أنها لما نزلت قالت ثقيف لا يدي لنا بحرب الله ورسوله .

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٤٨٨ من حديث أبى هريرة بلفظ « إن الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره ـ أو فلوه ـ حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » وعزاه ابن كثير إلى أحمد فى مسنده جـ ٢ ص ٤٧١ وإلى الترمذى ـ راجع تحفة الأحوذى ـ كتاب الزكاة جـ ٣ ص ٣٣٠ .

﴿ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ من الارتياب واعتقاد حله . ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ﴾ بأخذ الزيادة ﴿ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ . بالمطل والنقصان ، ويفهم منه أنهم إن لم يتوبوا ليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه ، إذ المصر على التحليل مرتد وماله فيء (١) .

---

(١) جاء فى تعليق المنتخب من التفسير :

الربا المذكور فى الآية هو ربا الجاهلية ، وهو الزيادة فى الديون فى نظير الأجل ، وهو حرام فى قليله وكثيره ، وقال الإمام أحمد : ولا يسع مسلما أن ينكره ، ويقابله ربا البيوع وهو ثابت بالسنة فى قوله ﷺ : « البرُ بالبرُ مثلا بمثل يدا بيد والشعير بالشعير مثلا بمثل يداً بيد ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد ، والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » .

وقد اتفق الفقهاء على تحريم الزيادة عند المبادلة مع اتحاد الجنس فى هذه الأشياء ، وأباحوا الزيادة إذا اختلف الجنس ، ولكن حرموا التأجيل من هذه الأصناف ، واختلفوا فى قياس غيرها عليها اختلافا طويلا ، وأقرب الآراء أن يقاس عليها كل ما هو مطعوم قابل للادخار .

وربا الجاهلية لا خلاف فيه فمنكره كافر ، وإن ربا الجاهلية يصيب آكله ومؤاكله باضطرابات نفسيه وعصبية نتيجة إرهاقه وتركيز ذهنه فى المال الذى أقرضه أو أخذه ، فالدائن فى قلق بسبب انحصار ذهنه وفراغ نفسه من كل عمل ، والمدين فى هم وخوف من ألاّ يسدد ، وقد اسند بعض كبار الأطباء كثرة ضغط الدم والنزلات القلبية إلى كثرة التعامل بالربا .

وتحريم الربا فى القرآن كما هو في كل الديانات السماوية تنظيم اقتصادي ، ويتفق التحريم مع ما قرره الفلاسفة : ذلك لأن النقد لا يلد النقد .

والاقتصاديون يقررون أن طرق الكسب أربعة : ثلاثة منها منتجة والرابعة غير منتجة .

فالثلاثة المنتجة : العمل ويتبعه الصناعة والزراعة والمخاطرة في التجارة .

أما الرابعة : فهى الفائدة أو الربا وهذه لا مخاطرة فيها ، لأن القرض لا يتعرض للخسارة بل له الكسب دائما .

وشيوع الكسب بالفائدة يؤدى إلى تحكم رءوس الأموال فى العمل ويؤدى إلى فراغ وعطل فيكون الاضطراب والكسل .

ـ المنتخب من التفسير ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٦٦ ـ .

الآيتان من ٢٨٠ : ٢٨١

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾

إنظار المعسر

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة . وقرئ ذا عسرة أى وإن كان الغريم ذا عسرة . ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ فالحكم نظرة ، أو فعليكم نظرة ، أو فليكن نظرة وهى الإنظار . وقرئ فناظره على الخبر أى فالمستحق ناظره بمعني منتظره ، أو صاحب نظرته على طريق النسب وفناظره على الأمر أى فسامحه بالنظرة . ﴿ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ يسار ، وقرأ نافع وحمزة بضم السين ، وهما لغتان كمشرقة ومشرقة . وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله .

وَأَخْلَفُوكَ عِدَا الأمرِ الذى وَعَدُوا (١)

﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا ﴾ بالإبراء . وقرأ عاصم بتخفيف الصاد . ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أكثر ثوابًا من الإنظار ، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه . وقيل : المراد بالتصدق الإنظار لقوله ﷺ : « **لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقه** » ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما فيه من الذكر الجميل والأجر الجزيل .

آخر آية نزلت في القرآن

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ يوم القيامة ، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم . ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ

---

(١) هذا شطر بيت لأبى أمية الفضل بن العباس عن عتبة بن أبى لهب وقيل : لزهير بن أبى سلمى ، والبيت بتمامه هو :

إن الخليط أجدُّوا البين وانجردوا ... وأخلفوك عدَا الأمر الذى وعدوا

والخليط : العشير ، وأجدوا : اجتهدوا ، والبين : الفراق ، وانجردوا : مضوا وعدا الأمر : عدة مصدر وعد ، حذفت منها التاء وهى موطن الشاهد .

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة) [١] وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً . وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات .

الآية ٢٨٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾

أطول آية في القرآن

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً ، تقول

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٤٩٤ مرويا عن سعيد بن جبير ، رواه عنه عطاء بن دينار

ورواه ابن مردويه من حديث المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

داينته إذا عاملته نسيئة معطيا أو آخذاً .وفائدة ذكر الدين أن لا يتوهم من التداين المجازاة ويعلم تنوعه إلمؤجل والحال ، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معلوم الأيام والأشهرلا بالحصاد وقدوم الحاج . ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾لأنه أوثق وأدفع للنزاع ، والجمهور على أنه استحباب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما (أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم) .

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ من يكتب السويةلا يزيد ولا ينقص ، وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثوقًا به معدلاً بالشرع . ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب . ﴿ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق ، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها كقوله ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(١) . ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ تلك الكتابة المعلمة . أمر بها بعد النهى عن الإباء عنها تأكيداً ، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة .

﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ وليكن المملى من عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه، والإملال والإملاء واحد .

﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ أى المملى ، أو الكاتب . ﴿ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ ولا ينقص. ﴿ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى من الحق ، أو مما أملى عليه .

﴿ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ ناقص العقل مبذراً . ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ صبيًا أو شيخًا مختلاً .﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ أو غير مستطيع للإملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة . ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾أى الذى يلي أمره ويقوم مقامه من قيم إن كان صبيًا أو مختل العقل ، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع . وهو دليل جريان النيابة فى الإقرار ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل .

---

(١) القصص : ٧٧ .

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان . ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ من رجال المسلمين ، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة : تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض . ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين . ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ فليشهد أو فليستشهد رجل وامرأتان ، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبى حنيفة . ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ لعلمكم بعدالتهم . ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ علة اعتبار العدد أى لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخري ، والعلة فى الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضلال سببًا له نزل منزلته كقولهم : أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه ، وكأنه قيل : إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت ، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن . وقرأ حمزة أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع . وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب فتذكر من الإذكار . ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ لأداء الشهادة أو التحمل ، وسموا شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الواقع وما مزيدة .

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ ﴾ ولا تملوا من كثرة مداياناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب . وقيل كنى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق ، ولذلك قال ﷺ « لا يقول المؤمن كسلت » ﴿ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴾ صغيرا كان الحق أو كبيرًا، أو مختصرًا كان الكتاب أو مشبعًا ﴿ إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ إلى وقت حلوله الذى أقر به المديون .﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه . ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أكثر قسطا . ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها ، وهما مبنيان من أقسط وأقام علي غير قياس ، أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم ، وإنما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده . ﴿ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ وأقرب فى أن لا تشكوا فى جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك .

﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

تَكْتُبُوهَا ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة والتجارة الحاضرة تعم المبايعة بدين أو عين ، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أى : إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا ، لبعده عن التنازع والنسيان . ونصب عاصم تجارة على أنه الخبر والاسم مضمر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله :

بَنِى أَسَدٍ هل تَعْلَمُونَ بَلاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ أَشْنَعا (١)

ورفعها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة . ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ هذا التبايع ، أو مطلقاً لأنه أحوط . والأوامر التى فى هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة . وقيل : إنها للوجوب ثم اختلف فى إحكامها ونسخها . ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ﴾ يحتمل البناءين ، ويدل عليه أنه قرئ ولا يضار بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير فى الكتب والشهادة ، أو النهى عن الضرار بهما مثل أن يعجلا عن مهم ويكلفا الخروج عما حد لهما ، ولا يعطى الكاتب جعله ، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان . ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه . ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى مخالفة أمره ونهيه . ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كرر لفظه الله فى الجمل الثلاث لاستقلالها ، فإن الأولى حث على التقوى ، والثانية وعد بإنعامه ، والثالثة تعظيم لشأنه . ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية .

---

(١) هذا البيت ذكر سيبويه فى الكتاب عجزه ورواه بقوله :

إذا كان يوماً ذا كواكب أشفعا .

ونسبه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى شواهد الكتاب إلى الشاعر عمر بن شأس . وهل فى البيت بمعني قد ، أو للاستفهام الذى يقصد منه التهديد والوعيد ، والبلاء : الحرب ، ويقصد باليوم ذى الكواكب : المظلم لأن الكواكب لا تظهر إلا ليلا ، والأشنع : القبيح .

أما رواية أشفعا فلعلها تحريف أو خطأ من الناسخ .

الآية ٢٨٣

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

من أحكام الرهن

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أى مسافرين . ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ فالذى يستوثق به رهان ، أو عليكم رهان ، أو فليؤخذ رهان . وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى الارتهان كما ظنه مجاهد والضحاك رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رهن درعه فى المدينة من يهودى على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله ، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة فى السفر الذى هو مظنة إعوازها . والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعني مرهون : وقرئ بإسكان الهاء على التخفيف . ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى بعض الدائنين بعض المديونين واستغنى بأمانته عن الارتهان . ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ أى دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به . وقرئ الذى ايتمن بقلب الهمزة ياء ، والذى اتمن بإدغام الياء فى التاء ، وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم .

﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ فى الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات . ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أيها الشهود ، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم .

﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾أى يأثم قلبه أو قلبه يأثم . والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترفه ونظيره : العين زانية والأذن زانية . أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال ، وكأنه قيل : تمكن الإثم فى نفسه وأخذ أشرف أجزائه ، وفاق سائر ذنوبه . وقرئ قلبه بالنصب كحسن وجهه . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ تهديد .

الآيتان من ٢٨٤ : ٢٨٥

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ خلقًا وملكًا . ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ يعني ما فيها من السوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه . ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ يوم القيامة . وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض .

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ مغفرته . ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ تعذيبه ، وهو صريح فى نفى وجوب التعذيب . وقد رفعهما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف ، وجزمهما الباقون عطفًا على جواب الشرط ، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكل أو الاشتمال كقوله :

مَتَى تَأتِنَا تُلْمِمْ بنَا فِي دِيَارِنَا   تَجِدْ حَطَبًا جَزْلاً وَنَارًا تَاجَّجَا (١)

وإدغام الراء فى اللام لحن إذ الراء لا تدغم إلا فى مثلها . ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة .

آيتان من كنوز الجنة

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به ، وإنه جازم فى أمره غير شاك فيه . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ

(١) ذكره الكشاف دون أن ينسبه لقائل ، وهو من شواهد الكتاب أيضا ولم ينسبه سيبويه ولا محقق الشواهد إلى أحد من الشعراء ، وهو فى كتاب سيبويه جـ ١ ص٤٤٦ .

آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ لا يخلو من أن يعطف المؤمنون على الرسول ، فيكون الضمير الذى ينوب عنه التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين ، أو يجعل مبتدأ فيكون الضمير للمؤمنين . وباعتباره يصح وقوع كل بخبره خبر المبتدأ، ويكون إفراد الرسول بالحكم إما لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان، وإيمانهم عن نظر واستدلال . وقرأ حمزة والكسائى : وكتابه يعني القرآن ، أو الجنس . والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى وحدان الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل : الكتاب أكثر من الكتب .

﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ أى يقولون لا نفرق . وقرأ يعقوب لا يفرق بالياء علي أن الفعل لكل . وقرئ لا يفرقون حملاً على معناه كقوله تعالى ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (١) واحد فى معنى الجمع لوقوعه فى سياق النفى كقوله تعالى ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٢) ولذلك دخل عليه بين ، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أجبنا . ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أمرك . ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ اغفر لنا غفرانك ، أو نطلب غفرانك . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث .

الآية ٢٨٦

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمةً ، أو مادون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها كقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣) وهو يدل على عدم وقوع التكليف

(١) النحل : ٨٧ . (٢) الحاقة : ٤٧ . (٣) البقرة : ١٨٥ .

بالمحال ولا يدل على امتناعه . ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾ من خير . ﴿ **وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها ، وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال والشر تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجد في تحصيله وأعمل بخلاف الخير .

﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ أى لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة ، أو بأنفسهما إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلا فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدى إلى الهلاك ـ وإن كان خطأ ـ فتعاطى الذنوب لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة ، لكنه تعالي وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامة واعتدادا بالنعمة فيه ، ويؤيد ذلك مفهوم قوله ﷺ « **رفع عن أمتى الخطأ والنسيان** » .

﴿ **رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا** ﴾ عبئًا ثقيلا يأصر صاحبه ، أى يحبسه في مكانه . يريد به التكاليف الشاقة ، قرئ ولا تحمل بالتشديد للمبالغة . ﴿ **كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا** ﴾ حملاً مثل حملك إياه علي من قبلنا ، أو مثل الذى حملته إياهم فيكون صفة لإصرا ، والمراد به ما كلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة ، وخمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وصرف ربع المال للزكاة، أو ما أصابهم من الشدائد والمحن .

﴿ **رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** ﴾ من البلاء والعقوبة ، أو من التكاليف التى لا تفى بها الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق وإلا لما سئل التخلص منه ، والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى المفعول الثانى . ﴿ **وَاعْفُ عَنَّا** ﴾ وامح ذنوبنا . ﴿ **وَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة . ﴿ **وَارْحَمْنَا** ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا . ﴿ **أَنتَ مَوْلانَا** ﴾ سيدنا . ﴿ **فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ فإن من حق الولى أن ينصر مواليه على الأعداء ، أو المراد به عامة الكفرة .

روى انه ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت . وعنه عليه السلام « **أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة ، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل**»[١] . وعنه ﷺ : « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه**»[٢] . وهو يرد قول من استكره أن يقال سورة البقرة ، وقال : ينبغى أن يقال السورة التى تذكر فيها البقرة ، كما قال ﷺ « **السورة التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها ، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة قيل : يا رسول الله وما البطلة ؟ قال : السحرة** »[٣] .

---

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل من حديث ابن مسعود الأنصارى ، ورواه السيوطى فى الدر المنثور جـ ١ ص ٣٩٠ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : متفق عليه من حديث ابن مسعود ، واختلف العلماء فى معناه : فقيل : كفتاه اى أجزأتاه عن قيام الليل ، وقيل : كفتاه أجرا وفضلا ، وقيل كفتاه من كل شيطان أو من كل آفة ـ من تعليق الكشاف ـ .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور جـ ١ ص ٢٦ ، وقال : رواه الديلمى من حديث أبى سعيد الخدري رضى الله عنه .

(٣) سورة آل عمران

مدنية وآياتها مائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ④ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ⑤ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴾

* الإعجاز العلمى

﴿ الٓمٓ ﴾

الأسرار التى أخفاها الله عن الإنسان كثيرة . . ومن ذلك سر الحروف التى بدأ بها الحق ٢٩ سورة من سور القرآن البالغة ١١٤ سورة . الف لام ميم وكاف هاء عين صاد والف لام ميم صاد . . . الخ . . . وقد قيل فى محاولة تفسير ذلك أن الله أراد أن يتحدى العرب فى لغتهم التى كانوا يباهون العالم ببراعتهم ومقدرتهم فى استخدامها . . ولكن الذى لاحظوه أن الله لم يستخدم كل حروف اللغة البالغة ٢٨ حرفا بل استخدم ١٤ حرفا منها . أى نصف الحروف . .

ولكن الأغرب من ذلك أنه بمتابعة الحروف ال١٤ المستخدمة تبين اختلاف تكرار هذه الحروف فى أوائل السور . . فحرف النون ورد مرة و احدة فقط بلا تكرار ، وبعده حرف الصاد تكرر مرتين ثم حرف الحاء (٣ مرات) فحرف الكاف (٤ مرات) فحرف الياء (٥ مرات) فحرف الميم (٦ مرات) فحرف القاف (٧ مرات) فحرف الألف (٨ مرات) فحرف الطاء (٩ مرات) فحرف العين (١٠ مرات) فحرف اللام

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إنما فتح الميم في المشهور وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ليدل على أنها في حكم الثابت ، لأنها أسقطت للتخفيف لا للدرج ، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحد اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال لا لالتقاء الساكنين ، فإنه غير محذور في باب الوقف ، ولذلك لم تحرك الميم في الام . وقرئ بكسرها على توهم التحريك لالتقاء الساكنين . وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها علي الأصل .

﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ روى أنه ﷺ قال : « **إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم** » . ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن نجومًا . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل ، أو بالصدق في أخباره ، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو في موضع الحال .

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب .

﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ جملة على موسى وعيسى . واشتقاقهما من الورى والنجل ، ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسف لأنهما أعجميان ، ويؤيد ذلك أنه قرئ الأنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية ، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن ، ونافع وحمزة بين اللفظين إلا قالون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقين .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل تنزيل القرآن . ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع من قبلنا ، وإلا فالمراد به قومهما . ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية ، فإنها فارقة بين الحق والباطل . ذكر ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ماعداها ، كانه قال : وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل ، أو

*** الإعجاز العلمى**

= (١١ مرة) فحرف الهاء (١٢ مرة) فحرف السين (١٣ مرة) فحرف الراء (١٤ مرة) وسوف نستعرض بعد ما قيل عن هذه الحروف تباعا مع بداية السور الخاصة بها .

الزبور أو القرآن . وكرر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً ، وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل ، أو المعجزات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بسبب كفرهم . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب . ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم ، والنقمة عقوبة المجرم والفعل منه نقم بالفتح والكسر ، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلي ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيما للأمر ، وزجرا عن الإعراض عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي شيء كائن في العالم كليا كان أو جزئيا ، إيمانا أو كفرا . فعبر عنه بالسماء والأرض إذ الحس لا يتجاوزهما ، وإنما قدم الأرض ترقيا من الأدني إلي الأعلي ، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها . وهو كالدليل علي كونه حيا .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (١) أي من الصور

---

(١) جاء فى تعليق المنتخب فى التفسير :

تشير هذه الآية الكريمة إلى وجه من الوجوه المعجزة لقدرة الباري المصور ، وهو تحول البويضة المخصبة ، وهي خلية واحدة ضئيلة الحجم إلى إنسان سوى بكل ما يحويه جسمه من أجهزة وأعضاء وأنسجة بملايين الخلايا وآيات فى البنيان والوظيفة ، وسوف تتوالى فى القرآن الكريم آيات تفصل بعض أطوار النمو الجنيني .

ولكن الذى تنوه به هذه الآية الكريمة علي وجه الخصوص هو المشيئة الإلهية المطلقة فى تصوير الجنين ، إذ أن الله يودع فى البويضة الدقيقة الحجم جميع المورثات الجنينات التى تحدد جنس المولود وتصيبه من الخصائص الجسمانية ، بل ومواهبه العقلية والنفسية والسمات الرئيسية فى تكوين الشخصية الوارثة ، وإن كانت تسير على قوانين ثابتة إلا أن هذا التحديد لكل فرد بذاته من التقاء بويضة بعينها وحيوان منوى بعينه من بين الملايين من أقرانه هو من دلائل المشيئة المطلقة حتى إنه لا يتماثل فردان فى العالم تماثلا كاملا ، اللهم إلا فى توائم البويضة الواحدة تكاد تتطابق.

المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٧١ .

المختلفة ، كالدليل علي القيومية ، والاستدلال علي أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره . وقرئ تصورکم أي صورکم لنفسه وعبادته .

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لايعلم غيره جملة ما يعلمه ولا يقدر علي مثل ما يفعله.

* الإعجاز العلمى

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ ... الاعراف .

﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ﴾ . . الزمر

﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ . . الانفطار .

﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ . . التغابن .

يبدأ تكوين الوجه فى فترة مبكرة من حياة الجنين وأول ما يبدأ هو ما يسمى بفتحة الفم البدائية التى تظهر نتيجة انحناء الجزء الرأسى من الجنين فى الأسبوع الرابع وفى الأسبوع الخامس تظهر نتوءات تحيط بفتحة الفم البدائية وهى خمسة منها النتوء الجبهى . . . وهكذا حتى أواخر الأسبوع الحادى عشر حيث تتضح فى الجنين المعالم الإنسانية كاملة والمقصود بالتصوير فى الرحم هو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة تختلف نوعيتها ذكورة أو أنوثة، والذكورة والأنوثة تختلف أشكالا بيضاء أو سمراء ، قصيرة أو طويلة ، فكل إنسان يولد يصنع بيد قديرة بقدرة ذاتية وليس كما يظن البعض أنه مصنع يصنع قالبا ثم يشكل عليه لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل شواذًا فى الخلق ليلفت نظر الناس إلي وجود الحق سبحانه وتعالى .

فعلم الله سبحانه وتعالى شامل لما فى الرحم من ذكورة وأنوثة ومن صفات وملامح للجنين ومن طبائع مورثة وأخري ستكتسب فيما يقبل من أيام والملك الموكل بالأرحام يعلم ذلك كله ويكتبه كما جاء فى الأحاديث النبوية يكتب « أجله ـ رزقه ـ عمله ـ شقى أم سعيد » تلك التفاصيل الهائلة . . وهل هو سقط أم تمام . . مشوه الخلق أم سليم . . ناقص الأطراف أم كاملها . . دماغه . . أعصابه . . عضلاته . . سبحان الله الذى يصور كل هذا فى الأرحام .

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إشارة إلي كمال قدرته وتناهي حكمته . قيل : هذا حجاج علي من زعم أن عيسي كان ربا ، فإن وفد نجران لما حاجوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة ، من أولها إلي نيف وثمانين آية تقريرا لما احتج به عليهم وأجاب عن شبههم .

الآية : ٧

﴿ هُوَ الَّذِي أَنـزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنـزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ﴾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من الإجمال والاحتمال .﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصله يرد إليها غيرها والقياس أمهات فأفرد علي تأويل كل واحدة ، أو علي كأن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ محتملات لا يتضح مقصودها – لإجمال أو مخالفة ظاهر – إلا بالفحص والنظر ليظهر فيها فضل العلماء ، ويزداد حرصهم علي أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها ، فينالوا بها – وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها ، والتوفيق بينها وبين المحكمات – معالي الدرجات .

وأما قوله تعالي ﴿ الَـر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ (١) فمعناه أنها حفظت من فساد المعني وركاكة اللفظ ، وقوله ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ (٢) فمعناه أنه يشبه بعضه بعضا في صحة المعني وجزالة اللفظ ، وأخر جمع أخري وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته ، أن معناه أن القياس أن يعرف لا أنه في معني المعرف أو عن أخر من .

---

(١) هود : ١ (٢) الزمر : ٢٣ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ عدول عن الحق كالمبتدعة . ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه . ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ وطلب أن يؤولوه علي ما يشتهونه ، ويحتمل أن يكون الداعي إلي الاتباع مجموع الطلبتين ، أو كل واحدة منهما علي التعاقب . والأول يناسب . المعاند والثاني يلائم الجاهل .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه . ﴿ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ، ومن وقف علي إلا الله فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه : كمدة بقاء الدنيا ، ووقت قيام الساعة ، وخواص الأعداد كعدد الزبانية ، أو بمبادل القاطع علي أن ظاهره غير مراد ولم يدل علي ما هو المراد . ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ استئناف موضح لحال الراسخين ، أو حال منهم أو خبر إن جعلته مبتدأ .

﴿ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر ، وإشارة إلي ما استعدوا به للاهتداء إلي تأويله ، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس ، واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته ، وما قبلها من تصوير الجسد وتسويته ، أوأنها جواب عن تشبث النصاري بنحو قوله تعالي ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [1] كما أنه جواب عن قوله لا أب له غير الله ، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالي مصور الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفة أب ومن غيرها ، وبأنه صوره في الرحم والمصور لا يكون أب المصور .

---

(١) النساء : ١٧١ .

الآيات من ٨ : ١٢

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) ﴾

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ من مقال الراسخين . وقيل : استئناف والمعني لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلي اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه ، قال عليه الصلاة والسلام « **قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه علي الحق وإن شاء أزاغه عنه** » (١) .

وقيل : لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا . ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ إلي الحق والإيمان بالقسمين . من المحكم والمتشابه ، وبعد نصب علي الظرف ، وإذ في موضع الجز بإضافته إليه . وقيل إنه بمعني إن .

﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك ، أو توفيقا للثبات علي الحق أو مغفرة للذنوب . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ لكل سؤال ، وفيه دليل علي أن الهدي والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم علي عباده لا يجب عليه شيء .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم أو لجزائه . ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء ، نبهوا به علي أن معظم غرضهم من الطلبتين

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره جـ٢ ص ١٠ بلفظ : « ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » وعزاه إلى أسماء بنت يزيد بن السكن .

ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصود والمآل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ فإن الإلهية تنافيه وللإشعار به وتعظيم الموعد لون الخطاب ، واستدل به الوعيدية . وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا .

وعيد للكفار

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ عام في الكفرة . وقيل : المراد به وفد نجران ، أو اليهود، أو مشركو العرب . ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي من رحمته ، أو طاعته علي معني البدلية ، أو من عذابه ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ حطبها . وقرئ بالضم بمعني أهل وقودها .

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك ، أو توقد بهم كما توقد بأولئك ، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء كدأبهم في الكفر والعذاب ، وهو مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فنقل إلي معني الشأن ..﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ عطف علي آل فرعون . وقيل استئناف . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ حال بإضمار قد ، أو استئناف بتفسير حالهم ، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم . ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف الكفرة .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ اى قل لمشركي مكة ستغلبون يوم بدر ، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغمارا لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس ، فنزلت (١) . وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر ، وضرب

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه والطبرى فى تفسيره ، من رواية ابن اسحاق عن محمد بن ابى محمد عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى اللهعنهما .

الجزية علي من عداهم وهو من دلائل النبوة . وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه .

﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ تمام ما يقال لهم ، أو استئناف وتقديره بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم .

الآيتان من ١٣ : ١٤

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾

آية بدر

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود ، وقيل للمؤمنين . ﴿ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ يوم بدر . ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يري المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين ، وكان قريبا من ألف ، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وذلك كان بعد ما قللهم في أعينهم حتي اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم ، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتي غلبوا مددا من الله تعالي للمؤمنين ، أو يري المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾(١). ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء وقرئ بهما علي البناء للمفعول أي يريهم الله ، أو يريكم ذلك بقدرته ، وفئة بالجر علي البدل من فئتين والنصب علي الاختصاص ، أو الحال من فاعل التقتا ﴿ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ رؤية ظاهرة معاينة . ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾

---

(١) الأنفال : ٦٦ .

نصره كما أيد أهل بدر . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي التقليل والتكثير، أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح ، وكون الواقعة آية أيضا يحتملها ويحتمل وقوع الأمر علي ما أخبر به الرسول ﷺ . ﴿ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي لعظة لذوي البصائر . وقيل لمن أبصرهم.

حب الناس للشهوات

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء علي أنهم انهمكوا في محبتها حتي أحبوا شهوتها كقوله تعالي ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾[١] والمزيِّن هو الله تعالي لأنه الخالق للأفعال والدواعي ، ولعله زينه ابتلاء ، أو لأنه يكون وسيلة إلي السعادة الأخروية إذا كان علي وجه يرتضيه الله تعالي ، أو لأنه من أسباب التعايش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم ، وفرق الجبائى بين المباح والمحرم. ﴿ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ بيان للشهوات ، والقناطير المال الكثير. وقيل مائة ألف دينار ، وقيل ملء مسك ثور[٢] . واختلف في أنه فعلال أو فنعال ، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة .

والمسومة المعلمة من السومة وهي العلامة ، أو المرعية من أسام الدابة وسومها ، أو المطهمة . والأنعام الإبل والبقر والغنم ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إشارة إلي ما ذكر ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ أي المرجع ، وهو تحريض علي استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية .

---

(١) ص : ٣٢ .

(٢) مسك الثور : جلده بعد ذبحه ويجمع على أمساك ومسوك .

الآيات من ١٥ : ١٨

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾

نعيم الآخرة باق

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالي خير من مستلذات الدنيا. ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ استئناف لبيان ما هو خير ، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات علي ما هو جنات ، ويؤيده قراءة من جرها بدلا من خير﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مما يستقذر من النساء . ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالي ﴿ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾[١] بكسر الراء وهما لغتان . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ، أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات ، وقد نبه بهذه الآية علي نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالي لقوله تعالي ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[٢] وأوسطها الجنة ونعيمها .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ صفة للمتقين ، أو للعباد ، أو مدح منصوب أو مرفوع ، وفي ترتيب السؤال علي مجرد الإيمان دليل علي أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها .

---

(١) المائدة : ١٦ .　　(٢) التوبة : ٧٢ .

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ حصر لمقامات السالك علي أحسن ترتيب ، فإن معاملته مع الله تعالي إماتوسل وإما طلب ، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها علي الفضائل والصبر يشملهما ، وإما بالبدن ، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير ، وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتوسيط الواو بينهما للدلالة علي استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها . وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلي الإجابة ، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفي والروع أجمع سيما للمجتهدين ، قيل إنهم كانوا يصلون إلي السحر ثم يستغفرون ويدعون .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ بني وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها .

﴿ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ بالإقرار ﴿ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد . ﴿ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه وانتصابه علي الحال من الله ، وإنما جاز إفراده بها ولم يجز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾(١) أو من هو والعامل فيها معني الجملة أي تفرد قائما . أو أحقه لأنها حال مؤكدة ، أو علي المدح ، أو الصفة للمنفي وفيه ضعف للفصل وهو مندرج في الجملة أي تفرد قائما . أو أحقه لأنها حال مؤكدة ، أو علي المدح ، أو الصفة للمنفي وفيه ضعف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة أو حالا من الضمير ، وقرىء القائم بالقسط علي البدل من هوأو الخبر لمحذوف .

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ كرره للتاكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله :﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما . وقدم العزيز لتقدم العلم بقدرته علي العلم بحكمته ، ورفعهما علي البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد .

---

(١) الأنبياء : ٧٢ .

فضل هذه الآية

وقد روي في فضلها أنه ﷺ قال « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالي : إن لعبدي هذا عندي عهدا وأنا أحق من وفي بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة » [1] . وهي دليل علي فضل علم أصول الدين وشرف أهله .

الآيات من ١٩ : ٢٢

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾

الدين عند الله الإسلام

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولي أى لا دين مرضي عند الله سوي الإسلام ، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ ، وقرأ الكسائي بالفتح علي أنه بدل من أنه بدل الكل أن فسر الإسلام بالإيمان ، أو بما يتضمنه وبدل اشتمال إن فسر بالشريعة . وقرئ أنه بالكسر وأن بالفتح علي وقوع الفعل علي الثاني ، واعتراض ما بينهما أو إجراء شهد مجري قال تارة وعلم أخري لتضمنه معناهما .

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من اليهود والنصاري ، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره جـ ٢ ص ١٩ وعزاه إلى الطبرانى فى معجمه الكبير من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

ونفاه آخرون مطلقا ، أو في التوحيد فثلث النصاري ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) . وقيل موسي اختلفوا بعده . وقيل هم النصاري اختلفوا في أمر عيسي عليه السلام . ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ حسدا بينهم وطلبا للرئاسة ، لا لشبهة وخفاء في الأمر . ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وعيد لمن كفر منهم .

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ في الدين ، أو جادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج . ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له لا أشرك فيها غيره ، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسل ، وإنما عبر بالوجه عن النفس لأنه أعرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوي والحواس ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ عطف علي التاء في أسلمت وحسن للفصل ، أو مفعول معه . ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ﴾ الذين لا كتب لهم كمشركي العرب .

﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة ، أو أنتم بعد علي كفركم ونظيره وقوله ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٢) وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة . ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال . ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وعد ووعيد .

اعتداء الكفارعلي الأنبياء والمصلحين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام . قتل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي

---

(١) التوبة : ٣٠ .　　　(٢) المائدة : ٩١ .

ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم ، وقد سبق مثله في سورة البقرة . وقرأ حمزة ويقاتلون الذين ، وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إن كليت ولعل ولذلك قيل الخبر .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ كقولك زيد فافهم رجل صالح ، والفرق أنه لا يغير معني الابتداء بخلافهما . ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يدفع عنهم العذاب .

الآيات من ٢٣ : ٢٧

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية ، ومن للتبعيض أو للبيان . وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير. ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن ، أو التوراة لما روي (**أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم**[1] **فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد علي أي دين أنت ؟** .

(١) المدراس : بيت عبادة اليهود ومدارسة كتابهم .

فقال : علي دين إبراهيم . فقالا له إن إبراهيم كان يهوديا فقال : هلموا إلي التوراة فإنها بيننا وبينكم . فأبيا فنزلت)[1] وقيل نزلت في الرجم . وقرئ ليحكم علي البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم ، وفيه دليل علي أن الأدلة السمعية حجة في الأصول . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب . ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض ، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلي التولي والإعراض .﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب علي أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ . ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياما قلائل ، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، أو أنه تعالي وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودات . روي (أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالي علي رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلي النار) . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ . وفيه دليل علي أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد في النار ، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها ، فإذن هي بعد الخلاص منها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الضمير لكل نفس علي المعني لأنه في معني كل إنسان .

---

(١) رواه الطبرى في تفسيره من رواية ابن اسحاق عن محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

من آيات عزة الله وقدرته وتصرفه في ملكه

﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ** ﴾ الميم عوض عن يا ولذلك لا يجتمعان ، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم . وقيل : أصله يا الله أمنا بخير ، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته . ﴿ **مَالِكَ الْمُلْكِ** ﴾ بتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ، وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية . ﴿ **تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ** ﴾ تعطى منه ما تشاء من تشاء وتسترد ، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه . وقيل : المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿ **وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ** ﴾ في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان . ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ذكر الخير وحده لأنه المقضى بالذات ، والشر مقضى بالعرض ، إذ لا يوجد شر جزئى ما لم يتضمن خيراً كلياً ، أو لمراعاة الأدب في الخطاب ، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روى (أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، وأخذوا يحفرون ، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره ، فجاء ﷺ فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها ، وبرق منها برق أضاء منه ما بين لابتيها لكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون وقال : « **أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب** ، ثم ضرب الثانية فقال : **أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم** ، ثم ضرب الثالثة فقال : **أضاءت لى منها قصور صنعاء** » وأخبرنى جبريل عليه السلام **أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا** » . فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق) فنزلت [١] . فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقوله ﴿ **إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقى وأبو نعيم فى دلائل النبوة عن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن ابيه عن جده .

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ عقب ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والموت والحياة وسعة فضله ، دلالة على أن من قدر علي ذلك قدر على معاقبة الذل والعز وإيتاء الملك ونزعه .

ورواه الواقدى فى المغازى . وذكره الواحدى فى اسباب النزول – ورواه النسائى وأحمد فى مسنده واسحاق بن راهويه ، وابن أبى شيبة من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه.

*** الإعجاز العلمى**

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

أشار القرآن الكريم فى بيان علمى دقيق إلى ظاهرة الليل والنهار فى أكثر من موضع بتعبيرات دقيقة محكمة كقوله تعالي :

﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ... ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل .... ﴾ [الزمر : ٥] .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون .... ﴾ [يس : ٣٧] .

إن معجزة آية الليل والنهار مرتبطة تماماً بحركة دوران الأرض معني هذا أن القرآن الكريم يريد أن يلفت أنظارنا إلى ظاهرتين كونيتين معا وهى ظاهرة تتابع الليل والنهار وظاهرة حركة دوران الأرض لأن تتابع الليل والنهار مرتبط بحركة دوران الأرض حول محورها فالأرض تتم دورة واحدة حول محورها في مدة أربع وعشرين ساعة بسرعة ألف ميل فى الساعة ولو حدث أى اختلاف فى هذا التقدير لانقلبت الموازين على سطح الأرض ولطال الليل حتى يصبح سرمداً وقصر النهار أو يحدث العكس . ولذلك أراد الله أن يلفت أنظارنا إلى ذلك فقال لنا فى كتابه الكريم : ﴿ قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوما لقيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ [القصص : ٧١] .

فماذا لو وقفت الأرض عن دورانها فأصبح نصفها المواجه للشمس نهار دائماً والبعيد عنها ليلاً دائما ؟

ويلاحظ أنه فى الآية رقم ٥٠ من سورة الزمر استخدم الحق سبحانه وتعالى لفظ التكوير لليل والنهار ، والتكوير لا يتم عادة إلا حول جسم كروى .

والولوج : الدخول فى مضيق . وإيلاج الليل والنهار : إدخال أحدهما فى الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص . وإخراج الحى من الميت وبالعكس . إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها ، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميت بالتخفيف .

*** الإعجاز العلمى**

هذه الحقائق يعبر عنها القرآن الكريم بكل دقة وكأن اكتشاف استدارة الأرض قد تم فى عصر التنزيل رغم اكتشاف العلم لذلك لم يأت إلا مؤخرا .

كما أن القرآن يقر بأن الليل والنهار يجريان وأن أحدهما لايسبق الآخر وهذا إعلان بأن الأرض كروية لأن الليل والنهار موجودان فى وقت واحد على سطحها ولو كانت الأرض مبسوطة فإن الأمر لا يخرج عن حالتي : نهار دائم وليل دائم .

ثم نأتى لدقة اللفظ القرآني في كلمة ﴿ تولج ﴾ فى سورة آل عمران : ٢٧ ، وكلمة ﴿ نسلخ ﴾ فى سورة يس : ٣٧ ، والولوج : أى الدخول فى مضيق والمراد هنا إدخال أحدهما فى الآخر بالتعقيب وهذا فى حد ذاته إعجاز لأن الليل لا ينجلي فجأة ويظهر النهار وكذلك الشمس لا تختفى فجأة ويظهر الليل ، ولكنها ظاهرة تأخذ انسيابية فى انسحاب الليل والظلام وظهور الضوء وكذلك فى آخر النهار من انسحاب الضوء ودخول الظلام وهكذا جاء التعبير القرآنى المعجز ليصور لنا هذا المشهد فى وقت نزول القرآن وقبل أن يعرف العقل البشرى فى هذا الوقت علوم كروية الأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس .

الآيات من ٢٨ : ٣١

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾

النهى عن موالاة غير المؤمن

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة وصداقة جاهلية ونحوهما ، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا فى الله ، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية . ﴿ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة ، وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة . ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أى اتخاذهم أولياء. ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أى من ولايته فى شىء يصح أن يسمى ولاية ، فإن موالاة المتعاديين لا يجتمعان قال :

تَوَدُّ عَدُوِّى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِى صَدِيقُكَ لَيْسَ النوك عَنْكَ بِعَازِبِ [١]

﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم مايجب اتقاؤه ، أو اتقاء . والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا . وقرأ يعقوب تقية .

---

(١) رواه الكشاف في تفسيره وذكره بعده بيتا آخر وهو :

فليس أخى ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى فى المغايب

ومعنى النوك : الحمق ، والعازب : البعيد

يقول : أن الصديق هو الذى يوالى صديق صديقه ويعادى عدو صديقه ، ومن لايغفل ذلك فهو أحمق .

منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة ، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام : كن وسطاً وامش جانباً . ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى النهى فى القبح وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه بمايحذر من الكفرة .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ أى أنه يعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فيعلم سركم وعلنكم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه . والآية بيان لقوله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ وكأنه قال : ويحذركم نفسه لأنها متصفه بعلم ذاتى محيط بالمعلومات كلها ، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها ، فلا تجسروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ يوم منصوب بتود أى تتمني كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها ، أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم ، وهو له أمداً بعيداً ، أو بمضمر نحو اذكر ، وتود حال من الضمير فى عملت أو خبر لما عملت من سوء وتجد مقصور على ما عملت من خير ، ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود . وقرئ : ودت وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنه حكاية كائن وأوفق للقراءة المشهورة . ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ كرره للتأكيد والتذكير . ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم ، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشي عذابه .

اتباع النبى علامة حب الله

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال

أدركته فيه ، بحيث يحملها على ما يقربها إليه ، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته . ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر أي يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جانب عزه ويبوئكم في جوار قدسه ، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ . روى : أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه . وقيل : نزلت في وفد نجران لما قالوا : إنما نعبد المسيح حبًا لله . وقيل : في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقًا من العمل .

الآيات من ٣٢ : ٣٥

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) ﴾

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يحتمل المضي والمضارعة بمعنى : فإن تتولوا . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ لا يرضى عنهم ولا يثنى عليهم ، وإنما لم يقل : لا يحبهم لقصد العموم والدلالة علي أن التولي كفر ، وأنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين .

قصة مريم وزكريا ويحيى والمسيح عليهم السلام

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ، ولذلك قووا علي ما لم يقو عليه غيرهم . لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضًا

عليها ، وبه استدل على فضلهم على الملائكة ، وآل إبراهيم ، إسماعيل وإسحاق وأولادهما . وقد دخل فيهم الرسول ﷺ ، وآل عمران موسي وهارون ابنا عمران ابن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبى يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا ابن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشى بن عوبد بن شلمون بن ياعز بن نحشون ابن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام ، وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة .

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح أى إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض . وقيل بعضها من بعض فى الدين . والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فعليه من الذر أو فعولة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفى من كان مستقيم القول والعمل ، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها .

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ فينتصب به إذ على التنازع . وقيل نصبه بإضمار اذكر ، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى ، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسي وهارون فظن أن المراد زوجته ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج بنته ايشاع ، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روى أنها كانت عاقراً عجوزاً ، فبينما هى فى ظل شجرة إذا رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت : اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران . وكان هذا النذر مشروعاً فى عهدهم للغلمان فلعلها بنت الأمر على التقدير أو طلبت ذكراً ﴿مُحَرَّرًا ﴾ معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء ، أو مخلصاً للعبادة ونصبه على الحال . ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ ما نذرته . ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ لقولى ونيتى .

الآيتان من ٣٦ : ٣٧

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيثه لأنه كان أنثى ، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها علم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً . أو علي تأويل مؤنث كالنفس والحبلة . وإنما قالته تحسراً وتحزنًا إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ أي بالشيء الذي وضعت . هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وَضَعْتُ على أنه من كلامها تسلية لنفسها أي ولعل لله سبحانه وتعالى فيه سراً ، أو الأنثى كانت خيراً . وقرئ وضعت على أنه خطاب الله تعالى لها . ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ بيان لقوله والله أعلم أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت ، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعني وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس . ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ عطف علي ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض ، وإنما ذكرت ذلك لربها تقربًا إليه وطلبًا لأن يعصمها ويصلحها حتي يكون فعلها مطابقًا لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعني : العابدة . وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ أجيرها بحفظك . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ المطرود ، وأصل الرجم الرمي بالحجارة . وعن النبي ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها** » . ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل

مـولود بحيث يتـأثر منه إلا مريم وابنـها فإن الله تعالى عصمـهما ببركة هذه الاستعاذة .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر . ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي بوجه حسن يقبل به النذائر ، وهو إقامتها مقام الذكر ، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة . روى أن حنة لما ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا : أنا أحق بها ، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة ، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا . ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذي قبول حسن، وأن يكون تقبل بمعني استقبل كتقضى وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن . ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها . ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم ، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ، وخفف الباقون . ومدوا زكرياء مرفوعًا . ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها ، في المسجد ، أو أشرف مواضعه ومقدمها ، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس . ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ جواب كلما وناصبه . روي : أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب ، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس . ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك ، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء . وجعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه . ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فلا تستبعده . قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثديا قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

بغير تقدير لكثرته ، أو بغير استحقاق تفضلاً به . وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى . روى (**أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال : هلمي يا بنية . فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فقال لها : أني لك هذا ! فقالت : هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال الحمد لله الذى جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل ، ثم جمع علياًوالحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتي شبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها**) [١] .

الآيات من ٣٨ : ٤١

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١) ﴾

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ فى ذلك المكان ، أو الوقت إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان ، لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى . **﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾** كما وهبتها لحنة العجوز العاقر . وقيل : لما رأى الفواكه فى غير أوانها انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ ، فسأل وقال : هب لى من لدنك ذرية ، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة . **﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾** مجيبه .

(١) رواه أبو يعلى من حديث جابر بن عبد الله ، وهو من رواية ابن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه قال ابن حجر رحمه الله : والمتن ظاهر النكارة .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل . فإن المنادى كان جبريل وحده . وقرأ حمزة والكسائى فناداه بالإمالة والتذكير . ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ أى قائمًا فى الصلاة ، ويصلي صفة قائم أو خبر أو حال آخر أو حال من الضمير فى قائم . ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ أى بأن الله .

وقرأ نافع وابن عامر بالكسر (١) على إرادة القول ، أو لأن النداء نوع منه . وقرأ حمزة والكسائى يُبْشِرُك .

ويحيى اسم أعجمى وإن جعل عربيًا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى بعيسى عليه السلام ، سمى بذلك لأنه وجد بأمره تعالى دون أب فشابه البدعيات (٢) التى هى عالم الأمر ، أو بكتاب الله . سمى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة (٣) لقصيدته .

﴿ وَسَيِّدًا ﴾ يسود قومه ويفوقهم وكان فائقًا للناس كلهم فى أنه مَا هَمَّ بمعصية قط .

﴿ وَحَصُورًا ﴾ مبالغًا فى حبس النفس عن الشهوات والملاهى . روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت . ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ناشئًا منهم أوكائنًا من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة ..

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ استبعاداً من حيث العادة ، أو استعظامًا أو تعجيبًا أو استفهامًا عن كيفية حدوثه . ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أدركنى كبر السن وأثر في . وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة . ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ لاتلد ، من العقر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك

---

(١) بالكسر : أى بكسر همزة إن

(٢) البدعيات : الأشياء المبتدعة على غير مثال وخلقت بكلمة كن .

(٣) الحويدرة : اسم شاعر وربما قالوا فيه الحادرة .

الفعل ، وهو إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر ، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد ، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أى الله علي مثل هذه الصفة ، ويفعل ما يشاء بيان له أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر كذلك ، والله يفعل ما يشاء بيان له .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ علامة أعرف بها الحبل لأستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة الانتظار . ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أى لا تقدر على تكليم الناس ثلاثًا ، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة ليخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره ، قضاء لحق النعمة ، وكأنه قال آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال . ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ إشارة بنحو يد أو رأس ، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر ، والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير . وقرئ رمزًا بفتحتين كخدم جمع رامز ورمزا كرسل جمع رموز علي أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله :

متى ما تَلْقَنى فردَيْنِ ترْجِف ... روانفُ أليتَيْكَ وتُستَطَارَا (١)

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً ﴾ فى أيام الحبسة ، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه ، وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار . ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ ﴾ من الزوال إلى الغروب . وقيل : من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل . ﴿ وَالإِبْكَارِ ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى . وقرئ بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار .

---

(١) من شعر عنترة العبسى يخاطب عمارة بن زياد العبسى منافسه فى حب عبلة وكان عمارة قد هدد عنتره وقال لقومه : ليتنى لقيت عنترة فقتلته وأرحتكم منه وأعلمتكم انه عبد .
والروانف : الأطراف ، والألية : المؤخرة – وتستطار : تنتفض رعبا .

الآيات من ٤٢ : ٤٥

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ كلموها فاهاً كرامة لها ، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لزكريا أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام ، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبئ امرأة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ (١) . وقيل : ألهموها ، والاصطفاء الأول تقبلها من أمها ولم يقبل أنثى وتفريغها للعبادة وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرها عما يستقذر من النساء . والثاني : هدايتها وإرسال الملائكة إليها ، وتخصيصها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتها مما قذفتها به اليود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أمرت بالصلاة فى الجماعة بذكر أركانها مبالغة فى المحافظة عليها ، وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك فى شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب ، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيذان بأن من ليس فى صلاتهم ركوع ليسوا مصلين . وقيل : المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالي : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ (٢) وبالسجود الصلاة كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ (٣) وبالركوع الخشوع والإخبات .

---

(١) يوسف ١٠٩ (٢) الزمر ٩ . (٣) ق ٤٠ .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أى ما ذكرنا من القصص من الغيوب التى لم تعرفها إلا بالوحى . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ ﴾ أقداحهم للاقتراع . وقيل : اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركًا ، والمراد تقرير كونه وحيًا على سبيل التهكم بمنكريه ، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقى أن يكون الاتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ليعلموا ، أو يقولوا أيهم يكفل مريم . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ تنافسًا فى كفالتها.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ ﴾ بدل من إذ قالت الأولى وما بينهما اعتراض ، أو من إذا يختصمون على أن وقوع الاختصام والبشارة فى زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا .

﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه : المبارك ، وعيسى مُعَرَّب ايشوع واشتقاقهما من المسح لأنهما مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب ، أو مسح الأرض ولم يقم فى موضع ، أو مسحه جبريل ، ومن العيس وهو بياض يعلوه حمرة ، تكلف لا طائل تحته ، وابن مريم لما كان صفة تميزتمييز الأسماء نظمت فى سلكها ، ولا ينافى تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضاف ويحتمل أن يراد به أن الذى يعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة ، فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته ، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهًا على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب .

﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ حال مقدرة من كلمة وهى وإن كانت نكرة لكنها موصوفة وتذكيره للمعني ، والوجاهة فى الدنيا النبوة وفى الآخرة الشفاعة .
﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ من الله ، وقيل : إشارة إلى علو درجته فى الجنة أو رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة .

الآيات من ٤٦ : ٤٨

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) ﴾

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أى يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً(١)، كلام الأنبياء من غير تفاوت ، والمهد مصدر سمى به مايمهد للصبى فى مضجعه . وقيل : إنه رفع شاباً والمراد وكهلاً بعد نزوله ، وذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية . ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرها الذى فى يكلم .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ تعجب ، أو استبعاد عادى ، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ القائل جبريل ، أو الله تعالى وجبريل حكي لها قول الله تعالى . ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطيباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج ، أو عطف على يبشرك ، أو وجيهاً والكتاب الكتبة أو جنس الكتب المنزلة . وخص الكتابان لفضلهما . وقرأ نافع وعاصم ويعلمه بالياء .

---

(١) ربما كان النص فى إثبات تكلمه كهلا للدلالة على أنه ينزل بعد رفعه ليكلم الناس فى حال كهولته فيكون ذلك معجزة أخرى كمعجزة تكلمة فى المهد والله أعلم .

الآيات من ٤٩ : ٥٢

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ .

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ منصوب بمضمر عل إرادة القول تقديره ويقول أرسلت رسولاً بأنى قد جئتكم ، بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمنًا معنى النطق فكأنه قال : وناطقًا بأنى قد جئتكم ، وتخصيص بنى إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم . ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ نصب بدل من أنى قد جئتكم ، أو جر بدل من آية ، أو رفع علي هى أنى أخلق لكم والمعنى : أقدر لكم وأصور شيئًا مثل صورة الطير ، وقرأ نافع إنى بالكسر ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل . ﴿ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فيصير حيًا طيَّارًا بأمر الله ، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه . وقرأ نافع هنا وفى المائدة طائرًا بالألف والهمزة . ﴿ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ﴾ الأكمه الذى ولد أعمى أو الممسوح العين . روى : أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوى إلا بالدعاء .

﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كرر بإذن الله دفعًا لتوهم الألوهية ، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية .

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات ، أو مصدقين للحق غير معاندين .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ عطف على رسولا على الوجهين ، أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم أى وجئتكم مصدقًا .

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم ﴾ مقدر بإضماره ، أو مردود على قوله : أنى قد جئتكم بآية، أو معطوف على معنى مصدقًا كقولهم جئتك معتذراً ولأطيب قلبك . ﴿ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل فى السبت ، وهو يدل على أن

* **الإعجاز العلمي**

﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

يشك بعض الناس فى المعجزة الخاصة بسيدنا عيسى فى قوله سبحانه وتعالي : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ﴾ قائلين أن الطب الحديث حاليًا يُمكّن الأطباء من إجراء الكثير من العمليات الناجحة التي تعيد النظر فأين وجه الإعجاز هنا . . ؟

ونقول لهؤلاء : إن معجزة سيدنا عيسى عليه السلام أنه كان يداوي ويزيل أثر البلاء من المكفوفين أو ممسوح العينين فقط بالدعاء دون علمه بسبب البلاء أو إجراء أى عمليات جراحية فقط بقوله « بإذن الله » دفعًا لتوهمالألوهية .

ولكن فى عصرنا الحديث هذا لا يستطيع الطبيب أن يجزم بنجاح أى عملية جراحية إلا بعد فحوص وأشعة وتحاليل حتي يتيقن أن سبب العجز يحتاج لتدخل جراحى لإزالته .

ولا يتحقق هذا الأمر بالنسبة لأصحاب العاهات الخلقية مجهولة السبب فمثلا كم من إنسان كان سليم أداة النطق من لسان وأحبال صوتيه ولا يستطيع الكلام ولم تنفع معه أى جراحة وكم من كفيف لا يري رغم وجود الجهاز البصرى من عينين وحدقة وخلافه . هنا كانت معجزة المسيح عليه السلام فى إبراء الأكمة والأبرص مضاف إليها إحياء الموتى بإذن الله .

وهذا بمقياس العلم الحديث إعجاز .

شرعه كان ناسخًا لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يخل ذلك بكونه مصدقًا للتوراة ، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب ، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان .

﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم وهو قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُم ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبى والساحر ، أو جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله ﴿ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم ﴾ أى جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم ، والأول لتمهيد الحجة والثانى لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّه ﴾ أى لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله فى المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه ، ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد ، وقال ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي ، ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ، ونظيره قوله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

المؤامرة على قتل عيسى ونجاته منها

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس .﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ملتجئًا إلى الله تعالى أو ذاهبًا أو ضامًا إليه ، ويجوز أن يتعلق الجار بانصارى مضمنًا معنى الإضافة ، أى من الذين يضيفون أنفسهم إلي الله تعالى فى نصرى . وقيل : (إلى) ها هنا بمعنى (مع) أو (فى) أو (اللام) .

﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ حوارى الرجل خاصته من الحور وهو البياض الخالص ، ومنه الحواريات للحضريات لخلوص الوانهن . سمي به أصحاب عيسى عليه

الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم . وقيل : كانوا ملوكًا يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود . وقيل : قَصَّارين يحورون الثياب أى يبيضونها . ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا ﴾ أى أنصار دين الله . ﴿ بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم .

الآيات من ٥٣ : ٥٩

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى مع الشاهدين بوحدانيتك ، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء علي الناس .

﴿ وَمَكَرُوا ﴾ أى الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وكَّلوا عليه من يقتله غيلة . ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل . والمكر من حيث إنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضره لا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أقواهم مكرًا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب .

رفع عيسى إلى السماء

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين ، أو المضمر مثل وقع ذلك .

﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى ، عاصماً إياك من قتلهم ، أو قابضك من الأرض من توفيت مالى ، أو متوفيك نائماً إذ روى أنه رفع نائماً ، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت . وقيل : أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى . ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي . ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من سوءجوارهم أو قصدهم ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف فى غالب الأمر ، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة .﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به ، وغلب المخاطبين على الغائبين . ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له . وقرأ حفص فيوفيهم بالياء . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ تقرير لذلك .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسي وغيره ، وهو مبتدأ خبره .﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ وقوله : ﴿ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبر ونتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة وأن يكونا خبرين وأن ينتصب بمضمر يسره نتلوه . ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ المشتمل على الحكم ، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه يريد به القرآن . وقيل اللوح .

مثل عيسى كمثل آدم

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ إن شانه الغريب كشان آدم عليه الصلاة والسلام . ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لمابه الشبه ، وهو أنه خُلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم ، شبه حاله بما هو أغرب منه إفحامًا للخصم وقطعًا لمواد الشبهة والمعنى خاق قالبه من التراب . ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن ﴾ أى أنشاه بشرًا كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ (1) أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ، ويجوز أن يكون ثم لتراخى الخبر لا المخبر . ﴿ فَيَكُونُ ﴾ حكاية حال ماضية .

الآيات من ٦٠ : ٦٥

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) ﴾

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ خبر محذوف أى هو الحق ، وقيل الحق مبتدأ ومن ربك خبره أى الحق المذورمن الله تعالى . ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ خطاب للنبى ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع .

(1) المؤمنون ١٤

قصة المباهلة

﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ** ﴾ من النصارى . ﴿ **فِيهِ** ﴾ فى عيسى . ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ أى من البينات الموجبة للعلم . ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا** ﴾ هلموا بالرأى والعزم. ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ** ﴾ أى يدع كل منا ومنكم نسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحمل عليها ، وإنما قدمهم علي الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم . ﴿ **ثُمَّ نَبْتَهِلْ** ﴾ أى نتباهل بان نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصله الترك من قولهم بهلت الناقة إذا تركتها بلا صرار . ﴿ **فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ عطف فيه بيان .

روى (أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتي ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ ماذا ترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلى رضي الله عنه خلفهما وهو يقول : إذا أنا دعوت فامنوا، فقال أسقفهم يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سالوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ، فاذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعًا من حديد ، قال ﷺ : « **والذى نفسي بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتي الطير على الشجر** ») [1] . وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته .

﴿ **إِنَّ هَذَا** ﴾ اى ما قص من نبا عيسي ومريم . ﴿ **لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ﴾ بجملتهاخبر إن ، أو هو فصل يفيد أن ما ذكره فى شان عيسى ومريم حق دون ما

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، ورواه الطبرى من طريق أبى اسحاق .

ذكروه ، ومابعده خبر واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر ، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى فى تثليثهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لا أحد سواه يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه فى الألوهية .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وعيد لهم ووضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد ، إفساد للدين والاعتقاد المؤدى إلى فساد النفس بل وإلى فساد العلام .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ يعم أهل الكتابين . وقيل : يريد به وفد نجران ، أو يهود المدينة . ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها مابعدها . ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها . ﴿ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ ولا نجعل غيره شريكًا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد . ﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا . روي أنه لما نزلت : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) قال عدى بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، قال : « أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم قال : هو ذاك » (٢) . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد . ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ

---

(١) التوبة ٣١

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره مطولا عند تفسير الآية المذكورة وعزاه إلى احمد والترمذى.

مِنْ بَعْدِهِ ﴾تنازعت اليهود والنصاري في إبراهيم عليه الصلاة واسلام ، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلي رسول الله ﷺ فنزلت . والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل علي موسي وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وكان إبراهيم قبل موسى بالف سنة وعيسى بالفين فكيف يكون عليهما . ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ فتدعون المحال .

الآيات من ٦٦ : ٦٨

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ ها حرف تبيه نبهوا بهاعلى حالهم التى غفلوا عنها ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء خبره ، وحاججتم جملة أخري مبينة للأولي . أى أنتم هؤلاءالحمقى وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه فى التوراة والإنجيل عناداً ، أو تدعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذكر له فى كتابكم من دين إبراهيم . وقيل : هؤلاء بمعني الذين وحاججتم صلته .

وقيل : ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقلبت الهمزة هاء .

وقرأ نافع وأبو عمرو ها أنتم حيث وقع بالمد من غير همز ، وورش أقل مداً ، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء والباقون بالمد والهمز ، والبزى بقصر المد على أصله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما حاججتم به . ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وأنتم جاهلون به .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا ﴾ تصريح بمقتضي ما قرره من

البرهان . ﴿ وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة . ﴿ مُسْلِمًا ﴾ منقادا لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض بأنهم مشركون لاشراكهم به عزيراً والمسيح ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

تنبيه

انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجاج بين : أولاً ، أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاور عيه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقًا أسهل ، وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسي والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم أعرض عن ذلك وقال : ﴿ فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

أولى الناس بإبراهيم المسلمون

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه . من الولى وهو القرب . ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة . وقرئ والنبي بالنصب عطفًا على الهاء في اتبعوه ، وبالجر عطفًا على إبراهيم . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسني لإيمانهم .

الآيات من ٦٩ : ٧٤

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ نزلت فى اليهود لما دعوا حذيفة وعمارًا ومعاذًا إلى اليهودية ولو بمعنى أن . ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وزره واختصاص ضرره بهم .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت عليه نبوة محمد ﷺ ، ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنها آيات الله ، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين ، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل فى صورته ، أو بالتقصير فى التمييز بينهما . وقرئ تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام « **كلابس ثوبى زور** »[1]

---

(١) هذه العبارة جزء من حديث شريف هو « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » أخرجه احمد والشيخان وأبو داود عن اسماء بنت أبى بكر ، ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ٢ صـ ١٩١ .

﴿ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ نبوة محمد ﷺ ونعته . ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عالمين بما تكتمونه .

من ألاعيب اليهود

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾ أى أظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار . ﴿ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يشكون فى دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم ، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة : آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم وصلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون . وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تقاولوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً ﷺ بالنعت الذي ورد فى التوراة لعل أصحابه يشكون فيه .

﴿ وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ولا تقروا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم ، أو لا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان علي دينكم فإن رجوعهم أرجي وأهم .

﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ هو يهدى من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه . ﴿ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ متعلق بمحذوف أى دَبَّرْتُمْ ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد ، المعنى أن الحسد حملكم على ذلك أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ، ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدى بطائل ، أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى . وقراءة ابن كثير أن يؤتى على الاستفهام للتقريع ، تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتي أحد دبرتم . وقرئ إن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما اوتيتم . ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين

الأولين وعلى الثالث معناه : حتي يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم عند ربكم ، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم . ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة .

الآيات من ٧٥ : ٧٨

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾

ليسوا سواء

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ كعبد الله بن سلام استودعه قرشي ألفًا ومائتي أوقية ذهبًا فأداه إليه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قريشي آخر دينارًا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة ، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة . وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يوده إليك ولا يؤده إليك بإسكان الهاء وقالون باختلاس كسره الهاء وكذا روى عن حفص والباقون بإشباع الكسرة . ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ إلا مدة دوامك قائمًا على رأسه

مبالغا فى مطالبته بالتقاضى والترافع وإقامة البينة . ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده . ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ بسبب قولهم . ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أى ليس علينا فى شأن من ليسوا من أهل الكتاب ـ ولم يكونوا على ديننا ـ عتاب وذم . ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون ، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا : لم يجعل لهم فى التوراة حرمة . وقيل : عامل اليهود رجالاً من قريش لما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم . وعن النبى ﷺ أنه قال عند نزولها : « **كذب أعداء الله ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر** »[1] .

﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل . ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ استئناف مقرر للجملة التى سدت بلى مسدها، والضمير المجرور لمن أو لله وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى من ، وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من داء الواجبات والاجتناب عن المناهى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يستبدلون . ﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ بماعاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات ﴿ وَأَيْمَانِهِمْ ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ، ﴿ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ متاع الدنيا . ﴿ أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ بما يسرهم أو بشىء أصلاً ، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة ، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته ، والظاهر أنه كناية عن غضبه ليهم لقوله : ﴿ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه ، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه . ﴿ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ولا يثنى عليهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على ما فعلوه .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره وابن أبى حاتم من حديث سعيد بن جبير مرسلا.

قيل : إنها نزلت فى أحبار حرفوا التوراة وبدلوانعت محمد ﷺ وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة .

وقيل : نزلت فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراهابما لم يشترها به .

وقيل : نزلت فى ترافع كان بين الأشعث بن قيس ويهودى فى بئر أو أرض وتوجه الحلف على اليهودى .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف ، أو يعطفونها بشبه الكتاب . وقرئ يلون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتهاعلى الساكن قبلها . ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلوون . وقرئ ليحسبوه بالياء والضمير أيضًا للمسلمين .

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ تأكيد لقوله ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحا لا تعريضًا ، أى ليس هو نازلاً من عنده . وهذا لا يقتضى أن لا يكون فعل العبد فعل الله تعالى . ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه .

الآيتان من ٧٩ : ٨٠

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام . وقيل : (إن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا : يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ، فقال : **معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله ، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني**) (١) فنزلت . وقيل : (قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : **لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله**) .

﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ ولكن يقول كونواربانيين ، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحياني والرقباني وهو الكامل في العلم والعمل . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له ، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تعلمون بمعنى عالمين . وقرئ تدرسون من التدريس وتدرسون من أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم ، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضابهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس .

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة والطبري في تفسيره من حديث سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول ، وتكون لا مزيدة لتأكيد معني النفي في قوله ما كان ، أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً ، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً ، بل ينهي عنه وهو أدنى من العبادة . ورفعه الباقون على الاستئناف ، ويحتمل الحال وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدوري باختلاس الضم . ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ ﴾ إنكار ، والضمير فيه للبشر وقيل لله . ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون لأن يسجدوا له .

الآيات من ٨١ : ٨٦

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ قيل : إنه على ظاهره ، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولي .

وقيل : معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكر

الأمم . وقيل : إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل ، والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم . وقيل : المراد أولاد النبيين على حذف المضاف ، وهم بنو إسرائيل ، أو سماهم نبيين تهكمًا لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا ، واللام فى لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية .

وقرأ حمزة لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب، ثم مجيء رسول مصدق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه وجاءكم برسول مصدق له . وقرئ لما بمعنى حين آتيتكم ، أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالاً . وقرأ نافع آتيناكم بالنون والألف جميعًا .

﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ أى عهدى ، سمى به لأنه يؤصر أى يشد . وقرئ بالضم وهو إما لغة فيه كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به . ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار . وقيل الخطاب فيه للملائكة . ﴿ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وأنا أيضًا على إقراركم وتشاهدكم شاهد ، وهو توكيد وتحذير عظيم .

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون من الكفرة .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار ، أو محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون ، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار والفعل بلفظ الغيبة عند أبى عمرو وعاصم فى رواية حفص ويعقوب ، وبالتاء عند الباقين على تقدير وقل له . ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أى طائعين بالنظر واتباع الحجة ، وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق ، والإشراف على الموت . أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن

يمتنعوا عما قضى عليهم ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وقرئ بالياء على أن الضمير لمن .

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أمر للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان ، والقرآن كما هو منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم ، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له والنزول كما يعدى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ، وإنما قدم المنزل عليه ﷺ على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرف له والعيار عليه ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ بالتصديق والتكذيب . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون أو مخلصون فى عبادته .

الدين عند الله الإسلام

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً ﴾ أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله . ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الواقعين فى الخسران ، والمعني أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها ، واستدل به على أن الإيمان هُو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل . والجواب إنه ينفى قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره ، ولعل الدين أيضاً للأعمال .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك فى الضلال بعيد عن الرشاد . وقيل نفى وإنكار له وذلك يقتضى أن لا تقبل توبة المرتد ، وشهدوا عطف على ما فى إيمانهم من معني الفعل ونظيره فأصدق وأكن . أو حال بإضمار قد من كفروا وهو على الوجهين دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان . ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه .

الآيات من ٨٧ : ٩٢

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١) لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ﴾

جواز لعنة الكافر المصر على كفره

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾يدل منطوقة على جواز لعنهم ، وبمفهومه على نفى جواز لعن غيرهم . ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم ، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يعلن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ فى اللعنة ، أو العقوبة ، أو النار وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما . ﴿ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعد الارتداد . ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا ، ويجوز أن لا يقدر له مفعول بمعني ودخلوا فى الصلاح .﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يقبل توبته . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يتفضل عليه . قيل : إنها نزلت فى الحارث بن سويد حين ندم علي ردته فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لى من توبة ، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسي والتوراة ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن ، أو كفروا

بمحمد بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق ، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه وننافقه بإظهاره . ﴿ لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ لأنهم لا يتوبون ، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا علي الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظًا فى شأنهم وإبرازًا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقًا لارتدادهم وزيادة كفرهم ، ولذلك لم تدخل الفاد فيه . ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ الثابتون على الضلال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ لما كان الموت علي الكفر سببًا لامتناع قبول الفدية أدخل الفاءها هنا للإشعار به ، وملء الشيء ما يملؤه . وذهبا نصب على التمييز . وقرئ بالرفع على البدل من ملء أو الخبر لمحذوف . ﴿ وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا ، أو معطوف على مضمره تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة ، أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ ﴾ (١) والمثل يحذف ويراد كثيرًا لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرمًا ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ فى دفع العذاب ومن مزيدة للاستغراق .

الحث على الإنفاق فى سبيل الله

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ ﴾ أى لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير ، أو لن تنالوا بر الله الذى هو الرحمة و الرضى والجنة . ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أى من المال ، أو ما يعمه وغيره كبذل الجاه فى معاونة الناس ، والبدن فى طاعة الله والمهجة فى سبيله . روى (أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن

---

(١) المائدة ٣٦

أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها حيث أراك الله ، فقال : بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها قال : هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد فقال : زيد إنما أردت أن أتصدق بها فقال عليه السلام : إن الله قد قبلها منك) . وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل . وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب . وقرئ بعض ما تحبون وهويدل على أن من للتبعيض ويحتمل التبيين . ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ ﴾ أى من أى شىء محبوب أو غيره ومن لبيان ما . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم بحسبه .

الآيات من ٩٣ : ٩٦

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾

أهل الكتاب يحلون الحرام ويحرمون الحلال

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ أى المطعومات والمراد أكلها . ﴿ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ حلالاً لهم ، وهو مصدر نعت به ولذلك استوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى: ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُم ﴾ (١) . ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ ﴾ يعقوب . ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ كلحوم الإبل وألبانها .

وقيل :كان به عرق النسا فنذر إن شفى لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه . وقيل : فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء . واحتج به من جوز للنبى أن يجتهد ، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريمه ابتداء . ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ أى من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم

٣٧ـ الممتحنة ١٠

لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً ، وذلك رد علي اليهود فى دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ (٢) الآيتين . بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا ، وفى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول عليه السلام موافقة إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها . ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً . روي : أنه عليه السلام لما قاله لهم بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة . وفيه دليل على نبوته .

﴿ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بنى إسرائيل ومن قبلهم . ﴿ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضح لهم .

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ تعريض بكذبهم ، أثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون . ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم ، أو مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية ، وألزمتكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط وتعريض بشرك اليهود .

الكعبة أول بيت لله وضع للناس فى الأرض

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ أى وضع للعبادة وجعل متعبداً لهم ، والواضع هو الله تعالى . ويدل عليه أنه قرئ على البناء للفاعل . ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾

---

(١) النساء ١٦٠ (٢) الأنعام ١٤٦

للبيت الذى ببكة ، وهى لغة فى مكة كالنبيط والنميط ، وأمر راتب وراتم ولازب ولازم، وقيل : هى موضع المسجد .

ومكة البلد من بكه إذا زحمه ، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبابرة روى (أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال : **المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس ، وسئل كم بينهما قال أربعون سنة**) (١) .

وقيل : أول من بناه إبراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم ، ثم العمالقة ، ثم قريش .

وقيل : هو أول بيت بناه آدم فانطمس فى الطوفان ، ثم بناه إبراهيم .

وقيل : كان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح يطوف به الملائكة ، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع فى الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية .

وقيل : المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان . ﴿ **مُبَارَكًا** ﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله ، حال من المستكن فى الظرف . ﴿ **وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم ، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال :

الآيات من ٩٧ : ١٠٠

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) ﴾

الآيات البينات

﴿ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى

---

(١) متفق عليه من حديث أبى ذر رضى الله عنه

الأعصار، وأن ضوارى السباع تخالط الصيود فى الحرم ولا تتعرض لها ، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كاصحاب الفيل . والجملة مفسرة للهدى ، أو حال أخرى .

﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مبتدأ محذوف خبره أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل . وقيل : عطف بيان على أن المراد بالآيات أثر القدم فى الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين ، وتخصيصها بهذه الإ لانه من بين الصخار وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء وحفظه مع كثيرة أعدائه ألوف سنة . ويؤيده أنه قرئ آية بينة علي التوحيد . وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه .

﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمناً ﴾ جملة ابتدائية ، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه فى معنى أمن من دخله أى ومنها أمن من دخله ، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله . اقتصر بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذكر غيرهما كقوله عليه السلام « **حبب إليَّ من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى في الصلاة** » [1] لأن فيهما غنية عن غيرهما فى الدارين بقاء الأثر مدى الدهر والأمن من العذاب يوم القيامة . قال عليه السلام « **من مات فى أحد الحرمين ، بعث يوم القيامة آمنا** » [2] . وعند أبى حنيفه من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولكن ألجىء إلى الخروج .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص حج بالكسر وهو لغة نجد .

﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له .

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ١ صـ ١٥١ وقال اخرجه احمد والنسائى والحاكم والبيهقي من حديث أنس ، ورمز له السيوطى بالحسن .

(٢) رواه البيهقى فى الشعب وعبد الرازق فى مصنفه والدارقطنى والطبرانى فى الأوسط والصغير ـ من تعليق مطبوعة الكشاف .

تفسير الاستطاعة

وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة . وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال ، ولذلك الاستنابة علي الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه . وقال مالك رحمه الله تعالى : إنها بالبدن يجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : إنها بمجموع الأمرين . والضمير في إليه للبيت ، أو الحج وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله .
﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وضع كفر موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتغليظًا علي تاركه ، ولذلك قال عليه السلام : « **من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا** » [١] وقد أكد أمرا لحج في هذه الآية من وجوه للدلالة على وجوبه بصيغة الخبر ، وإبرازه في الصورة الاسمية وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس ، وتعميم الحكم أولا ثم تخصيصه ثانيا فإنه كإيضاح بعد إبهام وتثنية وتكرير للمراد ، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة ، وذكر الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان وقوله ﴿عن العالمين﴾ يدل عليه لما يه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السخط ، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرد عنا لشهوات والإقبال على الله . روى (أنه لما نزل صدر الآية جمع رسول الله ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال : إن الله تعالى : **كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وكفرت به خمس ملل فنزل ومن كفر**) [٢] .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره ، وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح ، لأن معرفتهم بالآيات أقوى

---

(١) رواه الترمذى من حديث على مرفوعا ، ورواه البزار وابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشعب .

(٢)رواه الطبرى فى تفسيره عن طريق جويبر عن الضحاك ، قال الحافظ بن حجر مخرج أحاديث الكشاف : وجويبر متروك الحديث .

وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما . ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسرار .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم ، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب ، وسبيل الله في دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام . وقيل : كانوا يفتنون المؤمنين ويحرشون بينهم حتى أتوا الأوس والخزرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادى والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدوهم عنه . ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ حال من الواو أى باغين طالبين لهما اعوجاجاً بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق ، بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما ، أو بأن تحرشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم . ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ إنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال ، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم ، ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ . ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين على الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

تحذير المؤمنين من طاعة الكافرين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون ، فمر بهم شاس بن قيس اليهودى فغاظه تألفهم واجتماعهم فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه ، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ، ففعل فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم ، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : « أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به

عنكم أمر الجاهلية وألف بين قلوبكم ، فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ (١) .

وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم ، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم .

الآيات من ١٠١ : ١٠٦

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ إنكار وتعجيب لكفرهم فى حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر . **﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾** ومن يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه فى مجامع أموره . **﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** فقد اهتدى لا محالة .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، ورواه ابن اسحاق فى المغازى ، وذكره الواحدى فى أسباب النزول .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا اتَّقُوا الـلَّهَ حَقَّ تُقَاتِه ﴾ حق تقواه وما يجب منها ، وهو استفراغ الوسع فى القيام والاجتناب عن المحارم كقوله ﴿ فَاتَّقُوا الـلَّه مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ (١) وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : هو أن يطيع فلا يعصى . ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى . وقيل هو : أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها . وفى هذا الأمر تأكيد للنهى عن طاعة أهل الكتاب. وأصل تقاة وقية فقلبت واوها المضمومة تاء كما فى تؤدة وتخمة والياء ألفًا ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنـتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، فإن النهى عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه بالذات نحو الفعل تارة والقيد أخرى وقد يتوجه نحو المجموع دونهما وكذلك النفى .

الاعتصام بالدين

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الـلَّه جَمِيـعًا ﴾ بدين الإسلام ، أو بكتابه لقوله عليه السلام : « القرآن حبلَ الله المتين » . استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى ، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى والوثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحًا للمجاز . ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين عليه ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ أى ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب ، أو لا تتفرقوا تفرقكم فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا ، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة . ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الـلَّه عَلَيْكُمْ ﴾ التى من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدى إلى التآليف وزوال الغل . ﴿ إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً ﴾ فى الجاهلية متقاتلين . ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام . ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِه إِخْوَانًا ﴾متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله . وقيل : كان الأوس والخزرج أخوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفاها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ .﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ مشفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم ، إذ لو أدرككم الموت على

(١) التغابن ١٦

تلك الحالة لوقعتم في النار . ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾بالإسلام ، والضمير للحرفة ، أو للنار ، أو للشفا ، وتأنيثه لتأنيث ما أضيف إليه أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها طرفها كالجانب والجانبة ، وأصله شفو قلبت الواو ألفًا في المذكر وحذفت في المؤنث . ﴿ كَذَلِكَ ﴾مثل ذلك التبيين . ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ دلائله . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إرادة ثباتكم على الهدي وازديادكم يه .

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ من للتبعيض ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها . خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتي لو تركوه رأسًا أثموا جميعًا ولكن يسقط بفعل بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية . أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف الخاص عن العام للإيذان بفضله . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح . روي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال : « **آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم** » . والأمر بالمعروف يكون واجبًا ومندوبًا على حسب ما يؤمر به . والنهى عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام . والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لانه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر .

النهى عن الفرقة والاختلاف

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا فى التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة على ما عرفت . ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾

---

(١) آل عمران ١١٠

الآيات ، والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه . والأظهر أن النهى فيه مخصوص بالتفرق فى الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام « **اختلاف أمتى رحمة** » . ولقوله عليه الصلاة والسلام : « **من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد** » . ﴿ **وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم .

﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ نصب بما فى لهم من معنى الفعل ، أو بإضمار اذكر . وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه . وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه ، وأهل الباطل بأضداد ذلك . ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾ على إرادة القول أى فيقال لهم أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه ، أو جميع الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر فى الدلائل والآيات . ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ أمر إهانة . ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم .

الآيات من ١٠٧ : ١١١

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)** ﴾

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ يعنى الجنة والثواب المخلد

، عبر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله ، وكان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ **أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقال هم فيها خالدون .**

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ الواردة فى وعده ووعيده ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها . ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه ، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله ، لأنه المالك على الإطلاق كما قال .﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ فيجازى كلا بما وعد له وأوعد .

خيرية هذه الأمة

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طرأ كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [1] وقيل كنتم فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ ، أو فيما بين الأمم المتقدمين . ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أى أظهرت لهم . ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ استئناف بين به كونهم خير أمة ، أو خبر ثان لكنتم ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به ، لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به، وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانًا بالله وتصديقًا به وإظهاراً لدينه ، واستدل بهذه الآية على أن الإجماع حجة لأنها تقتضى كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر ، إذ اللام يهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم علي خلاف ذلك .

---

(١) النساء ٢٣

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ إيمانًا كما ينبغي ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه . ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه . ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون في الكفر ، وهذه الجملة والتى بعدها واردتان على سبيل الاستطراد .

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ ضرراً يسيراًكطعن وتهديد . ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر . ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم ، نفى إضرارهم سوي ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم ، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان ، وقرئ لا ينصروا عطفاً علي يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة يكون عدم النصر مقيداً بقتالهم ، وهذه الآية من المغيبات التى وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر .

الآية رقم ١١٢

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ هدر النفس والمال والأهل ، أو ذل التمسك بالباطل والجزية . ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ وجدوا ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا معتصمين ، أو ملتبسين بذمة الله أو كتابه الذى آتاهم وذمة المسلمين ، أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ فهى محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين . ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من

ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب . ﴿ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء . والتقييد بغير حق مع أنه كذلك فى نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقًا بحسب اعتقادهم أيضًا . ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أى الكفر والقتل . ﴿ **بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله ، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر والاستمرار عليها يؤدى إلى الكفر . وقيل : معناه أن ضرب الذلة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضًا .

الآيات من ١١٣ : ١١٧

﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)** ﴾

من أهل الكتاب صالحون

﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً** ﴾ فى المساوئ والضمير لأهل الكتاب . ﴿ **مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ** ﴾ استئناف لبيان نفى الاستواء ، والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم . ﴿ **يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴾ يتلون القرآن فى تهجدهم . عبر عنه بالتلاوة فى ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ فى المدح . وقيل : المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى (**أنه ﷺ آخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة**

فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم) [1] .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ صفات أخر لأمة وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود ، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين فى الليل مشركون بالله ملحدون فى صفاته ، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته ، مداهنون فى الاحتساب متباطئون عن الخيرات .

﴿ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه .

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه البتة ، سمي ذلك كفرانًا كما سمي توفية الثواب شكرًا ، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان ، وقرأ حفص وحمزة والكسائى وما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء والباقون بالتاء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوي مبدأ الخيروحسن العمل ، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوي .

لا تغنى الأموال عن الكفار شيئا

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ من العذاب ، أو من الغناء فيكون مصدراً . ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملازموها . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ ﴾ ما ينفق الكفرة قربة ، أو مفاخرة وسمعة ، أو المنافقون

---

(١) رواه النسائى وابن حيان واحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية عاصم عن زرعة ـ من تعليق مطبوعة الكتشاف .

*** الإعجاز العلمى**

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾

استخدم القرآن الكريم لفظ « الرياح » للبشرى والخير ولفظ « الريح » للدمار والهلاك .

رياء أوخوفًا . ﴿ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ برد شديد والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر ، فهو فى الأصل نعت به أو نعت وصف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد . ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد ، والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه

* الإعجاز العلمى

ومن مقال الدكتور / جمال الدين الفندى « القرآن والعلم » يقول :

« يقرر العلم الحديث مدي تلازم السحب والمطروالرياح كماذكر القرآن الكريم ولقد كان الرأى السائد أن مياه الأمطار إنما تأتي هكذا من السماء ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذى يجود بالمطر والأصل فى إثارة السحاب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع فى مكان معين بل إن آخر البحوث العلمية لأنواع السحب والمطر عُمل بحيث تطابق أوصافها طبيعة انسياب الرياح التي تثيرها فكانت السحب الركامية التى تصاحب التيارات الهوائية الرأسية .

والسحب الطبقية التى تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها فى اتجاه صاعد ومن الأولي تنزل الرخات ومن الثانية يهطل المطر » .

وفى هذه الآية القرآنية يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٍ ﴾ « والصر » هو البرد الشديد .

والقرآن الكريم يثبت ببساطة علمية معجزة أن « البَرَدَ » هو المسئول عن تلك الشحنات الكهربائية التى تسبب عواصف البرق والبرد والرعد فعندما تقوى الريح والهواء تُعزل الشحنة السالبة العالية عن الشحنة الموجبة فى أسفل فيحدث التفريغ الكهربائى على هيئة برق وينجم عن التسخين الشديد المفاجئ الذى يحدثه البرق فى منطقة انبعاثه أن يتمدد الهواء فجأة ويتمزق محدثا الرعد ..

وهكذا منذ خمسة عشر قرنا وفي زمن تنزيل القرآن أشار القرآن الكريم إلى تلازم «البَرَدَ » مع الرياح لحدوث الصواعق والدمار والهلاك وها هو العلم الحديث يثبت هذه الظاهرة الكونية مؤخراً .

منفعة ما فى الدنيا والآخرة ، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث ، ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث .

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى ما ظلم المنفقين بضياع نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها ، أو ما ظلم أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة . وقرئ ولكن أى ولكن أنفسهم يظلمونها ، ولا يجوز أن يقدر ضمير الشأن لأنه لا يحذف إلا فى ضرورة الشعر كقوله :

وَمَا كُنتُ مِمَّنْ يَدْخلُ العشقُ قَلْبَهُ ... ولكنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

الآيات من ١١٨ : ١٢٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً ﴾ وليجة ، وهو الذى يعرفه الرجل أسراره ثقة به ، شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال ﷺ : « **الأنصار شعار والناس دثار** » (١) . ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ من دون المسلمين ، وهو متعلق بلا تتخذوا، أو بمحذوف هو صفة بطانة أى بطانة كائنة من دونكم .

﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ أى لا يقصرون لكم فى الفساد ، والألو التقصير

---

(١) متفق من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى من حديث طويل أوله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح حنينا قسم الغنائم . .

وأصله أن يعدى بالحرف وعدى إلى بمفعولين كقولهم : لا آلوك نصحًا على تضمين معنى المنع أو النقص .

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ تمنوا عنتكم ، وهو شدة الضر والمشقة وما صدرية . ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى فى كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم . ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار. ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما بين لكم ، والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل ، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لبطانة .

﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم ، بيان لخطئهم فى موالاتهم ، وهو خبر ثان أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنت كقولك : أنت زيد تحبه ، أو صلته أو حال والعامل فيها معنى الإشارة ، ويجوز أن ينصب أولاء بفعل مضمر يفسره مابعده وتكون الجملة خبرًا . ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ بجنس الكتاب كله ، وهو حال من لا يحبونكم والمعني : إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضًا فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم ، وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم في حقكم .

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ نفاقًا وتغريرًا ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ من أجله تأسفًا وتحسرًا حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا .

﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فيعلم ما فى صدورهم من البغضاء والحنق ، وهو يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظًا ، وأن يكون خارجًا عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم .

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خيرومنفعة ، وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة ، والمس مستعار للإصابة . ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم ، أو علي مشاق التكاليف . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ موالاتهم ، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم . ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن الجد فى الأمر ، المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جريًا على الخصم ، وضمه الراء للاتباع كضمة مد . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب لا يضركم من ضاره يضيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما . ﴿ مُحِيطٌ ﴾ . أى محيط علمه فيجازيكم مما أنتم أهله . وقرئ بالياء أى بما يعملون ، فى عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه .

الآيات من ١٢١ : ١٢٥

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾

حديث عن غزوة أحد

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ أى واذكر إذ غدوت . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى من حجرة عائشة رضى الله عنها . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنزلهم . أو تسوى وتهيىء لهمويؤيده القرادة باللام . ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ مواقف وأماكن له ، وقد يستعمل المقعد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾[1]

---

(١) القمر ٥٥ .

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ (١) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم . ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم روي (أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ـ ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ـ فاستشار الرسول ﷺ أصحابه ، وقد دعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قبل فقال هو وأكثر الأنصار : أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منها ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار بعضهم إلى الخروج فقال ﷺ : « رأيت فى منامى بقراً مذبوحة حولى فأولتها خيراً ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً فأولته هزيمة ، ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم ، فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا . وبالغوا حتى دخل ولبس لامته ، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال : « **لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل**». فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أُحُد يوم السبت ، ونزل فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسوى صفهم ، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال : انضحوا عنا بالنبل لا يأتوننا من ورائنا) (٢) .

﴿إِذْ هَمَّت﴾ متعلق بقوله ﴿سميع عليم﴾ أو بدل من إذ غدوت ﴿طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأو وكانا جناحى العسكر . ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن تجبنا وتضعفا . روى (أنه ﷺ خرج فى زهاء ألف رجل ووعد لهم النصر إن صبروا ، فلما بغلو الشوط انخذل ابن أبى فى ثلاثمائة رجل وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى : وقال أنشدكم الله والإسلام فى نبيكم وأنفسكم . فقال : ابن أبى لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ) . والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أى عاصمهما من اتباع تلك الخطرة ، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما

---

(١) النمل ٣٩ (٢) أخرجه ابن اسحاق فى المغازى

يفشلان ولا يتوكلان على الله . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبدر ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً سمي به . ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ حال من الضمير، وإنما قال : أذلة ولم يقل ذلائل تنبيهاً على قلتهم مع ذلتهم لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى الثبات . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره ، أو لعلكم ينعم الله عليكم فتشكرون ، فوضع الشكر موضع الأنعام لأنه سببه .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ظرف لنصركم . وقيل : بدل ثان من إذ غدوت على أن قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبروالتقوى عن المخالفة ، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ، ذلك وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم . قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف . وقرأ ابن عامر منزلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج.

﴿ بَلَىٰ ﴾ إيجاب لما بعد لن ، أى بلى يكفيكم . ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال : ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم ﴾ أى المشركون . ﴿ مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ من ساعتم هذه ، وهو فى الأصل مصدر من فارت القدر إذا غلت ، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا ريث فيها ولا تراخى ، والمعنى إن يأتوكم فى الحال . ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ فى حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير . ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ معلمين من التسويم الذى هو إظهار سيما الشيء لقوله ﷺ لأصحابه : « **تسوموا فإن الملائكة قد تسومت** » . أو مرسلين من التسويم بمعنى الأسامة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو .

الآيات من ١٢٦ : ١٢٨

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة . ﴿ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ ولتسكن إليه من الخوف . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ لا من العدة والعدد ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلي مدد وإنما أمدهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطًا علي قلوبهم ، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحثًا على أن لا يبالوا بمن تأخر عنهم . ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الذى لا يغالب فى أقضيته . ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ الذى ينصر ويخذل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة .

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ متعلق بنصركم ، أو وما النصر إن كان اللام فيه للعهد ، والمعنى لينقص منهم بقتل بعض وأسر آخرين ، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم . ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أو يخزيهم ، والكبت شدة الغيظ ، أو وهن يقع فى القلب ، و أو للتنويع دون الترديد ﴿ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ اعتراض . ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ عطف على قوله أو يكبتهم ، والمعنى أن الله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم . ويحتمل أن يكون معطوفًا على الأمر أو شيء بإضمار أن ، أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء . أو ليس لك من أمرهم شيء . أو التوبة عليهم أو تعذيبهم . وأن

تكون أو بمعنى إلا أن ، أى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتسر به أو يعذبهم فتتشفى منهم . روى (أن عتبة بن أبى وقاص شجه يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول : **كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم**) فنزلت . وقيل : هم أن يدعو عليهم فناه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن . ﴿ **فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم .

الآيات من ١٢٩ : ١٣٥

﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)** ﴾

﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ خلقًا وملكًا فله الأمر كله لا لك. ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ صريح في نفى وجوب التعذيب ، واالتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له . ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم .

نهي عن أكل الربا

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة ، ولعل التخصيص بحسب الواقع . إذ كان الرجل منهم يربى إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون . وقرأ ابن كثير

وابن عامر ويعقوب مضعفة . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما نهيتم عنه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ راجين الفلاح .

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي افعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكافرين وبالعرض للعصاة . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيبا فى الطاعة ، ولعل وعسي فى أمثال ذلك دليل عزة التوصل إلى ما جعل خبرا له .

المسارعة إلى الخيرات

﴿ وَسَارِعُوا ﴾ بادروا وأقبلوا . ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة ، كالإسلام والتوبة والإخلاص . وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ أى عرضها كعرضهما ، وذكر العرض للمبالغة فى وصفها بالسعة على طريقة التمثيل ، لانه دون الطول . وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ، ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هيئت لهم ، ويه دليل على أن الجنة مخلوقة وإنها خارجة عن هذا العالم .

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ صفة مادحة للمتقين ، أو مدح منصوب أو مرفوع . ﴿ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ فى حالتى الرخاء والشدة ، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة ، أى لا يخلون فى حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير . ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة ، من كظمت القربة إذا ملأتها وشددت رأسها . وعن النبى ﷺ : « من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا »(١) . ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته ، وعن النبى

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ٢ص ١٨٧ وقال : أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب عن أبى هريرة ، ورمز له السيوطى بالضعف .

ﷺ : « إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله » وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت .﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء ، والعهد فتكون الإشارة إليهم .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى . ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن أذنبوا أى ذنب كان . وقيل : الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة ، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك . ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم . ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ بالندم والتوبة . ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ استفهام بمعنى النفى معترض بين المعطوفين ، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ : « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة »[1] .﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به .

الآيات من ١٣٦ : ١٤٠

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ .

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الضغير ج٢ص١٤٩ وقال : رواه أبو داود والترمذي عن أبى بكر ورمز له السيوطى بالضعف .

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ خبر للذين إن ابتدأت به ، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفته على المتقين ، أو على الذين ينفقون ، ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون ، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم ، وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما لهم أدون مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة ، وكفاك فارقًا بين القبيلين أنه فصل آيتهم بأن بين أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله ، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه ، وفصل آية هؤلاء بقوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ لأن المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوت على نفسه ، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير ، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفرة والجنات .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وقائع سنها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى ﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ (١) وقيل أمم قال :

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُو   وَلا رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم .

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى قوله قد خلت ، أو مفهوم قوله فانظروا أي أنه مع كونه بيانًا للمكذبين فهو زيادة وموعظة للمتقين ، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين ، وقوله قد خلت جملة معترضة للحث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن .

تسلية المسلمين عما أصابهم في أحد

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد ، والمعنى لا

---

(١) الأحزاب : ٦١ ، ٦٢ .

تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا علي من قتل منكم . ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأنًا ، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم في الجنة ، وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار ، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ، أو وأنتم الأعلون في العاقبة فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم ، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون .

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف ، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضعف والضعف . وقيل : هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها ، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله ، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا ، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون . وقيل : كلا المسَّين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ . ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ نصرفها بينهم تدليل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله :

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ (١)

والمداولة كالمعاودة يقال : داولت الشيء بينهم فتداولوه ، والأيام تحتمل الوصف والخبر ونداولها يحتمل الخبر والحال والمراد بها : أوقات النصر والغلبة . ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة أي نداولها ليكون كيت وكيت وليعلم الله إيذانًا بأن العلة فيه غير واحدة ، وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم ، أو الفعل المعلل به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك ، والقصد في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثبات علمه تعالى ونفيه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان . وقيل :

---

(١) من شعر النمر بن تولب وقبله :

فلا وأبي الناسُ لا يعلمون ... فلا الخير خير ولا الشر شر

وذكره سيبويه في كتابه

معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً . ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريد شهداء أحد ، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد . ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون ، أو الكافرين وهو اعتراض ، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين .

الآيات من ١٤١ : ١٤٤

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم . ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم ، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً .

الجنة طريقها شاق

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار . ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ ولما تجاهدوا ، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية والفرق بين لما ولم أنَّ فيه توقع الفعل فيما يستقبل . وقرئ يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع . وقرئ بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ أى الحرب فإنها من أسباب الموت ، أو الموت بالشهادة . والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وتمنوا أن يشهدوا مع رسول

الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج. ﴿ من قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته . ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أى فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم ، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنواوانهزموا عنها ، أو على تمنى الشهادة فإن فى تمنيها تمنى غلبة الكفار .

الإرجاف بموت النبى ﷺ

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الـــرُّسُلُ ﴾ فسيخلوا كما خلوا بالموت أو القتل . ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انـــــقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكًا به . وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته . روى (أنه لما رمى عبدُ الله بن قميئة الحارثى رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه ، فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل النبى ﷺ فقال : قد قتلت محمداً وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل ، فانكفأ الناس وجعل الرسول ﷺ يدعو إليَّ عباد الله فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون ، وقال بعضهم : ليت ابن أبى يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان ، وقال ناس من المنافقين : لو كان نبياً لما قتل ارجوا إلى إخوانكم ودينكم ، فقال : أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما : يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتلوا على ما قاتل عليه ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل) [1] فنزلت ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ بارتداده بل يضر نفسه . ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه .

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدى ، وراجع ماجاء فى سيرة ابن هشام حول هذا الخبر .

الآيات من ١٤٥ : ١٤٧

﴿ وَمَا كَانَ لِنفسٍ أن تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللَّه ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لملك الموت عليه الصلاة والسلام فى قبض روحه ، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى فى علمه تعالى وقضائه ﴿ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) بالإحجام عن القتال والإقدام عليه ، وفيه تحريض وتشجيع على القتال ، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل . ﴿ كِتَابًا ﴾ مصدر مؤكد إذ المعنى كتب الموت كتابًا . ﴿ مُّؤَجَّلاً ﴾ صفة له أى مؤقتًا لا يتقدم ولا يتأخر . ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا ﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد ، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون ، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخلوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم . ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا ﴾ أى من ثوابها . ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد .

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ أصله أى دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت فى الخط على غير قياس . وقرأ ابن كثير وكائن ككاعن ووجهه أنه قلب قلب الكلمة الواحدة كقولهم وعملى فى لعمرى ، فصار كأين ثم حذفت الياء

---

(١) الأعراف ٣٤ ، ـ النحل ٦١

الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفًا كما أبدلت من طائى ﴿ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ بيان له . ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ ربانيون علماء أتقياء ، أو عابدون لربهم . وقيل جماعات والربى منسوب إلى الربة وهى الجماعة للمبالغة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب قتل ، وإسناده إلى ربيون أو ضمير النبى ومعه ربيون حال منه ويؤيد الأول أنه قرئ بالتشديد وقرئ ربيون بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر . ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جدهم لماأصابهم من قتل النبى أو بعضهم . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ عن العدو أو فى الدين . ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ وما خضعوا للعدو ، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده ، والألف من إشباع الفتحة أو استكون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له ، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاةوالسلام . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم .

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم فى الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول ، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضما لها وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها ، ثم طلب التثبيت فى مواطن الحرب والنصر علي العدو ليكون عن خضوع وطهارة ، فيكون أقرب إلى الإجابة ، وإنما جعل قولهم خبرًا لأن أن قالوا أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث .

الآيات من ١٤٨ : ١٥١

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فآتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر فى الدنيا ، والجنة والنعيم فى الآخرة ، وخص ثوابها بالحسن إشعارًا بفضله وأنه المعتد به عند الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبيًا لما قتل . وقيل : أن تستكينوا لأبى سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم . وقيل عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم .

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ ﴾ ناصركم . وقرئ بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله مولاكم . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ فاستغنوابه عن ولاية غيره ونصره .

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ يريد ما قذف فى قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال ﷺ : « **إن شاء الله** » . وقيل : لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم ، فالقى الله الرعب فى قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائى ويعقوب بالضم على الأصل فى كل القرآن ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ بسبب إشراكهم به . ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أى آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطانًا وهو

كقوله :

ولا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ (١)

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة لحدة اللسان . ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى مثواهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ والتعليل .

الآيتان من ١٥٢ : ١٥٣

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى وعده إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة فإن المشركين لما أقبلواجعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم . ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ تقتلونهم ، من حسه إذا أبطل حسه . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ جبنتم وضعف رأيكم ، أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل . ﴿ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ يعنى اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا ، وقال آخرون : لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعنى بقوله : ﴿ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا

---

(١) هذا عجز بيت لابن أحمر ، والبيت بتمامه هو :

لاتفزع الأرنب من أهوالها ولاترى الضب بها ينجحر .

والضمير فى أهوالها يعود على الصحراء وينجحر : يدخل جحره فرارا من الهول .

﴿ أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم ، ﴿ منكم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة . ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه السلام . ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حال الحال فغلبوكم . ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم علي الإيمان عندها . ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ تفضلاً ولما علم من ندمكم على المخالفة . ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتفضل عليهم بالعفو ، أو فى الأحوال كلها سواء أديل لهم أو عليهم إذ الابتلاء أيضًا رحمة .

تصوير حال المسلمين في أثناء الهزيمة

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ متعلق بصرفكم ، أو ليبتليكم أو بمقدر كاذكروا . والإصعاد الذهاب والإبعاد فى الأرض ، يقال : أصعدنا من مكة إلى المدينة . ﴿ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره . ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ كان يقول إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة . ﴿ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ فى ساقتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ عطف على صرفكم ، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غمًّا متصلاً بغم ، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ ، أو فجازاكم غمًّا بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له . ﴿ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضر لاحق . وقيل : لا مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم . وقيل : الضمير فى فأثابكم للرسول ﷺ أى فآساكم فى الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم ، كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها .

الآيات من ١٥٤ : ١٥٨

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً ﴾ أنزل الله عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس ، وعن أبى طلحة غشينا الناس في المصاف حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه . والأمنة الأمن نصب على المفعول ونعاساً بدل منها أو هو المفعول ، وأمنة حال منه متقدمة أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة . وقرئ أمْنة بسكون الميم كأنها المرة من الأمن .﴿ يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ أى النعاس . وقرأ حمزة والكسائى بالتاء رداً على الأمنة والطائفة المؤمنون حقًا . ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ هم المنافقون . ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾أوقعتهم أنفسهم فى الهموم ، أو مايهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها . ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ صفة

أخرى لطائفة أو حال أو استئناف علي وجه البيان لما قبله ، وغير الحق نصب علي المصدر أى : يظنون بالله غير الظن الحق الذى يحق أن يظن به ، وظن الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها . ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى لرسول الله ﷺ وهو بدل من يظنون .

﴿ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط . وقيل : أخبر ابن أبى بقتل بنى الخزرج فقال ذلك ، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا ، فلم يبق لنا من الأمر شىء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شىء ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ أى الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون ، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو اعتراض . وقرأ أبو عمرو ويعقوب كله بالرفع على الابتداء . ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ حال من الضمير يقولونَ : أى يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون النصر مبطلين الإنكار والتكذيب . ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى فى أنفسهم وإذا خلا بعضهم إلى بعض ، وهو بدل من يخفون أو استئناف على وجه البيان له . ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ كماوعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه ، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان رأي ابن أبى وغيره . ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ لما غلبنا ، أو لما قتل من قتل منا فى هذه المعركة . ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أى لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه فى اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد ، فإنه قدر الأمور ودبرها فى سابق قضائه لا معقب لحكمه . ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ وليمتحن ما فى صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق ، وهو علة فعل محذوف أى وفعل ذلك ليبتلى أو عطف على محذوف أى لبرز لنفاذ القضاء أو لمصالح جمة وللابتلاء ، أو علي قوله لكيلا تحزنوا . ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوساوس. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بخفياتها قبل إظهارها ،

وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين .

عفو الله عن الفارين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ يعنى إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب فى انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبى ﷺ بترك المركز ، والحرص على الغنيمة أو الحياة فمنعوا التأييد وقوة القلب . وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً كالطاعة . وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلفت منهم فكرهوا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة . ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ لتوبتهم واعتذارهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ لأجلهم وفيهم ، ومعنى أخوتهم اتفاقهم فى النسب أو المذهب ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ، وكان حقه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ جمع غاز كعاف وعفى . ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ مفعول قالوا وهو يدل على إن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين به . ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لام العاقبة مثلها فى ليكون لهم عدواً وحزناً ، أو لا تكونوا أى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعله حسرة فى قلوبهم خاصة ، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد. وقيل إلى ما دل عليه النهى أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم . ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ رداً لقولهم أى هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامة والسفر فإنه تعالي

قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ أي متم في سبيله . وقرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم من مات يمات . ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ جواب القسم وهو ساد مسد الجزاء والمعنى : إن السفر والغزو ليس مما يجلب ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا . وقرأ حفص بالياء .

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم . ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لإلى معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مهجكم لوجهه لا إلي غيره لا محالة تحشرون ، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم . وقرأ نافع وحمزة والكسائي متم بالكسر .

الآيات من ١٥٩ : ١٦١

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾

رحمة النبي ﷺ لأصحابه

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي فبرحمة ، وما مزيدة للتأكيد والتنبيه والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه علي جاشه وتوفيقه للرفق بهم حتي اغتم لهم بعد أن خالفوه . ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيىء الخلق

جافيًا . ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ قاسيه . ﴿ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك . ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾فيما يختص بك . ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾فيما لله. ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ أى فى أمر الحرب إذ الكلام فيه ، أو فيما يصح أن يشاور فيه استظهاراً برأيهم وتطييبًا لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة . ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ وطنت نفسك على شيء بعد الشورى . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فى إمضاء أمرك علي ما هو أصلح لك ، فإنه لا يعلمه سواه . وقرئ إذا عزمت ، على التكلم أى فإذا عزمت لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح .

النصر والهزيمة بيد الله

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ ﴾ كما نصركم يوم بدر . ﴿ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ فلا أحد يغلبكم . ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ كما خذلكم يوم أحد . ﴿ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد خذلانه ، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم ، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض علي ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوابه .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ وماصح لنبى أن يخون فى الغنائم فإن النبوة تنافى الخيانة ، يقال غل شيئًا من المغنم يغل غلولاً وأغل إغلالاً إذا أخذه في خفية والمراد منه : إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها ، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئًا فهو له ولا يقسم الغنائم . وأما المبالغة في النهى للرسول ﷺ على ما روى أنه بعث طلائع ، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فنزلت . فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غلولاً تغليظًا ومبالغة ثانية . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى ويعقوب أن يغل على البناء للمفعول والمعنى :

وما صح له أن يوجد غالاً أو أن ينسب إلى الغلول . ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يأت بالذى غله يحمله على عنقه كما جاء فى الحديث أو بما احتمل من وباله وإثمه . ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ يعنى تعطى جزاء ما كسبت وافيا ، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيًا بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى . ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد فى عقاب عاصيهم .

الآيات من ١٦٢ : ١٦٦

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) ﴾

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ بالطاعة . ﴿ كَمَنْ بَاءَ ﴾ رجع . ﴿ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بسبب المعاصى . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الفرق بينه وبين المرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع .

﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ شبهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت فى الثواب والعقاب ، أو هم ذوو درجات . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيهم على حسبها .

منة الله على المؤمنين برسوله

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنعم علي من آمن مع الرسول ﷺ من قومه

وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها . وقرئ لمن من الله على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل منه أو بعثه . ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من نسبهم ، أو من جنسهم عربيًا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به . وقرئ من أنفَسهم أى من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم . ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أى القرآن بعدما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحى . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى القرآن والسنة . ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ إن هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة والمعنى وإن الشأن كانوا من قبل بعثه الرسول ﷺ في ضلال ظاهر .

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ الهمزة للتقريع والتقرير ، والواو عاطفة للجملة علي ما سبق من قصة أحد أو على محذوف مثل أفعلتم كذا وقلتم ، ولما ظرفه المضاف إلى ماأصابتكم أى أقلتم حين أصابتكم مصيبة وهى قتل سبعين منكم يوم أحد ، والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطًا بالثبات والمطاوعة ، أو اختيار الخروج من المدينة . وعن على رضى الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على النصر ومنعه وعلى أن يصيب بكم ويصب منكم .

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد . ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار سماها إذنًا لأنها من لوازمه . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

الآيات من ١٦٧ : ١٦٩

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لأَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ عطف على نافقوا داخل في الصلة أو كلام مبتدأ . ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال . وقيل : معناه قاتلوا الكفرة أوادفعوهم بتكثيركم سواد المجاهدين ، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه . ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لأَتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ، أو لو نحسن قتالاً لاتبعناكم فيه ، وإنما قالوه دغلاً واستهزاء . ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ لانخذالهم وكلامهم هذا فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم . وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلا للمؤمنين . ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان . وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ من النفاق . وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات .

﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ رفع بدلاً من واو يكتمون ، أو نصب على الذم أو الوصف

للذين نافقوا ، أو جر بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم كقوله :

عَلَى حالةٍ لوْ أنَّ فِي القوْمِ حَاتِمًا عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالماءِ حَاتِمُ (١)

﴿ لإخْوَانِهِمْ ﴾ أى لأجلهم ، يريد من قتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم . ﴿ وَقَعَدُوا ﴾ حال مقدرة بقد أى قالوا قاعدين عن القتال . ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ فى القعود بالمدينة . ﴿ مَا قُتِلُوا ﴾ كما لم نقتل . قرأ هشام ما قتلوا بتشديد التاء . ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى إن كنتم صادقين إنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه ، فإنه أحرى بكم ، والمعنى أن القعود غير مغن عن الموت ، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سببًا للهلاك والقعود سببًا للنجاة قد يكون الأمر بالعكس .

الشهداء أحياء عند ربهم

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ نزلت فى شهداء أحد . وقيل : فى شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد . وقرئ بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول ، أو من يحسب أو إلى الذين قتلوا . والمفعول الأول محذوف لأنه فى الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة . وقرأ ابن عامر قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين . ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ أى بل هم أحياء . وقرئ بالنصب على معنى بل أحسبهم أحياء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ذو زلفى منه . ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء .

---

(١) هذا البيت للفرزدق يعتذر عما وقع منه فى السفر مع دليله عاصم العنبرى حين ضل الطريق ، وحاتم هو المشهور بالكرم .

الآيات من ١٧٠ : ١٧٤

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة . ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يسرون بالبشارة . ﴿ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم ﴾ أى بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم . ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أى الذين من خلفهم زمانًا أو رتبة . ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بدل من الذين والمعني : إنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين ، وهو إنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوف وقوع محذور ، وحزن فوات محبوب . والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرك بذاته لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى فى آل فرعون ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ [١] الآية وما روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « **أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل معلقة في ظل العرش** » [٢] ومن أنكر ذلك ولم ير

---

(١) غافر ٤٦

(٢) رواه السيوطى بمثله في جامع الأحاديث حـ ١ صـ ٥٥٧ برقم ٢٨٤٧ وقال أخرجه ابن زنجويه عن نعيم بن سالم عن أنس رضى الله عنه .

والحديث المذكور رواه أبو داود وابن أبي شيبة والحاكم من حديث ابن عباس .

الروح إلا ريحًا وعرضًا، قال : هم أحياء يوم القيامة ، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنوه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان . وفيها حث على الجهاد وترغيب في الشهادة وبعث علي ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمني لإخوانه مثل ما أنعم عليه ، وبشري للمؤمنين بالفلاح .

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ كرره للتاكيد وليعلق به ما هو بيان لقوله ﴿ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ثوابًا لأعمالهم . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ (١) وتنكيرهما للتعظيم . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل . وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة وأجوره مضيعة .

الذين خرجوا مع الرسول إلى حمراء الأسد

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح أو مبتدأ خبره . ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ بجملته ومن للبيان ، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد ، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون . روى (أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج ﷺ مع جماعة حتي بلغوا حمراء الأسد ـ وهي ثمانية أميال من المدينة ـ وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا) فنزلت .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ يعنى الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي ، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم كما يقال : فلان

---

(١) يونس ٢٦

يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه . ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ يعنى أبا سفيان وأصحابه روي : أنه نادى عند انصرافه من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدرالقابل إن شئت قال ﷺ : « **إن شاء الله تعالى** ، فلما كان القابل خرج فى أهل مكة حتي نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع ، فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين . وقيل : لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل ، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا ، فقال عليه السلام : «**والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله** » ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده ، والبارز للمقول لهم والمعني : إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده ، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضى الله عنهما (قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص قال : **نعم يزيد حتي يدخل صاحبه الجنة وينقص حتي يدخل صاحبه النار**)[١] وهذا ظاهر إن جعل الطاعة من جملة الإيمان وكذا إن لم تجعل فإن اليقين يزداد بالإلف وكثرة التأمل وتناصر الحجج . ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ محسبناوكافينا ، من أحسبه إذا كفاه ويدل على أنه بمعنى المحسب إنه لا يستفيد بالإضافة تعريفا فى قولك : هذا رجل حسبك . ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ونعم الموكول إليه هو فيه .

﴿ فَانقَلَبُوا ﴾ فرجعوا من بدر . ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ وربح فى التجارة فإنهم لما أتوا بدراً واوفوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا . ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ من جراحة وكيد عدو . ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ الذى هو مناط الفوز بخير الدارين بجراءتهم وخروجهم .

---

(١) أخرجه الثعلبى من حديث ابن عمر رواه عنه نافع ، ورواه عن نافع مالك .

﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلي الجهاد ، والتصلب في الدين وإظهار الجراءة علي العدو ، وبالحفظ عن كل ما يسوءهم ، وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل . وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

الآيات من ١٧٥ : ١٧٨

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾

الشيطان ولى المنافقين

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ يريد به المثبط نعيماً أو أبا سفيان ، والشيطان خبر لذلكم وما بعده بيان لشيطنته أو صفته ومابعده خبر ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أى إنما ذلكم قول الشيطان يعنى إبليس عليه اللعنة . ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول ، أويخوفكم أولياؤه الذين هم أبو سفيان وأصحابه . ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ ﴾ الضمير للناس الثانى على الأول وإلى الأولياء على الثانى . ﴿ وَخَافُونِ ﴾ فى مخالف أمرى فجاهدوا مع رسولى . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس .

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه ، وهم المنافقون من المتخلفين ، أو قوم ارتدوا عن الإسلام . والمعنى لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أى لن

يضروا أولياء الله شيئًا بمسارعتهم في الكفر ، وإنما يضرون بها أنفسهم . وشيئًا يحتمل المفعول والمصدر وقرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع ما خلا قوله فى الأنبياء لا يحزنهم الفزع الأكبر ، فإنه فتح الياء وضم الزاى فيه والباقون كذلك فى الكل . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ ﴾ نصيبًا من الثواب في الآخرة ، وهو يدل علي تمادى طغيانهم وموتهم على الكفر ، وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته ، وإن مسارعتهم فى الكفر لأنه تعالي لم يرد أن يكون لهم حظ فى الآخرة . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ مع الحرمان عن الثواب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تكرير للتأكيد ، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين ، أو ارتد من العرب .

﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ ﴾ خطاب للرسول عليه السلام ، أو لكل من يحسب والذين مفعول وأنما نملي لهم بدل منه ، وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ (١) . أو المفعول الثاني على تقدير مضاف مثل : ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم ، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم ، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل فى الخط ولكنها وقعت متصلة فى الإمام فاتبع . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائى ويعقوب بالياء على إن الذين فاعل وإن مع ما فى حيزه مفعول وفتح سينه في جميع القرآن ابن عامر وحمزة وعاصم . والإملاء الإمهال وإطالة العمر . وقيل : تخليتهم وشأنهم ، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء . ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها ، وما كافة واللام لام الإرادة . وعند المعتزلة لام العاقبة . وقرئ إنما بالفتح هنا وبكسر الأولي ولا يحسبن بالياء على معنى ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا

---

(١) الفرقان ٤٤

لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول فى الإيمان ، وإنما نملى لهم خير اعتراض . معناه أن إملاءنا خير لهم أن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ علي هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أى ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين .

الآيتان من ١٧٩ : ١٨٠

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾

الاختبار ضرورى لتميز الخبيث من الطيب

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين فى عصره ، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرف مخلصكم من منافقكم حتي يميز المنافق من المخلص بالوحى إلى نبيه بأحوالكم ، أو بالتكاليف الشاقة التى لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخلص المخلصون منكم ، كبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله ، ليختبر النبى به بواطنكم ويستدل به علي عقائدكم . وقرأ حمزة والكسائى حتى يميز ، هنا وفي الأنفال بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ وما كان الله ليؤتى أحدكم علم الغيب فيطلع على ما فى القلوب من كفر وإيمان ، ولكن الله يجتبى لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات ، أو ينصب له ما يدل عليها . ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ بصفة

الإخلاص ، أو بأن تعلموه وحده مطلعًا على الغيب وتعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحى إليهم روى (أن الكفرة قالوا : إن كان محمد صادقًا فليخبرنا من يؤمن مناومن يكفر) فنزلت . وعن السدى أنه عليه السلام قال : « **عرضت عليَّ أمتي وأعلمت من يؤمن بى ومن يكفر** » فقال المنافقون إنه يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفنا فنزلت . ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا** ﴾ حق الإيمان ﴿ **وَتَتَّقُوا** ﴾ النفاق . ﴿ **فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ لا يقادر قدره .

﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم** ﴾ القراءات فيه على ما سبق . ومن قرأ بالتاء قدر مضافًا ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم ، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ ، أو من يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفا لدلالة يبخلون عليه أى ولا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيرالهم . ﴿ **بَلْ هُوَ** ﴾ أى البخل . ﴿ **شَرٌّ لَّهُمْ** ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم . ﴿ **سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ بيان لذلك ، والمعنى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ، وعنه عليه الصلاة والسلام « **ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعله الله شجاعًا فى عنقه يوم القيامة** » . ﴿ **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث ، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه فى سبيله ، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة . ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ من المنع والإعطاء . ﴿ **خَبِيرٌ** ﴾ فمجازيهم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ فى الوعيد .

الآيات من ١٨١ : ١٨٣

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) ﴾

شناعة قول اليهود

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [١] . وروى (أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبى بكر رضي الله تعالى عنه إلي يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً قال فنحاص بن عازوراء : إن الله فقير حتى سأل القرض ، فلطمه أبو بكر رضى الله عنه علي وجهه وقال : لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك ، فشكاه إلي رسول الله ﷺ وجحد ما قاله) [٢] فنزلت . والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب عليه . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتبة ، أو سنحفظه في علمنا لانهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء ، وفيه تنبيه علي أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ علي قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول . وقرأ حمزة سيكتب بالياء وضمها وفتح التاء وقتلهم بالرفع ويقول بالياء . ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي وننتقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق ، وفيه مبالغات في الوعيد . والذوق إدراك الطعوم ، وعلي

---

(١) البقرة ٢٤٥ ـ الحديد ١١

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن طريق ابن إسحاق من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات ، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب علي قولهم الناشيء عن البخل والتهالك علي المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلي العذاب . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم . عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ عطف علي ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسئ.

﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحُيَيّ وفنحاص ووهب بن يهوذا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا . ﴿ أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ بأن لانؤمن لرسول حتي يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية فتأكله ، أي تحيله إلي طبعها بالإحراق . وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك . ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاءوهم قبله كزكريا ويحيي بمعجزات أخرى موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم ، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجترءوا علي قتله .

الآيات من ١٨٤ : ١٨٦

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾تسلية للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود ، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور علي الحكم من زبرت الشيء إذا حسبته ، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن . وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته ، وقرأ ابن عامر وبالزبر وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة علي أنها مغايرة للبينات بالذات .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾وعد ووعيد للمصدق والمكذب ، وقرىء ذائقة الموت بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله : ولا ذاكرُ الله إلا قليلا ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾تعطون جزاء أعمالكم خيرا كان أو شراً تاماً وافياً .﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يوم قيامكم من القبور ، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : **«القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»** ، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ بعد عنها ، والزحزحة في الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة .﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ بالنجاة ونيل المراد ، والفوز الظفر بالبغية ، وعن النبي ﷺ **«من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلي الناس ما يحب أن يؤتي إليه»** ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي لذاتها وزخارفها ، ﴿ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾شبهها

بالمتاع الذي يدلس به علي المستام ويغر حتي يشتريه ، وهذا لمن آثرها علي الآخرة، فاما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ والغرور مصدر أو جمع غار .

الصبر علي البلاء من علامات أولي العزم

﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ أي والله لتختبرن ﴿ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات . ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح ، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب ، ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة علي المسلمين . أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم علي الصبر والاحتمال ، ويستعدوا للقائها حتي لا يرهقهم نزولها . ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ علي ذلك . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مخالفة أمر الله . ﴿ فَإِنَّ ذَلِكَ ﴾ يعني الصبر والتقوي . ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها ، أو مما عزم الله عليه أى أمر به وبالغ فيه ، والعزم في الأصل ثبات الرأي علي الشيء نحو إمضائه .

الآيات من ١٨٧ : ٩٠

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ﴾ أي اذكر وقت أخذه ، ﴿ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد به العلماء . ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ حكاية لمخاطبتهم . وقرأ ابن كثير

وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب ، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ ﴾ والضمير للكتاب . ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾أي الميثاق ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾فلم يراعوه ولم يتلفتوا إليه . والنبذ وراء الظهر مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات ، ونقيضه جعله نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه . ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ﴾. وأخذوا بدله .

﴿ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾من حطام الدنيا وأعراضها . ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ يختارون لأنفهسم ، وعن النبي ﷺ « **من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار** » . وعن علي رضي الله تعالي عنه (ما أخذ الله علي أهل الجهل أن يتعلموا حتي أخذ علي أهل العلم أن يعلموا) .

﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، ومن ضم الباء جعل الخطاب له وللمؤمنين ، والمفعول الأول الذين يفرحون والثاني بمفازة ، وقوله فلا تحسبنهم تأكيد والمعني : لاتحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق ، بمفازة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني علي أن الذين فاعل ومفعولا يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولا مؤكده ، فكأنه قيل: ولايحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسهم بمفازة ، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم وتدليسهم، روي أنه عليه الصلاة والسلام « سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا » فنزلت . وقيل : نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به ، وقيل : نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلي المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه علي الحقيقة .

دعوة إلي الذكر والتفكر

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فهو يملك أمرهم ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر علي عقابهم ، وقيل هو رد لقولهم إن الله فقير ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ لدلائل واضحة علي وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة ، ولعل الاقتصار علي هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير ، وهذه متعرضة لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار ، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبديل أوضاعها ، وعن النبي ﷺ « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » (١)

الآيات من ١٩١ : ١٩٤

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ أي يذكرونه دائما علي الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين ، وعنه عليه الصلاة والسلام « من

---

(١) رواه ابن مردويه فى تفسير سورة الروم بلفظ « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها »
جاء فى تعليق المنتخب من التفسير على هذه الآية مايلى :.
فى هذا النص تنبيه إلى حقائق كونية تدل على عظمة الخالق ، ذلك أن السماء هى آية بدت لنا بتأثير الأشعة الشمسية على الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض ، فعندما =

أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» [١] وقيل معناه يصلون علي الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين : «صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلي جنب تومىء إيماء» [٢] فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعا علي جنبه الأيمن مستقبلا بمقاديم بدنه . ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ استدلالا واعتبارا ، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام « لاعبادة

= تسقط هذه الأشعة على ذرات العناصر الكيماوية التى يتألف منها الجو ، وعلى مايحمله هذا الجو من أتربة دقيقة عالقة به منعكس من هذه الذرات وتلك الأتربة تشتتت فى جهات مختلفة ، ومن المعلوم أن الضوء الأبيض يتألف من جميع الألوان المرئية ، وإن هذه الذرات تمتص بعض الألوان من بعضها الآخر .

وقد اتضح من تجارب واعتبارات خاصة بطاقته أن اللون الأكثر تشتتا هو اللون الازرق ، ويتجلى هذا بصورة أوضح عندما تكون الشمس فى سمت الرأس ، وتتناقص زرقة هذا اللون شيئا فشيئا ، حتى إذا بلغت الشمس الأفق أى وقت الغروب أو الشروق فإن إشعاعها يخترق جو الأرض فى مسافات أطول بكثير ، ولهذا فإن اللون الأحمر يظهر تشتته أكثر من غيره . . .

وينشأ تعاقب الليل والنهار من دوران الأرض حول محورها ، ومرجع التفاوت الزمنى بين الليل والنهار هو دورة الأرض حول الشمس ، وميل محورها عن مستوى مدارها فتختلف الفترات الزمنية باختلاف الفصول وعروض البلاد .

ومن حكمته جلت قدرته ـ أن التعاقب بين الليل والنهار وتراوحهما على فترات قصيرة يؤدى إلى اعتدال فى درجة الحرارة والمناخ ، ويهيىء البيئة الصالحة للحياة والأحياء ولهذا فإن اللون الأحمر يظهر بسبب التشعب الناجم عن الغبار الحجمى » .

راجع التعليق كاملا فى المنتخب من التفسير ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه صـ ١٠٢ .

(١) رواه الثعلبى عن طريق حماد عن حجاج عن حبيب بن أبى ثابت عن محمد بن على ابن أبى طالب عن علي ، وأصله فى المتفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . من تعليق محقق الكشاف .

(٢) رواه البخارى وأصحاب السنن .

كالتفكر »(١) لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق ، وعنه عليه الصلاة والسلام : « بينما رجل مستلق علي فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلي السماء والنجوم فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً : اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له » (٢) هذا دليل واضح علي شرف علم الأصول وفضل أهله . ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ علي إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك ، وهذا إشارة إلي

---

(١) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب مسندا إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه من حديث طويل يقول فيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لامال أعوز من العقل ولا فقر أشد من الجهل ، ولا عقل كالتدبير ، ولادرع كحسن الخلق ، ولا عبادة كالتفكر » .

(٢) رواه الثعلبى مسندا إلى أبى هريرة رضى الله عنه .

* الإعجاز العلمي

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

يدعونا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة إلي التفكر والتدبر فى خلق السموات والأرض وهى آية كريمة تدعو إلي استخدام العقل والعلم والتدبر للوصول إلى أن وراء هذا الخلق المبدع العظيم إله واحد قادر سبحانه .

والمعجزة الأولى فى هذه الآية : أن الحق سبحانه وتعالى نسب إلى ذاته الشريفه أنه هو الخالق والصانع لهذا الكون وإلي يومناهذا لم ينازعه أحد ـ سبحانه هو واحد أحد ـ ولم يظهر من يقول أن هذا الكون ملكى أو من صنعى ـ غير الحق سبحانه وتعالى .

ففي خلق السموات أمر معجز حقيقى والسماء فى الواقع هي كل ما يحيط بالأرض من جميع أقطارها ابتداء من الغلاف الجوي الذى يرتفع فوق سطح الأرض بثلثمائة كيلو متر ثم بعد هذا الغلاف الجوى يوجد فيه فراغ كونى تسبح فيه ملايين الأجرام السماوية فى أعماقه السحيقة وهى تتحرك في تماسك واتزان وكأنها البناء المحكم .

وهذا الفضاء الكوني الرهيب يفيض بأسرار وغوامض وشهب تسبح وتحترق يحمينا منها الغلاف الجوى .

المتفكر فيه ، أي الخلق علي أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معني المخلوق ، والمعني ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدله علي معرفتك ويحثه علي طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك .

* الإعجاز العلمى

﴿ إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ﴾ [الجن : ٨] والسماء هنا تحفظنا كالسقف المرفوع الذى يحفظه الله من الوقوع علي الأرض رغم المسافات الهائلة في هذا الكون العظيم فلو عرفت أن سرعة الضوء هى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية فهناك أجرام في السماء تبعد عنا بألف سنة ضوئية فكم من الكيلو مترات يقطعها الضوء في الثانية ثم فى الدقيقة ثم فى الساعة واليوم والشهر والسنة إلى أن تصل إلى ألف سنة ضوئية .

ثم خلق الأرض من جبال وبحار وأشجار ونباتات وجعلها كروية الشكل لتتابع الليل والنهار عليها وذات حرارة مناسبة عكس غيرها من الكواكب فهى ليست متجمدة ولا شديدة الحرارة .

وأحاطها بغلاف هوائى فيه تتنفس الكائنات وتعيش وجعل فيها ماء عذبًا وجعلها مخزنًا للمياه الجوفية حتى يطلبها الإنسان فيجدها وجعل تربتها صالحة للإنبات وقذف في جبالها بالمعادن التى يحتاجها الإنسان .

وجعل سطحها مستويًا إلى الحد الذى يستطيع الإنسان الانتفاع به والعيش عليه .

إليس فى هذا كله دعوة إلى التفكر والتدبر ؟

وإذا فكرنا ألا نسأل بعضنا البعض من الذي قام بتجهيز كل هذا قبل أن يستدعينا إلى الوجود فمن أراد الله هدايته فسوف يقول هو الله لا إله غيره .

ومن كتب عليه الشقاء وجعل علي قلوبهم أكنة وفى أذانهم وقرا يقولون إن الصدفة وحدها أو الطبيعة هى التى أوجدت نفسها بنفسها هيهات هيهات لما يقولو ن .

وتكون النتيجة المنطقية لهذا الخلق والإبداع الكوني المنظم المنسق هو ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ .

﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيها لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ للإخلال بالنظر فيه ، والقيام بمايقتضيه ، وفائدة الفاء هي الدلالة علي أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم علي الاستعاذة .

تضرع ومناجاة

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾غاية الإخزاء ، هو نظير قولهم : من أدرك مرعي الصمان (١) فقد أدرك ، والمراد به تهويل المستعاذ منه تنبيها علي شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه ، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع .

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾أراد بهم المدخلين ، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة علي أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها ، ولايلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة لأن النصر دفع بقهر .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾أوقع الفعل علي المسمع وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه ، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه علي نفس المسموع وفي تنكير المنادي وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه ، والمراد به الرسول عليه الصلاة والسلام وقيل القرآن ، والنداء والدعاء ونحوهما يعدي بإلي واللام لتضمنها معني الانتهاء والاختصاص ﴿ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾أي بأن آمنوا فامتثلنا .﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾كبائرنا فإنها ذات تبعة .﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة ، ولكن مكفرة عن مجتنب الكبائر ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم ، وفيه تنبيه علي أنهم محبون لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، والأبرار جمع برّ أو بار كأرباب وأصحاب .

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾أي ما وعدتنا علي تصديق رسلك من الثواب ، لما أظهر امتثاله لما أمر به سأل ما وعد عليه لاخوفا من إخلاف الوعد بل مخافةأن لايكون من الموعودين لسوء عاقبة ، أو قصور في الامتثال أو تعبداً

---

(١) مرعى الصمان : موضع إلى جنب رمل عالج ، وعالج : موضع بالبادية به رمل .

واستكانة ، ويجوز أن يعلق علي بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلا علي رسلك، أو محمولا عليهم ، وقيل معناه علي ألسنة رسلك ﴿ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه . ﴿ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الميعاد البعث بعد الموت ، وتكرير ربنا للمبالغة في الابتهال والدلالة علي استقلال المطالب وعلو شأنها ، وفي الآثار « من حزبه أمر فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف » .

الآيات من ١٩٥ : ١٩٨

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨) ﴾

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ إلي طلبتهم ، وهو أخص من أجاب ويعدي بنفسه وباللام ، ﴿ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾ أي بأني لاأضيع ، وقرىء بالكسر علي إرادة القول . ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيان عامل ، ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾لأن الذكر من الأنثي والأنثي من الذكر ، أو لأنهما من أصل واحد ، أو لفرط الاتصال والاتحاد ، أو للاجتماع والاتفاق في الدين ، وهي جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال .

من أسباب النزول

روي « أن أم سلمة رضي الله عنها قالت : يارسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولايذكر النساء » فنزلت .

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلخ ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد لهم من الثواب علي سبيل المدح والتعظيم ، والمعني فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين . ﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ الكفار ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ في الجهاد .

وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباًوالثاني أفضل، أو لأن المراد لماقتل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعفوا . وشدد ابن كثير وابن عامر قتلوا للتكثير . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لأمحونها ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي أثيبهم بذلك إثابة من عند الله تفضلا منه ، فهو مصدر مؤكد . ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ على الطاعات قادر عليه .

تهديد للكافرين

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ والخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته ، أو تثبيته على ما كان عليه كقوله ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [1] أو لكل أحد ، والنهى فى المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة ، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم . روى (أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش فيقولون : إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد) فنزلت .

﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى ذلك التقلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين . قال عليه الصلاة والسلام « **ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع** » .﴿ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى ما مهدوا لأنفسهم .

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) القلم ٨

﴿ نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ النزل والنزول ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة قال أبو الشعر الضبى :

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جَعَلْنَا القَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزلا (١)

وانتصابه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف . وقيل : إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلاً .﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ لكثرته ودوامه . ﴿ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله .

الآيتان من ١٩٩ : ٢٠٠

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل : فى أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا . وقيل : فى أصحمة النجاشى (٢) لما نعاه جبريل إلي رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه ، فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج نصراني لم يره قط . وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إن بالظرف . ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ من القرآن . ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من الكتابين . ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ كما يفعله المحرفون من أحبارهم . ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

---

(١) يعنى أنهم أعدوا لن يطرقهم من جبابرة الأعداء الرماح القوية والسيوف المرهفة .

(٢) أصحمة النجاشى : ملك الحبشة ، أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، وأخباره معهم ومع كفار قريش الذين طلبوا منه أن يسلم إليهم المسلمين مشهورة ، وأصحمة اسمه ، والنجاشى لقب له ولملوك الحبشة . توفى قبل فتح مكة . أسد الغابة جـ ١ صـ ١١٩ .

عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعده فى قوله تعالي : ﴿ **أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ** ﴾ (١) ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ لعمله بالاعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغنائه عن التأمل والاحتياط ، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا** ﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد . ﴿ **وَصَابِرُوا** ﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوي ، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر مطلقا لشدته . ﴿ **وَرَابِطُوا** ﴾ أبدانكم وخيولكم فى الثغور مترصدين للغزو ، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام : « **من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة** » (٢) .وعنه عليه الصلاة والسلام : « **من رابط يوماً وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه ، لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجته** » (٣) . ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ فاتقوه بالتبرى عما سواه لكى تفلحوا غاية الفلاح ، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة ، المرتبة التى هى الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر علي جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة ، والطريقة ، والحقيقة .

---

(١) القصص ٥٤

(٢) رواه ابن كثير فى تفسيره من حديث على كرم الله وجهه . بلفظ « ألا أدلكم على مايكفر الذنوب والخطايا ؟ إسباغ الوضوء على المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » حـ ٢ صـ ١٧٠ .

(٣) رواه أحمد وابن أبى شيبة من حديث سلمان رضى الله عنه وأصله فى صحيح مسلم.

من فضائل سورة آل عمران

عن النبى ﷺ :« من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا علي جسر جهنم »[1] وعنه ﷺ : « من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس »[2] والله أعلم .

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث أبى بن كعب ، ورواه ابن مردويه من وجه آخر .

(٢) رواه الزمخشرى فى الكشاف بلفظ حتى تحجب الشمس . وعلق ابن حجر على الحديث بقوله : أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

ورواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ٢ صـ ١٨٤ وعزاه إلى الطيرانى فى الكبير مرويا عن ابن عباس ولم يذكر درجته . ولفظه حتى تجب الشمس . .

وتجب من الوجوب وهو غياب الشمس ، يقال : وجبت الشمس وجباً ووجوبا .

(٤) سورة النساء مدنية
وآياتها ست وسبعون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان من ١ : ٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (٢) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب يعم بني آدم . ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هـي آدم . ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ عطف علي خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضلع من أضلاعه ، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها ، وهو تقرير لخلقهم من نفس واحدة .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما ، والمعنى ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة ، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، إذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر، وذكر كثيراً حملاً على الجمع وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التى من حقها أن تخشى ، والنعمة الباهرة التى توجب طاعة موليها ، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوي فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبنى جنسه على ما دلت عليه الآيات التى بعدها . وقرئ وخالق وباث علي حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ أى يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله ، وأصله تتساءلون فادغمت التاء الثانية في السين . وقرأ عاصم وحمزة

والكسائي بطرحها .

﴿ وَالأَرْحَامَ ﴾ بالنصب عطف على محل الجار والمجرور كقولك : مررت بزيد وعمراً ، أو على الله أى اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها . وقرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة . وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام كذلك ، أي مما يتقى أو يتساءل به . وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أن صلتها بمكان منه . وعنه عليه الصلاة والسلام: « **الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله** » [١] . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ حافظاً مطلعاً .

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أى إذا بلغوا ، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه ، من اليتم وهو الانفراد . ومنه الدرة اليتيمة ، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جمع علي يتائم ، ثم قلب فقيل يتامى أو على أنه جمع علي يتمى كأسرى لأنه من باب الآفات .. ثم جمع يتمى على يتامي كأسرى وأسارى ، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار ، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ . وووروده فى الآية إما للبُلَّغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر ، حثا على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد ، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً . أو لغير البلغ والحكم مقيد فكأنه قال : وآتوهم إذا بلغوا . ويؤيد الأول ما روى : أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت . فلما سمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب [٢] الكبير .

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذى هو حفظها . وقيل : ولا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها ، وهذا

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ٢ صـ ٢٧ وعزاه إلى مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها ورمز له السيوطى بالصحة والحسن .

(٢) الحوب : الإثم

تبديل وليس بتبدل . ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ** ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم ، أى لا تنفقوهما معًا ولا تسووا بينهما ، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى ﴿ **فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ الضمير للأكل . ﴿ **كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ ذنبًا عظيمًا . وقرئ حوبًا وهو مصدر حاب حوبًا وحابًا كقال قولاً وقالاً .

الآيات من ٣ : ٥

﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٥)** ﴾

﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾ أى إن خفتم أن لا تعدلوا فى يتامى النساء إذا تزوجتم بهن ، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن . إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضنًا بها ، فربما يجتمع عنده منهم عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن . أو إن خفتم أن لا تعدلوا فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضًا أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقدارًا يمكنكم الوفاء بحقه ، لأن المتحرج من الذنب ينبغى أن يتحرج من الذنوب كلها على ما روي : أنه تعالى لما عظم أمر اليتامى تحرجوا من ولايتهم وما كانوا يتحرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت . وقيل : كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى ، فقيل لهم : إن خفتم أن لا تعدلوا فى أمر اليتامى فخافوا الزنى ، فانكحوا ما حل لكم ، وإنما عبر عنهن بما ذهابا إلى الصفة أو إجراء لهن مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن ، ونظيره ﴿ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ (١) وقرئ تقسطوا بفتح التاء على أن لا مزيدة أى إن خفتم أن

---

(١) النساء ٣

تجوروا . ﴿ مثنىٰ وثُلاث ورُباعَ ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي : ثنتين ثنتين ، وثلاثًا ثلاثًا ، وأربعًا أربعًا . وهى غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بنيت صفات وإن كانت أصولها لم تبن لها .

وقيل : لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبة على الحال من فاعل طاب ومعناها : الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك : اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، ولو أفردت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع ولو ذكرت بأو لذهب تجويز الاختلاف فى العدد . ﴿ فإنْ خفتمْ ألاَّ تعْدلُوا ﴾ بين هذه الأعداد أيضًا . ﴿ فواحِدَةً ﴾ فاختاروا أو فانكحوا و احدة وذروا الجمع . وقرئ بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة ، أو فالمقنع واحدة . ﴿ أوْ ما ملَكتْ أيْمانُكُمْ ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السرارى لخفة مؤنهن وعدم وجوب القسم بينهن . ﴿ ذَلكَ ﴾ أى التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسري . ﴿ أدْنىٰ ألاَّ تعُولُوا ﴾ أقرب من أن لا تميلوا ، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار ، وعول الفريضة الميل عن حد السهام المسماة . وفسر بأن لا تكثر عيالكم على أنه من عال الرجال عياله يعولهم إذا مانهم ، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية . ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسرى مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع (١) .

---

(١) تعليق على مسألة تعدد الزوجات

جاء فى المنتخب من التفسير :

لم تنفرد الشريعة الإسلامية من بين الشرائع السماوية بمبدأ تعدد الزوجات ، فشريعة التوراة تثبت أنه يباح للرجل أن يتزوج بمن يشاء ، وهى تذكر أن الأنبياء كانوا يتزوجون من النساء بالعشرات لا بالآحاد . والتوراة هى كتب العهد القديم الذى يؤخذ به عند النصارى ، ولم يوجد نص قد جاء فى الانجيل أو رسائل الرسل يخالفها ، ولم يوجد نص صريح فى المخالفة ، والكنيسة كانت تاذن بالتعدد ولا تعارض فيه فى القرون الوسطى ومابعدها ، وملوك أوربا الذين عددوا الزوجات معروفون فى تاريخها .

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ مهورهن . وقرئ بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف ، وبضم الصاد وسكون الدال ، جمع صدقة كغرفة ، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة في ظلمة .

﴿ نِحْلَةً ﴾ أى عطية يقال نحله كذا نحلة ونحلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ، ومن فسرها بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ ، ونصبها على المصدر لأنها في معني الإيتاء أو الحال من الواو ، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة . وقيل : المعنى نحلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات . وقيل : ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له ، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شرعه ، والخطاب للأزواج ، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم . ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً ﴾ للصداق حملاً على المعنى أو جرى مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة :

وإذا كان الاسلام قد انفرد بشيء فى هذا المقام ، فالذى انفرد به هو أنه قيد التعدد ، فهو أول شريعة قيدت التعدد صراحة ـ فقد قيدته بثلاثة أمور :

أولها ألا يزيد عن أربع

ثانيها ألا يكون فيه ظلم لإحداهن

ثالثها أن يكون قادرا على الإنفاق .

والشرطان الأخيران لازمان فى كل زواج ولو كان الأول . فقد قرر فقهاء المسلمين على اختلاف فرقهم بالإجماع أنه يحرم الزواج على من يتأكد أنه لايعدل مع زوجته إذا تزوج، غير أن ذلك التحريم دينى لايقع تحت سلطان القضاء ، لأن العدل أمر نفسى لايعلم إلا من وجهته .

والقدرة على الإنفاق أمر نسبى لاتحد بميزان واحد ، ولذلك ترك الأمر فيها إلى تقدير الشخص ، وهو آثم عليه العقاب يوم القيامة ، إن خالفه . . .

والاسلام إذ قد فتح باب التعدد مع التضييق فيه قد دفع أدواء اجتماعية . . .من أجلها فتح الباب مضيقا ولم يغلقه تماما . إن الاسلام شريعة الله الذى يعلم كل شيء فهو العليم الحكيم .

راجع التعليق كاملا فى المنتخب من التفسير صـ ١٠٦

كَأَنَّهُ فِي الجلْدِ تَوْلِيعُ البُهَق (١)

إذ سئل فقال : أردت كأن ذاك . وقيل للإيتاء ، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحد ، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس ، لكن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة وعداه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز ، وقال منه بعثا لهن على تقليل الموهوب .

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة . والهنئ والمرئ صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غصص (٢) ، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جعلتا حالاً من الضمير . وقيل الهنئ ما يلذه الإنسان ، والمرئ ما تحمد عاقبته . روى : أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها . فنزلت .

﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ نهى للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها ، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم ، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة . وقيل : نهى لكل أحد أن يعمد إلي ما خوله الله تعالى من المال فيعطى امرأته وأولاده ، ثم ينظر إلى أيديهم . وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله : ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ أى تقومون بها وتنتعشون ، وعلى الأول يؤول بأنها التى من جنس ما جعل الله لكم قياماً سمى ما به القيام قياماً للمبالغة . وقرأ نافع وابن عامر قيماً بمعناه كعوذ بمعنى عياذ . وقرئ قواماً وهو ما يقام به . ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه .﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم ، والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحسن ، والمنكر ما أنكره أحدهما لقبحه .

---

(١) مر الحديث عن هذا الشاهد فى سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى « عوان بين ذلك » الآية رقم ٦٨ .

(٢) غصص : جمع غصة وهو مايعترض فى الحلق من طعام أو شراب .

الآيتان من ٦ : ٧

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) ﴾

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين ، والتهدى إلى ضبط المال وحسن التصرف ، بأن يكل إليه مقدمات العقد . وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يدفع إليه ما يتصرف فيه .

سن النكاح

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ حتي إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم ، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله ﷺ : « **إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة ، كتب ماله وما عليه وأقيمت عليه الحدود** » .

وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله .

وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ ، لأنه يصلح للنكاح عنده . ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً . وقرئ أحستم بمعنى أحسستم . ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ ، ونظم الآية أن إن الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط ، والجملة غاية الابتلاء فكأنه قيل : وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم ، وهو دليل على أنه لا يدفع إليهم ما لم يؤنس منهم الرشد . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : إذا زادت علي سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال ، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة ، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد .

﴿ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ مسرفين ومبادرين كبرهم ، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم . ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ من أكلها . ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه ، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولى له حق في مال الصبى ، وعنه عليه الصلاة والسلام: « **أن رجلاً قال له إن فى حجرى يتيماً فآكل من ماله ؟ قال : كل بالمعروف غير متأثل** (١) **مالاً ولا واق مالك بماله** » .

وإيراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامى .

﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة ، ووجوب الضمان وظاهره يدل على أن القَيِّم لا يصدق فى دعواه إلا بالبينة وهو المختار عندنا ، وهو مذهب مالك خلافًا لأبى حنيفة .

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ محاسبًا فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تتجاوزوا ما حد لكم .

مشروعية الميراث

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة . ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل . ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٢) أو حال إذ المعنى : ثبت لهم مفروضًا نصيب ، أو على الاختصاص بمعنى أعنى نصيبًا مقطوعًا واجبًا لهم ، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه . روى (أن أوس بن

---

(١) متأثل : مدخر مالا ومستثمره لنفسه .

والحديث : أخرجه الثعلبى من حديث مسند إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، ورواه احمد وأبو داود والنسائى ، وابن حاجة .

(٢) النساء ١١ ، التوبة ٦٠

الصامت الأنصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات ، فزوى (١) ابنا عمه سويد وعرفطة . أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن علي سنة الجاهلية ، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة (٢) فجاءت أم كحة (٣) إلى رسول الله ﷺ فى مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال : ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله . فنزلت فبعث إليهما : لا تفرقا من مال أوس شيئًا فإن الله قد جعل لهن نصيبًا ولم يبين حتي يبين . فنزلت ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ ﴾(٤) فاعطي أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم) وهو دليل علي جواز تاخير البيان عن وقف الخطاب .

الآيات من ٨ : ١٠

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ⑧ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩ ﴾

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرث ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ فاعطوهم شيئًا من المقسوم تطييبًا لقلوبهم . وتصدقًا عليهم ، وهو أمر ندب للبلغ من الورثة . وقيل أمر وجوب ، ثم اختلف فى نسخه والضمير لما ترك أو ما دل عليه القسمة ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم .

---

(١) ذوى : ضم

(٢) يذب : يدافع ، والحوزة : الناحية ، وحوزة الرجل مافى ملكه ، وحوزة الإسلام حدوده ونواحيه .

(٣) أم كحة : فى أسد الغابة : أم كجة بالجيم ـ هى زوجة أوس بن ثابت وقال ابن الاثير : هى التى نزلت فيها آية المواريث . وذكر الخبر الذى أورده المصنف .

ـ أسد الغابة جـ ٧ صـ ٣٨١

(٤) النساء ١١

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم مايحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم ، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم ، فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم ، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامي والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافًا مثلهم هل يجوزون حرمانهم ، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه ، جعل صلة للذين على معني وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ذرية ضعافًا خافوا عليهم الضياع وفى ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه ، وبعث على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده . ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى ، إذ لا ينفع الأول دون الثانى ، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب ، أو للمريض ما يصده عن الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة ، ويذكره التوبة وكلمة الشهادة ، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسنًا ، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدى إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ ظالمين ، أو علي وجه الظلم . ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ ملء بطونهم . ﴿ نَارًا ﴾ ما يجر إلى النار ، ويؤول إليها . وعن أبى بردة رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال : « يبعث الله قومًا من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً . فقيل : من هم ؟ فقال : ألم تر أن الله يقول : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ سيدخلون ناراً وأي نار »(١) . وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً . وقرئ به مشدداً يقال صلى النار قاسى حرها ، وصليته شويته

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره وعزاه إلى أبى بكر بن مردويه وإلى ابن أبى حاتم . راجع تفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ١٩٥ .

وأصليته وصليته ألقيته فيها ، والسعير فعيل بمعني مفعول من سعرت النار إذا ألهبتها .

الآية ١١

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ ﴾ يامركم ويعهد إليكم . ﴿ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ فى شأن ميراثهم وهو إجمال تفصيله . ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي يعد كل ذكر بانثيين حيث اجتمع الصنفاف فيضعف نصيبه ، وتخصيص الذكر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله ، والتنبيه على أن التضعيف كاف للتفضيل فلا يحرمن بالكلية وقد اشتركا فى الجهة ، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به .

﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً ﴾ أي إن كان الأولاد نساء خلصاً ليس معهن ذكر ، فأنث الضمير باعتبار الخبر أو علي تأويل المولودات . ﴿ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ خبر ثان ، أو صفة للنساء أى نساء زائدات على اثنتين . ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى .

﴿ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ أى وإن كانت المولودة واحدة . وقرأ نافع بالرفع على كان التامة .

واختلف فى الثنتين قال ابن عباس رضى الله عنهما حكمهما حكم الواحدة ، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما . وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان ، اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان . ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد

رد ذلك بقوله ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالحرى أن تستحقه مع أخت مثلها . وأن البنتين أمس رحما من الأختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله تعالى ﴿ فلهما الثلثان مما ترك ﴾ .

﴿ وَلأَبَوَيْهِ ﴾ ولأبوى الميت . ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ بدل منه بتكرير العامل وفائدته التنصيص علي استحقاق كل واحد منهما السدس ، والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً . ﴿ السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ ﴾ أى للميت . ﴿ وَلَدٌ ﴾ ذكر أو أنثى غير أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة ، وما بقى من ذوى الفروض أيضاً بالعصوبة . ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ فحسب . ﴿ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ مما ترك وإنما لم يذكر حصة الأب ، لأنه لما فرض أن الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم علم أن الباقى للأب . وكأنه قال : فلهما ما ترك أثلاثاً ، وعلى هذا ينبغى أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقى من فرضه كما قاله الجمهور ، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس ، فإنه يفضى إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوى لها في الجهة والقرب وهو خلاف وضع الشرع .﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾بإطلاقه يدل على أن الإخوة يردونها من الثلث إلى السدس ، وإن كانوا لا يرثن مع الأب .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذى حجبوا عنه الأم ، والجمهور على أن المراد بالأخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخلص أخذا بالظاهر . وقرأ حمزة و الكسائى فلإمه بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التى قبلها .

﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها اى هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية . أو دين ، وإنما قال بأو التى للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان فى الوجوب مقدمان علي القسمة مجموعين ومنفردين ، وقدم الوصية على الدَّيْن وهي متأخرة في الحكم لأنها مشبهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد . ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا

تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم ، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به ، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه . روى أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر في اللجنة سأل أن يرفع إليه فيرفع بشفاعته . أو من مورثيكم منهم أو من أوصى منهم فعرضكم للثواب بإمضاء وصيته ، أو من لم يوص فوفر عليكم ماله فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية . ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد ، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح والرتب . ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما قضى وقدر .

الآية رقم ١٢

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ أي ولد وارث من بطنها ، أو من صلب بنيها ، أو بني بنيها وإن سفل ذكراً كان أو أنثي منكم أو من غيركم . ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما في النسب ، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب ، ولايستثني منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة ، وتستوي الواحدة والعدد منهم في الربع والثمن . ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ ﴾ أي الميت . ﴿ يُورَثُ ﴾ أي يورث منه

من ورث صفة رجل ﴿ كَلالة ﴾ خبر كان أو يورث خبره ، وكلالة حال من الضمير فيه وهو من لم يخلف ولداً ولا والداً . أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد . ويجوز أن يكون الرجل الوارث ويورث من أورث وكلالة من ليس له بوالد ولا ولد . وقرىء يورث علي البناء للفاعل فالرجل الميت وكلالة تحتمل المعاني الثلاثة وعلي الأول خبر أو حال ، وعلي الثاني مفعول له ، وعلي الثالث مفعول به وهي في الأصل مصدر بمعني الكلال قال الأعشي :

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كلالة وَلاَ مِنْ حَفا حَتي أُلاقِي مُحَمَّداً (١)

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية ، لأنها كالة بالإضافة إليها ، ثم وصف بها المورث والوارث بمعني ذي كلالة كقولك فلان من قرابتي .

﴿ أَوِ امْرَأَةٌ ﴾عطف علي رجل .﴿ وَلَهُ ﴾أي وللرجل ، واكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف علي تشاركهما فيه .﴿ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾أي من الأم ، ويدل عليه قراءة أبي وسعد بن مالك وله أخ أو أخت من الأم ، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل ، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فرض فيناسب أن يكون لأولادها .

﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾سَوَّي بين الذكر والأنثي في القسمة لأن الإدلاء بمحض الأنوثة ، ومفهوم الآية أنهم لايرثون ذلك مع الأم والجدة كما لايرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع .

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾أي غير مضار لورثته

---

(١) هذا البيت من قصيدة أعدها ليمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ولكن قريشا حالت بينه وبين الذهاب إليه فارجأ وفادته على النبى صلى الله عليه وسلم إلى العام القادم ، فمات قبل أن يرحل إلى النبى صلى الله عليه وسلم على يديه ، ولكن القصيدة بقيت شاهد صدق للنبى صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا البيت :

نبى يرى مالا تـــرون وذكـــره اغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

بالزيادة علي الثلث ، أوقصد المضارة بالوصية دون القربة والإقرار بدين لايلزمه ، وهو حال من فاعل يوصي المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصي علي البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عياش عن عاصم .

﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار علي المفعول به ، ويؤيده أنه قرىء غير مضار وصية بالإضافة أي لايضار وصية من الله ، وهو الثلث فما دونه بالزيادة ، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار الكاذب.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾بالمضار وغيره ﴿ حَلِيمٌ ﴾لايعاجل بعقوبته .

الآية ١٣

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) ﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلي الأحكام التي قدمت في أمر اليتامي والوصايا والمواريث ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لايجوز مجاوزتها . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٩٧)

---

(١) جاء فى تعليق المنتخب من التفسير على نظام المواريث الإسلامى ما ياتى :

* نظام الميراث الذى بينه القرآن الكريم أعدل نظام للتوريث عرف فى كل قوانين العالم ، وقد اعترف بذلك كل علماء القانون فى أوربا ، وهو دليل على أن القرآن من عند الله . إذ إنه لم يكن مثله ولاقريبا منه معروفا عند الفرس ولا عند الرومان ، ولا فى أى شريعة أخرى قبله ، وقد اتبع فيه النظم العادلة الآتية :

أولها : انه جعل التوريت تنظيم الشارع لا بإرادة المالك ، من غير أن يهمل هذه الإرادة بل جعل له الوصية بالمعروف فى الثلث ليتدارك تقصيرا دينيا فاته ، كزكوات لم يؤدها ، أو ليعين بعض ذوى الحاجة من تربطه به صلة مودة أو قرابة لاتستحق ميراثا ، ومنع الوصية إذا كان الباعث عليها معصية أو تحريضا على الاستمرار فى المعصية ، وتولى الشارع توزيع الثلثين إن كانت وصيته أو توزيع الكل إذا لم تكن وصيته ، أو كانت باقل من الثلث . فوزع الشارع الباقى .

الآيات من ١٤ : ١٨

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾توحيد الضمير في يدخله ، وجمع خالدين للفظ والمعني . وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون وخالدين حال مقدرة كقولك : مررت برجل معه صقر صائداً

ثانيها : أنه في توليه سبحانه توزيع الثلثين أعطى الأقرب فالأقرب من غير تفرقة بين صغير وكبير ، ولذلك كان الأولاد أكثر حظا من غيرهم فى الميراث لأنهم امتداد لشخص المالك، ولأنهم فى الغالب ضعاف ، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث ، بل يشاركهم الأم والجدة والأب والجد ، وإن كانوا يأخذون أقل من الأولاد .

ثالثها : أنه يلاحظ فى التوريث مقدار الحاجة ، ولذلك كان نصيب الأولاد أكبر لأنهم أكثر احتياجا ، إذ هم مقبلون على الحياة والآباء والأمهات مديرون عنها .

وأن ملاحظة الحاجة هى التى جعلت نصيب المرأة على النصف من نصيب الرجل فى أكثر أحوال الميراث ، إذ أن التكليفات المالية التى يطالب بها الرجل أكبر ، فهو المطالب بنفقة الأولاد وإصلاحهم ، وهو المطالب بنفقة المرأة ، إذ إن الفطرة الإنسانية هى التى جعلت المرأة قوامة على البيت وتدبيره ورعاية الأولاد وتهيئة راحتهم ، وجعلت الرجل

به غدا ، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات وناراً وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جريا على غير من هما له .

عقوبة الزاني قبل حد الرجم والجد

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ﴾أي يفعلنها ، يقال : أتي الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها إذا فعلها ،والفاحشة الزنا لزيادة قبحها وشناعتها ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾فاطلبوا ممن قذفهن أربعة من رجال المؤمنين تشهد عليهن ﴿ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجنا عليهن ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾يستوفي أرواحهن الموت ، أو يتوفاهن ملائكة الموت .

قيل : كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنُسخ بالحد ، ويحتمل أن يكون المراد به التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كيلا يجري عليهن ما جري بسبب الخروج والتعرض للرجال .

كادحا يعمل خارج البيت ، ويقدم المال المطلوب لميزانية الأسرة .

وأن الإعطاء على قدر الحاجة هو العدل والمساواه مع تفاوت الحاجة هى الظلم .

ولبعها : ان الشرع الإسلامى فى توزيعه للتركة يتجه إلى التوزيع دون التجميع ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأبناء دون البنات ، ولا للأولاد دون الآباء ، ولم يحرم من ليسوا من عمود النسب كالإخوة والأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، فالميراث يمتد إلى مايقارب القبيلة ولكن يأخذ الأقرب فالأقرب ، ولايوجد فى مسائل الميراث أن ينفرد به واحد إلا نادرا .

خامسها : أنه لم يحرم المرأة من الميراث كما كان يجرى عند العرب ، بل لها ميراث ، وفى ذلك احترام للمرأة وإعطائها حقوقها .

وفوق ذلك لم يمنع الإسلام قرابة المرأة من الميراث ، بل ورث القرابة التى تكون من جانبها .

كما ورث القرابة التى تكون من جانب الأب ، فالأخوات والإخوة لأم يأخذون عندما يأخذ الأشقاء ـ بل فى بعض الأحيان يأخذ الأولاد لأم ولا يأخذ الإخوة والأخوات وهذ بلاشك تكريم للأمومة واعتراف بقرابتها ، ولم يكن ذلك معروفا من قبل ، ولكنها شريعة الله العليم الحكيم .   المنتخب من التفسير صـ ١٠٩

لم يذكر الحد استغناء بقوله تعالي﴿ الزانية والزاني ﴾(١) ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ كتعيين الحد المخلص عن الحبس ، أو النكاح المغني عن السفاح .

﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ ﴾ يعني الزانية والزاني ، وقرأ ابن كثير واللذان بتشديد النون وتمكين مد الألف ، والباقون بالتخفيف من غير تمكين ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ بالتوبيخ والتقريع ، وقيل بالتعيير والجلد . ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء ، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمة ، قيل هذه الآية سابقة علي الأولي نزولا وكان عقوبة الزنا الأذي ثم الحبس ثم الجلد ، وقيل الأولي في السحاقات وهذه في اللواطين ، والزانية والزاني في الزناة.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم علي الله بمقتضي وعده من تاب عليه إذا قيل توبته ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ، ولذلك قيل من عصي الله فهو جاهل حتي ينزع عن جهالته ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ من زمان قريب ، أي قبل حضور الموت لقوله تعالي ﴿ حتي إذا حضر أحدهم الموت ﴾(٢) وقوله عليه الصلاة والسلام: « إن الله يقبل توبة عبده مالم يغرغر »(٣) وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالي ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾(٤) أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبه فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع ، ومن للتبعيض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت ، أو يزين السوء. ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكتب علي نفسه بقوله ﴿ إنما التوبة علي الله ﴾ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿ حَكِيمًا ﴾ والحكيم لايعاقب التائب.

---

(١) سورة النور ٢ (٢) النساء ١٨

(٣) أورده الطبرى من طريق قتادة عن العلاء بن زياد عن أبى أيوب عن بشير بن كعب ، ورواه الطبرى أيضا من طريق آخر مسندا إلى عبادة بن الصامت ورواه الترمزى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وللحديث روايات أخرى .

(٤) النساء ٧٧

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾سوي بين من سوف يتوب إلي حضور الموت من الفسقة والكفار ، وبين من مات علي الكافر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة ، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء.

وقيل المراد بالذين يعملون السوء عصاة المؤمنين ، وبالذين يعملون السيئات المنافقون لتضاعف كفرهم سوء أعمالهم ، وبالذين يموتون الكفار ، ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾تاكيد لعدم قبول توبتهم ، وبيان أن العذاب أعده لهم لايعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة ، وقيل: أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولي تاء.

الآيتان ١٩ ، ٢٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) ﴾

وراثة النساء في الجاهلية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقي ثوبه علي امرأته وقال : أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ، وإن شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها ، فنهوا عن ذلك ، وقيل : لايحل لكم أن تاخذوهن علي سبيل الإرث فتتزوجوهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه .

وقرأ حمزة والكسائي كرهاً بالضم في مواضعه وهما لغتان ، وقيل بالضم المشقة وبالفتح ما يكره عليه .

﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾عطف علي أن ترثوا ، ولا لتأكيد النفي أي ولاتمنعوهن من التزويج ، وأصل العضل التضييق يقال عضلت الدجاجة ببيضها ، وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتي يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن .

وقيل : تم الكلام بقوله كرهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل . ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف ، والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له بتقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة ، أو ولا تعضلوهن لعلة إلا أن يأتين بفاحشة ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر مبينة هنا وفي الأحزاب [١] والطلاق [٢] بفتح الياء والباقون بكسرها فيهن ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾أي فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح دينا وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه ، وليكن نظركم إلي ماهو أصلح للدين وأدني إلي الخير ، وعسي في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه ، والمعني فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾تطليق امرأة وتزوج أخري ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ ﴾أي إحدي الزوجات ، جمع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس ﴿ قِنطَارًا ﴾مالاً كثيراً ، ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي من قنطار . ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾استفهام إنكار وتوبيخ ، أي أتأخذونه باهتين وآثمين ، ويحتمل النصب علي العلة كما في قولك : قعدت عن الحرب جبناً ، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم .

قيل : كان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بهت [٣] التي تحته بفاحشة حتي

---

(١) الاية رقم ٣٠ من سورة الأحزاب

(٢) الآية رقم ١ من سورة الطلاق

(٣) ـ بهت : من البهتان وهو الكذب ، أى رماها كذبا بفاحشة

يلجئها إلي الأفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلي تزوج الجديدة ، فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

الآيتان من ٢٠ : ٢٢

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾إنكار لاسترداد المهر والحال أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾عهدا وثيقاً وهو حق الصحبة والممازحة ، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾[١] أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[٢] .

المحرمات من النساء

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم ﴾ولاتنكحوا التي نحكها آباؤكم ، وإنما ذكر ما دون من لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية علي إرادة المفعول من المصدر ، ﴿ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾بيان ما نكح علي الوجهين ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾استثناء من المعني اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف ، أو من اللفظ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله :

ولاعَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيُوفَهُم ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِب[٣]

والمعني ولاتنكحوا حلائل آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن . وقيل الاستثاء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف ، فإنه لامؤاخذة عليه لأنه مقرر.

---

(١) البقرة ٢٢٩

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويل في كتاب الحج .

(٣) البيت من قصيدة للنابغة الذبياني يمدح فيها الغساسنة ملوك الشام ، وهذا البيت يستشهد به البلاغيون على مايعرف عندهم بأسلوب المدح بما يشبه الذم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا ﴾ علة للنهي اي إن نكاحهن كان فاحشة عند الله ما رخص فيه لأمة من الأمم ، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ سبيل من يراه ويفعله .

الآية ٢٣

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن لأنه معظم ما يقصد منهن ، ولأنه المتبادر إلي الفهم كتحريم الأكل من قوله﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾(١) ولأن ما قبله ومابعده في النكاح ، وأمهاتكم تعم من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت ، وبناتكم تتناول من ولدتها أو ولدت من ولدها وإن سفلت ، وأخواتكم الأخوات من الأوجه الثلاثة . وكذلك الباقيات والعمة كل أنثي ولدها من ولد ذكراً ولدك والخالة كل أنثي ولدها من ولد أنثي ولدتك قريباً أو بعيداً ، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربي والبعدي ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ نزَّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما والمرضعة أختا وأمر مهما على قياس النسب باعتبار المرضعة ووالد الطفل الذى در عليه اللبن قال ﷺ « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »(٢) . واستثناء اختب ابن الرجل وأم اخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس

---

(١) المائدة ٣ (٢) متفق عليه من حديث عائشة وابن عباس

بصحيح فإن حرمتهما من النسب بالمصاهرة دون النسب .

﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ذكر أولاً محرمات النسب ثم محرمات الرضاعة ، لأن لها لحمة كلحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج ، والربائب جمع ربيبة ، والربيب ولد المرأة من آخر سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر، فعيل بمعني مفعول وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً ومن نسائكم متعلق بربائكم ، واللاتي بصلتها صفة لها مقيدة للفظ والحكم بالإجماع قضية للنظم، ولايجوز تعليقها بالأمهات أيضا لأن من إذا علقتها بالربائب كانت ابتدائية ، وإذا علقتها بالأمهات لم يجز ذلك بل وجب أن يكون بياناً لنسائكم والكلمة الواحدة لاتحمل علي معنين عند جمهور الأدباء اللهم إلا إذا جعلتها للاتصال كقوله .

إذا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُوراً　　　فإنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِي

علي معني أن أمهات النساء وبناتهن متصلات بهن ، لكن الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها «إنه لابأس أن يتزوج ابنتها ولايحل له أن يتزوج أمها» (١) وإلية ذهب عامة العلماء ، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييد التحريم فيهما ، ولايجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساءين لأن عاملهما مختلف ، وفائدة قوله في حجوركم تقوية العلة وتكميلها، والمعني أن الربائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوي الشبه بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تجروها مجراهما لاتقييد الحرمة ، وإليه ذهب جمهور العلماء. وقد روي عن علي رضي الله تعالي عنه أنه

= وقد اختصت الشريعة الإسلامية من بين الشرائع القائمة بالتحريم بسبب الرضاعة ، لأن الرضيع يتغذى من جسم المرضع ، كما يتغذى من جسم أمه فى بطنها فكلاهما يكون أجزاء جسمه ، ولا فرق بين تكوين فى الحجر وتكوين فى البطن ، وفى التحريم بالرضاعة تكون للمرضع إذ تكون كالأم فى التحريم ، وفى هذا التشجيع على الإرضاع الذى هو الغذاء الطبيى للأطفال فى المهد .　　ـ المنتخب من التفسير صـ ١١١

(١) رواه أبو قرة موسى بن طارق الزبيدى فى السنن ، ورواه أبو يعلى والبيهقى ـ راجع تعليق مطبوعة الكشاف .

جعله شرطاً ، والأمهات والربائب يتناولان القريبة والبعيدة ، وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن الستر وهي كناية عن الجماع، ويؤثر في حرمة المصاهرة ماليس بزنا كالوطء بشبهة، أو ملك يمين.

وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول ، ﴿ **فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** ﴾تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس . ﴿ **وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ** ﴾زوجاتهم ، سميت الزوجة حليلة لحلها أو لحلوها مع الزوج ، ﴿ **الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ** ﴾احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿ **وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ** ﴾ في موضع الرفع عطفاً علي المحرمات ، والظاهر أن الحرمة غير مقصورة علي النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين ، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالي عنهما : حرمتهما آية وأحلتهما آية [1] ، يعنيان هذه الآية ، وقوله ﴿ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾[2] فرجح علي كرم الله وجهه التحريم ، وعثمان رضي الله عنه التحليل، وقول علي أظهر لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام « ما **اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام** ».

﴿ **إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾استثناء من لازم المعني ، أو منقطع معناه لكن ماقد سلف مغفور لقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾.

---

(١) حديث عثمان فى الموطأ عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب وحديث على رواه البزار وابن أبى شيبة وأبو يعلى . ـ المرجع السابق.

(٢) النساء ٣

الاية ٢٤

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤) ﴾

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ذوات الأزواج ، أحصنهن التزويج أو الأزواج وقرأالكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحصن فروجهن ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للسابين ، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالي عنه : أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج كفار ، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ ، فنزلت الآية فاستحللناهن ، وإياه عني الفرزدق بقوله :

وَذَات حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حلالٌ لمنْ يَبْني بِهاَ لَمْ تُطَلَّقِ(١) .

وقال أبو حنيفة لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للسابي ، وإطلاق الآية والحديث حجة عليه ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾مصدر مؤكد ، أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً . وقرئ كتب الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم وكتب الله بلفظ الفعل ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم ﴾عطف علي الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم علي البناء للمفعول عطفاً علي حرمت ﴿ مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ ما سوي المحرمات الثمان المذكورة ، وخص

---

(١) هذا الببيت للفرزدق أنشده في مجلس الحسن البصرى حين سئل رضى الله عنه عن سبى المرأة والتسرى بها ولها حليل فقال الحسن : كنت أراك أشعر فإذا أنت أشعر ذافقه .

ومعنى البيت : رب صاحبة حليل تسببت الرماح في تزويجها ، فإسناد الإنكاح إلى الرماح مجاز .

ومعنى جلال : ذات حليل وهو الزوج .

وبينى عليها : أى مدخل بها .

عنه بالسنة ما في معني المذكورات كسائر محرمات الرضاع ، والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها ﴿ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾مفعول له والمعني أحل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن ، أو أثمانهن في حال كونكم محصنين غير مسافحين ، ويجوز أن لايقدر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادة أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين، أو بدل مما وراء ذلك بدل اشتمال .

واحتج به الحنفية علي أن المهر لابد وأن يكون مالاً ،ولاحجة فيه ، والإحصان العفة فإنها تحصين للنفس عن اللوم والعقاب ، والسفاح الزنا من السفح وهو صب المني فإنه الغرض منه .

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾فمن تمتعتم به من المنكوحات ، أو فما استمتعتم به منهن من جماع أو عقد عليهن ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن فإنّ المهر في مقابلة الاستمتاع ﴿فَرِيضَةً ﴾حال من الأجور بمعني مفروضة ، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاء مفروضاً أو مصدر مؤكد .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ فيما يزاد علي المسمي أو يحط عنه بالتراضي ، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق ، وقيل: نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت ، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول : « **ياأيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلي يوم القيامة**»[1] وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة ، أو تمتيعها بما تعطي ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾بالمصالح ﴿ حَكِيمًا ﴾فما شرع من الأحكام .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه . كتاب التكاح ورواه ابن حبان كذلك من حديث جابر رضى الله عنه .

الآيات من ٢٥ : ٢٧

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) ﴾

مشروعية نكاح الإماء

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾غني واعتلاء وأصله الفضل والزيادة ، ﴿ أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾في موضع النصب بطولاً ، أو بفعل مقدر صفة له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات ، أو من لم يستطع منكم غني يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر لقوله : ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾يعني الإماء المؤمنات ، فظاهر الآية حجة للشافعي رضي الله تعالي عنه في تحريم نكاح الأمة علي من ملك ما يجعله صداق حرة،ومنع نكاح الأمة الكتابية مطلقاً ، وأول أبو حنيفة رحمه الله تعالي طول المحصنات بأن يملك فراشهن ، علي أن النكاح هو الوطء وحمل قوله﴿ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾علي الأفضل كما حمل عليه في قوله ﴿ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾

ومن أصحابنا من حمله أيضا علي التقييد وجوز نكاح الأمة لمن قدر علي الحرة الكتابية دون المؤمنة حذرا عن مخالطة الكفار وموالاتهم ، والمحذور في نكاح الأمة رق الولد ، وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في

الإيمان، فرب أمة تفضل الحرة فيه ، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لافضل النسب، والمراد تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه ويؤيده ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾أنتم وأرقاؤكم متناسبون نسبكم من آدم ودينكم الإسلام ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾يريد أربابهن واعتبار إذنهم مطلقاً لا إشعار له ، علي أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهم حتي يحتج به الحنفية ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ! فحذف ذلك لتقدم ذكره ، أو إلي مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عوض حقه فيجب أن يؤدي إليه .

وقال مالك رضي الله عنه : المهر للأمة ذهابا إلي الظاهر ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾بغير مطل وإضرار ونقصان ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ عفائف ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾غير مجاهرات بالسفاح ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾أخلاء في السر ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ بالتزويج ، قرأ أبو بكر وحمزة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ زني ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾يعني الحرائر.

﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ من الحد لقوله تعالي﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) وهو يدل علي أن حد العبد نصف حد الحر ، وأنه لايرجم لأن الرجم لا يتنصف . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾أي نكاح الإماء، ﴿ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾لمن خاف الوقوع في الزني ، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر ، مستعار لكل مشقة وضرر ولاضرر أعظم من مواقعة الإثم بأفحش القبائح ، وقيل : المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه ».﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾لمن لم يصبر ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بان رخص له .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام ، أو ما خفي

---

(١) النور ٢

عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم ، وليبين مفعول يريد واللام زيدت لتأكيد معني الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد (١)

أَرَدْتُ لِكَيْما يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف ، وليبين مفعول له أي يريد الحق لأجله ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾مناهج من تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ويغفر لكم ذنوبكم ، أو يرشدكم إلي ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم علي التوبة ، أو إلي ما يكون كفارة لسيئاتكم ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾بها ﴿ حَكِيمٌ ﴾في وضعها .

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾كرره للتأكيد والمبالغة ، ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ﴾يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها ، وأما المتعاطي لما سوغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها ، وقيل: المجوس ، وقيل : اليهود فإنهم يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت ، ﴿ أَن تَمِيلُوا ﴾عن الحق بموافقتهم علي اتباع الشهوات واستحلال المحرمات ﴿ مَيْلاً عَظِيماً ﴾ بالإضافة إلي ميل من اقترف خطيئة علي ندور غير مستحل لها .

الآيات من ٢٨ : ٣٠

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ فلذلك شرع لكم الشرعة الحنفية السمحة السهلة ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأمة ، ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجي يكنى أبا الفضل ، كان من فضلاء الصحابة وذهانهم وكرمائهم ومن ذوى الرأى والمكيدة فى الحرب مع النجدة والشجاعة .

توفى سنة تسع وخمسين وقيل سنة ستين .

ضَعِيفًا ﴾لايصبر عن الشهوات ولايتحمل مشاق الطاعات .

آيات الرحمة في سورة النساء

وعن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما :ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت هذه الثلاث (١) :﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾(٣) ﴿نَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾(٤) ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (٥) ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ بما لم يبحه الشرع كالغصب والربا والقمار . ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾استثناء منقطع أي ، ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه ، أو اقصدوا كون تجارة ، وعن تراض صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين ، وتخصيص التجارة من الوجوه التي بها يحل تناول مال الغير ، لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات ، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً .

وقيل : المراد بالنهي المنع عن صرف المال فبما لايرضاه الله ، وبالتجارة صرفه فيما يرضاه ، وقرأ الكوفيون بالنصب علي كان الناقصة وإضمار الإسم أي إلا أن تكون التجارة أو الجهة تجارة . ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ بالبخع (٧) كما تفعله جهلة الهند ، أو بإلقاء النفس إلي التهلكة ، ويؤيده ما روي : أن عمرو بن العاص تأوله التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي ﷺ أو بارتكاب ما يؤدي إلي قتلها، أو باقتراف ما يذلها ويرديها فإنه القتل الحقيقي للنفس.

---

(١) هذه الثلاث هن : يريد الله ليبين لكم .. إلى قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفا » من ٢٦ إلى ٢٨

راجع تفسيرا لشعروای حـ ٤ صـ ٢١٤٥

(٢) النساء ٣١ — (٣) النساء ٤٨

(٤) النساء ٤٠ — (٥) النساء ١٢٣

(٦) النساء ١٤٧ — (٧) باخع : قاتل نفسك هما وحزنا وأسفا

وقيل: المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، جمع في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها استبقاء لهم ريثما تستكمل النفوس ، وتستوفي في فضائلها رأفة بهم ورحمة كما أشار إليه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ أي أمر ما أمر ونهي عما نهي لفرط رحمته عليكم ، وقيل : معناه إنه كان بكم ياأمة محمد رحيماً لما أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلي القتل ، أو ما سبق من المحرمات ، ﴿ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتيانا بما لايستحقه ، وقيل أراد بالعدوان التعدي علي الغير وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب .

﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ﴾ ندخله إياها ، وقرئ بالتشديد من صلي ، وبفتح النون من صلاه يصليه ، ومنه شاة مصلية ويصليه بالياء والضمير لله تعالي أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ لاعسر فيه ولا صارف عنه .

الآيات من ٣١ : ٣٣

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها ، وقرئ كبير علي إرادة الجنس ﴿ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم .

الذنوب الكبائر :

واختلف في الكبائر ، والأقرب أن الكبير كل ذنب رتب الشارع عليه حداً أو

صرح بالوعيد فيه ، وقيل ما علم حرمته بقاطع ، وعن النبي ﷺ **« أنها سبع : الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم، والربا ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين »**(١) وعن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما : « الكبائر إلي سبعمائة أقرب منها إلي سبع » وقيل أراد به ههنا أنواع الشرك لقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾(٢) وقيل صغر الذنوب وكبرها بالإضافة إلي ما فوقها وماتحتها ، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس ، وبينهما وسائط يصدق عليها الأمران ، فمن له أمران منها ودعت نفسه إليها بحيث لايتمالك فكفها عن أكبرها كفر عنه ما ارتكبه لما استحق من الثواب علي اجتناب الأكبر ، ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال ، ألا تري أنه تعالي عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطواته التي لم تعد علي غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذه عليها . ﴿ **وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾ الجنة وما وعد من الثواب ، أو إدخالاً مع كرامة ، وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر .

﴿ **وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال ، فلعل عدمه خير والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلي التحاسد والتعادي ، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له ، وأنه تشبه لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم ، لأن تمني مالم يقدر له معارضة لحكمة القدر ، وتمني ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ، ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله ، فاطلبوا الفضل من الله تعالي بالعمل لابالحسد ، والتمني كما قال عليه الصلاة والسلام: **« ليس الإيمان بالتمني »**(٣) وقيل المراد نصيب الميراث وتفضيل الورثة بعضهم علي بعض فيه ، وجعل ما قسم لكل منهم علي حسب ما عرف من حاله الموجبة

(١) رواه السيوطى الجامع الصغير مع اختلاف يسير فى الترتيب حـ ٢ صـ ١٠٣ وعزاه إلى البيهقى فى السنن رواه ابن عمر ، ورمز له بالصحة والحسن .

(٢) النساء ٤٨

(٣) رواه السيوطى فى الجامع الصغير حـ ٢ صـ ١٤٠ وعزاه إلى الغريانى ، منسوبا إلى أنس .

للزيادة والنقص كالمكتسب له . ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي لاتتمنوا ما للناس وأسألوا الله مثله من خزائنه التي لاتنفد ، وهو يدل علي أن المنهي عنه هو الحسد، أولا تتمنوا واسالوا الله من فضله بما يقربه ويسوقه إليكم ، وقرأ ابن كثير والكسائي « وسلوا الله من فضله » وسلهم « فسل الذين » وشبهه إذا كان أمراً مواجهاً به، وقبل السين واو أو فاء بغير همز وحمزة في الوقف علي أصله والباقون بالهمز ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان .

روي « أن أم سلمة قالت : ياسرول الله يغزوا الرجال ولانغزوا وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً » فنزلت .

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أي ولكل تركة وراثا يلونها ويحرزونها ، ومما ترك بيان لكل مع الفصل بالعامل ، أو لكل ميت جعلنا وراثا مما ترك علي أن من صلة موالي ، لأنه في معني الوراث ، وفي ترك ضمير كل والولدان والأقربون استئناف مفسر للموالي ، وفيه خروج الأولاد فإن الأقربون لايتناولهم كما لا يتناول الوالدين ، أو لكل قوم جعلناهم موالي حظ مما ترك الولدان والأقربون ، علي إن جعلنا موالي صفة كل والراجع إليه محذوف علي هذا فالجملة من مبتد ،وخبر ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ موالي الموالاة ، كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾[1] وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالي : لو أسلم رجل علي يد رجل وتعاقد علي أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث ، أو الأزواج علي أن العقد عقد النكاح وهو مبتدأ ضمن معني الشرط وخبره ، ﴿ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أو منصوب بمضمر بفسره ما بعده كقولك ، زيداً فاضربه ، أو معطوف علي الوالدان، وقوله فآتوهم جملة مسببة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها ، والضمير للموالي ، وقرأ الكوفيون عقدت بمعني عقدت عهودهم إيمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ثم حذف كما حذف في القراءة الآخري ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ تهديد علي منع نصيبهم .

---

(١) الانفاق ٧٥

الآيتان ٣٤ ، ٣٥

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ﴾

قوامة الرجل علي المرأة

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة علي الرعية ، وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بسبب تفضيله تعالي الرجال علي النساء بكمال العقل وحسن التدبير ، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات و لذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر ، والشهادة في مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها ، والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق ، ﴿ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة .

من أسباب النزول

روي (أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عيه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير ، فلطمها فانطلق بها أبوها إلي رسول الله ﷺ فشكى فقال رسول الله ﷺ : **لتقتص منه** ، فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام :**أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراد الله خير**) ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج . ﴿ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ لمواجب الغيب أى يحفظن فى غيبة الأزواج ما يجب حفظه فى النفس والمال ، وعنه ﷺ : « **خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غبت عنها حفظتك في مالها**

ونفسها »[1] وتلا الآية . وقيل لأسرارهم .

﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له ، أو بالذى حفظه الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن . وقرئ بما حفظ الله بالنصب على أن ما موصولة فإنها لو كانت مصدرية لم يكن لحفظ فاعل ، والمعنى بالأمر الذي حفظ حق الله وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال .

﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز . ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ، أو لا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع . وقيل : المضاجع المبايت أي لا تبايتوهن ﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ يعنى ضرباً غير مبرح ولا شائن ، والأمور الثلاثة مرتبة ينبغى أن يتدرج فيها . ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ بالتوبيخ والإيذاء ، والمعنى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فاحذروه فإنه أقدر علكيم منكم علي من تحت أيديكم ، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيائتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم ، أو أنه يتعالي ويتكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ خلافًا بين المرأة وزوجها ، أضمرهما وإن لم يجر ذكرهم الجري ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الظرف إما لإجرائه مجري المفعول به كقوله : يا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أهلَ الدَّارِ ، أو لفاعل كقولهم نهارك صائم . ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فابعثوا أيها الحكام متي اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين ، رجلاً وسطًا يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها ، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح ، وهذا علي وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز .

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ ٢ صـ ١٠ نحوه وعزاه إلى الطبرانى فى الكبير مسندا إلى عبد الله بن سلام ورمز له بالصحة والحسن .

وقيل : الخطاب للأزواج والزوجات ، واستدل به على جواز التحكيم ، والأظهر أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين ، وقال مالك : لهما أن يتخالعا إن وجدا الصلاح فيه .

﴿ إن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ الضمير الأول للحكمين والثانى للزوجين ، أى أن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين . وقيل : كلاهما للحكمين أى إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما .

وقيل : للزوجين أى إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق ، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ بالظواهر والبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق .

الآيات من ٣٦ : ٣٨

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) ﴾

تأكيد على عبادة الله وحسن العلاقة بين الناس

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ صنما أو غيره ، أو شيئًا من الإشراك جليًا أو خفيًا ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وأحسنوا بهما إحسانًا . ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وبصاحب القرابة . ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى الذى قرب جواره . وقيل الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين . وقرئ

بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه . ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ البعيد ، أو الذى لا قرابة له . وعنه ﷺ : « الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام . وجار له حقان : حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد : حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب »(١) ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صحبك وحصل بجنبك . وقيل المرأة . ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر أو الضعيف . ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ العبيد والإماء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً ﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم . ﴿ فَخُوراً ﴾ يتفاخر عليهم .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ بدل من قوله من كان ، أو نصب على الذم أو رفع عليه أي هم الذين ، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به . وقرأ حمزة والكسائى ههنا وفي الحديد بالبخل بفتح الحرفين وهى لغة . ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله ، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء .

من أسباب النزول .

والآية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحاً : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشي عليكم الفقر . وقيل : فى الذين كتموا صفة محمد ﷺ .

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ عطف على الذين يبخلون ، أو الكافرين ، وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الإنفاق لا علي من ينبغى من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط سواء فى القبح واستجلاب

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير جـ ١ صـ ١٥٠ وعزاه إلى أبى نعيم فى الحلية والبزار وأبى الشيخ فى الثواب من حديث جابر رضى الله عنه .

الذم ، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا ﴾ . ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة . وقل هم المنافقون . ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ تنبيه على أن الشيطان قرنهم فحملهم على ذلك وزينة لهم كقوله تعالى ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (١) . والمراد إبليس وأعوانه الداخلة والخارجة ، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يقرن بهم الشيطان في النار .

الآيات من ٣٩ : ٤٢

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩) إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٤١) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا (٤٢) ﴾

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ أى وما الذي عليهم ، أو أي تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله ، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه ، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة ، والعوائد الجميلة . وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطا ، فكيف إذا تضمن المنافع . وإنما قدم الإيمان ها هناوأخره في الآية الأخري لأن القصد بذكره إلي التخصيص ها هنا والتعليل ثم ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ وعيد لهم .

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة ، وهى النملة الصغيرة . ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء ،

---

(١) الأسراء ٢٧

والمثقال مفعال من الثقل ، وفى ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاؤه . ﴿ وإن تك حسنة ﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة وأنث الضمير لتانيث الخبر ، أو لإضافة المثقال إلى مؤنث . وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة . وقرأ ابن كثير ونافع حسنة بالرفع علي كان التامة . ﴿ يضاعفها ﴾ يضاعف ثوابها وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعفها وكلاهمابمعنى . ﴿ ويؤت من لدنه ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل ا لتفضل زائدا علي ما وعد فى مقابلة العمل ﴿ أجرا عظيما ﴾ عطاء جزيلاً ، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه .

﴿ فكيف ﴾ أى فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ؟ . ﴿ إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ يعنى نبيهم يشهد علي فساد عقائدهم وقبح أعمالهم ، والعامل فى الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وتعظيم الشأن . ﴿ وجئنا بك ﴾ يا محمد . ﴿ على هؤلاء شهيداً ﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم ، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم . وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهم عن حالهم . وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾(١) .

﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ بيان لحالهم حينئذ ، أى يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر ، أو الكفرة والعصاة فى ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتي ، أو لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء . ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ ولا يقدرون علي كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم . وقيل : الواو للحال أى يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لا يكتمون من الله حديثا ولا يكذبونه بقولهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾(٢) إذ روي : أنهم إذا قالوا ذلك حتم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم ، فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض . وقرأ نافع وابن عامر تسوى بهم على أن أصله تتسوى فأدغمت التاء فى السين . وقرأ حمزة والكسائى تَسَوَّى على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوي .

---

(١) البقرة ١٤٣ (٢) الأنعام ٢٣

الآيات من ٤٣ : ٤٥

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) ﴾

من تيسرات الإسلام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ اى لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتي تنتهوا وتعلموا ما تقولون فى صلاتكم . روى (أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفراً من الصحابة ـ حين كانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا حتى ثملوا ، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ : أعبد ما تعبدون) فنزلت . وقيل : أراد بالصلاة مواضعها وهى المساجد وليس المراد منه نهى السكران عن قربان الصلاة ، وإنما المراد النهى عن الإفراط فى الشرب والسكر ، من السكر وهو السد . وقرئ سكارى بالفتح وسكرى على أنه جمع كهلكي . او مفرد بمعنى وأنتم قوم سكرى ، او جماعة سكرى وسكرى كحبلى على أنها صفة للجماعة . ﴿ وَلا جُنُبًا ﴾ عطف على قوله وأنتم سكارى إذ الجملة فى موضع النصب على الحال ، والجنب الذى أصابته الجنابة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأنه يجري مجرى المصدر . ﴿ إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ متعلق بقوله ولا جنباً ، استثناء من أعم الأحوال أى لا تقربوا الصلاة جنباً فى عامة الأحوال إلا فى السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم ، ويشهد له تعقيبه بذكر التيمم ، أو صفة لقوله جنباً أي جنباً غير عابرى سبيل . وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث . ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر عابرى سبيل

بالمجتازين فيها ، ويجوز الجنب عبور المسجد . وبه قال الشافعي رضي الله عنه . وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه : لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق . ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة ، وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه ، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه . ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ ﴾ مرضاً يخاف معه من استعمال الماء ، فإن الواجد كالفاقد . أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه . ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ لا تجدونه فيه . ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين ، وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض . ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أو ما مسستم بشرتهن ببشرتكم ، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء . وقيل : أو جامعتموهن . وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة لمستم ، واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة . ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾فلم تتمكنوا من استعماله ، إذ الممنوع عنه كالمفقود .

ووجه هذا التقسيم أن المترخص له بالتيمم إما محدث أو جنب ، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر . والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله ، والمحدث لما لم يجر ذكره ذكر من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعرض ، واستغني عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملاً فكأنه قيل : وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ أي فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزاه . وقال أصحابنا : لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾(١) أي بعضه ،وجعل من لابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعيض ، واليد اسم للعضو إلى المنكب ، وما روى أنه ﷺ تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ، والقياس على الوضوء دليل على أن المراد ها هنا وأيديكم إلى المرافق.﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم .

---

(١) المائدة ٦

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا ﴾ من رؤية البصر أى ألم تنظر إليهم ، أو القلب . وعدى بإلى لتضمن معنى الإنتهاء . ﴿ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ حظًا يسيرًا من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود . ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ﴾ يختارونها على الهدى ، أو يستبدلونها به بعد تمكنهم منه ، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ . وقيل: يأخذون الرشا ويحرفون التوراة . ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا ﴾ أيها المؤمنون. ﴿ السَّبِيلَ ﴾ سبيل الحق .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ منكم . ﴿ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يلي أمركم . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ يعينكم فثقوا عليه واكتفوا به من غيره . والباء تزاد في فاعل كفي لتوكيد الاتصال الإسنادى بالاتصال الإضافي .

الآية : ٤٦

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) ﴾

تحريف اليهود للتوراة

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ﴾ بيان للذين أوتوا نصيبا فإنه يحتملهم وغيرهم، وما بينهما اعتراض أو بيان لأعدائكم أو صلة لنصيرًا . أى ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم ، أو خبر محذوف صفته يحرفون . ﴿ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أى من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أى يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها . أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه . وقرئ الكلم بكسرالكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة . ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا ﴾ قولك . ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾أمرك . ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أى مدعوا عليك بلا سمعت لصمم أو موت ، أو اسمع غير

مجاب إلي ما تدعو إليه ، أو اسمع غير مسمع كلامًا ترضاه ، أو اسمع كلامًا غير مسمع إياك لأن أذنك تنبو عنه فيكون مفعولاً به ، أو اسمع غير مسمع مكروهًا من قولهم اسمعه فلان إذا سبه ، وإنما قالوه نفاقًا . ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ انظرنا نكلمك أو نفهم كلامك . ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ فتلا بها وصرفًا للكلام إلي ما يشبه السب ، حيث وضعوا راعنا المشابه لما يتسابون به موضع انظرنا وغير مسمع موضع لا أسمعت مكروهًا ، أو فتلا بها وضمًا لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلي ما يضمرون من السب والتحقير نفاقًا . ﴿ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ استهزاء به وسخرية .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا ﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ لكان قولهم ذلك خيرًا لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أن عليه ووقوعه موقعه . ﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى إلا إيمانًا قليلاً لا يعبأ به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل ، ويحتمل أن يراد بالقلة العدم كقوله (١) :

قَليلُ التَشَكى للْمُهم يَصيبِهُ

أو إلا قليلا منهم آمنوا أو سيؤمنون

---

(١) هذا البيت لتأبط شرا وهو شاعر جاهلى يمدح رجلا من رؤساء العرب اسمه شمس ين مالك ، وقيل : بل هو لأبى كبير الهذلي يمدح تأبط شرا والشطر الثانى من هذا البيت هو :

كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ويعد هذا البيت :

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك

ويعنى : أنه عديم التشكى لما يصيبه من هموم وأهواؤه كثيره وأسفاره كذلك ، فهو يصبح فى مفازة ويمسى بغيرها ، والجحيش : المنفرد ، ويعرورى اى يركب ظهر الجواد بدون سرج .. صوره المهالك بالجواد الذى يركبه عريانا بدون سرح .

الآيات من ٤٧ : ٥٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها ، يعني الاقفاء ، أو ننكسها إلي ورائها في الدنيا ، أو في الآخرة. وأصل الطمس إزالة الأعلام المائلة وقد يطلق بمعني الطلس في إزالة الصورة ولمطلق القلب والتغيير ، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوها فنسلب وجاهتها وإقبالها ونكسوها الصغار والإدبار ، أو نردها إلى حيث جاءت منه ؛ وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير ، ويقرب منه قول من قال : إن المراد بالوجوه الرؤساء ، أو من قبل أن نطمس وجوها بأن نعمي الأبصار عن الاعتبار ونصم الاسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردها عن الهداية إلى الضلالة ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت ، أو نمسخهم مسخًا مثل مسخهم ، أو أن نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود . والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات ، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء ، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا ، قال : إنه بعد مترقب أو كان وقوعه مشروطًا بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده ، أو ما حكم به وقضاه . ﴿ مَفْعُولاً ﴾ نافذًا وكائنًا فيقع لا محالة ما أوعدتم به إن لم تؤمنوا .

من آيات الرجاء

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ لأنه بت الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره . ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً . ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً . والمعتزلة علقوه بالفعلين علي معني إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء . وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب . وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها ، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة علي الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار . ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام ، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب ، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعنى أهل الكتاب قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [1] وقيل : ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلي رسول الله ﷺ فقالوا : هل على هؤلاء ذنب ؟ قال : لا ، قالوا : والله ما نحن إلا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل ، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار [2] وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها . ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالي هى المعتد بها دون تزكية غيره ، فإنه العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبيح ، وقد ذمهم وزكي المرتَضَيْن من عباده المؤمنين . وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً . ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ ﴾ بالذم أو العقاب علي تزكيتهم أنفسهم بغير حق . ﴿ فَتِيلاً ﴾ أدنى ظلم وأصغره ، وهو الخيط الذى فى شق النواة المثل يضرب به في الحقارة .

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ فى زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياء

---

(١) المائدة ١٨

(٢) ذكره الثعلبى عن الكلبى . .

عنده . ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء . ﴿ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ لا يخفي كونه مأثماً من بين آثامهم .

الآيات من ٥١ : ٥٥

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) ﴾

من أسباب النزول

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ نزلت في يهود كانوا يولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد . وقيل : في حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا : أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا . والجبت في الأصل اسم صنم فاستعمل في كل ما عبد من دون الله . وقيل : أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء . والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره . ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لأجلهم وفيهم . ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ إشارة إليهم . ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها .

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم . ﴿ فَإِذًا لَّا

يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازى نقيرا ، وهو النقرة في ظهر النواة . وهذا هو الإغراق في بيان شحهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين ، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية ، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً وإذا وقع بعد الواو والفاء لا لتشريك مفرد جاز فيه الإلغاء والإعمال ، ولذلك قرئ فإذا لا يؤتوا الناس على النصب .

حسد اليهود

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه ، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم كمالهم .ورشدهم وبخعهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً . ﴿ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعنى النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبى الموعود منهم . ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء عمه . ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النبوة . ﴿ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيماً ﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله مثل ما آتاهم .

﴿ فَمِنْهُم ﴾ من اليهود . ﴿ مَّنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بمحمد ﷺ أوبما ذكر من حديث آل إبراهيم . ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك . ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يعجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم .

الآيات من ٥٦ : ٦٨

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ كالبيان والتقرير لذلك . ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى كقولك : بدلت الخاتم قرطًا ، أو بأن يزال عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال : ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ أى ليدوم لهم ذوقه . وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلا محذور . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده . ﴿ حَكِيمًا ﴾ يعاقب على وفق حكمته (١) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ قدم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم ، وذكر المؤمنين بالعرض . ﴿ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ

---

(١) تدل الآية الكريمة على شدة العذاب الذى يتعرض له أصحاب النار بدليل ماتقرره الحقيقة العلمية من أن الأعصاب المنتشرة فى طبقات الجلد هى أكثر الأعصاب حساسية لمختلف المؤثرات من حرارة وبرودة .

وجاء فى تفسير الشعراوى : مركز الاحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا – تعالى – أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فاما أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس .. ولو أن القرآن تعرض لإحساس الجلد مباشرة لما فهموا شيئا ، لكنه ترك القضية لتنضج فى العقول على مهل ..

تفسير الشعراوى حـ ٤ صـ ٢٣٤٥

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً ﴾ فينانا لا جوب فيه ودائمًا لا تنسخه الشمس ، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة . والظليل صفة مشتقة منْ الظل لتأكيده كقولهم : شمس شامس وليل أليل ويوم أيوم .

الأمر بأداء الأمانات

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ خطاب يعم المكلفين والأمانات ، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة ، وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علي كرم الله وجهه يده وأخذه منه وفتح ، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس رضي الله عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة . فنزلت فأمره الله أن يرده إليه ، فأمرعليًا رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه ، وصار ذلك سببًا لإسلامه ، ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبدًا ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم ، أو يرضى بحكمكم ولأن الحكم وظيفة الولاة قيل الخطاب لهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ أي نعم شيئًا يعظكم به ، أو نعم الشيء الذي يعظكم به فما منصوبة موصوفة بيعظكم به ، أو مرفوعة موصولة به . والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات .

الآيات من ٥٩ : ٦٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) ﴾

طاعة أولياء الأمور

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده ، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية . أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتم ما داموا علي الحق . وقيل علماء الشرع لقوله تعالي : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (١) . ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم . ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ من أمور الدين ، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولى الأمر على طريقة الالتفات . ﴿ فَرُدُّوهُ ﴾ فراجعوا فيه . ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى كتابه . ﴿ وَالرَّسُولِ ﴾ بالسؤال عنه في زمانه ، والمراجعة إلى سنته بعده . واستدل به منكرو القياس وقالوا : إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس . وأجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس ، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة

---

(١) النساء ٨٣

رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس . ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى الرد . ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكم . ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ عاقبة أو أحسن تاويلاً من تاويلكم بلا رد .

من أمثلة المنافقين

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما . (أن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودى إلى النبى ﷺ ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما إلي رسول الله ﷺ ، فحكم لليهودى فلم يرض المنافق بقضائه وقال : نتحاكم إلى عمر فقال اليهودى لعمر : قضى لى رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق : أكذلك ؟ فقال : نعم . فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﴾ (١) فنزلت .وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق .

والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف ، وفى معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله ، سمى بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان ، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه كما قال : ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ وقرئ أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كقوله تعالى : ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم ﴾(٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ وقرئ تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطًا ثم ضم اللام لواو الضمير . ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصد ،

١٣٩ رواه الثعلبى من رواية الكلبى مسند إلى ابن عباس رضى الله عنهما .

١٤٠ البقرة ٢٥٧

والفرق بينه وبين السد أنه غير محسوس والسد محسوس ويصدون في موضع الحال .

﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حالهم . ﴿ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ كقتل عمر المنافق أو النقمة من الله تعالي . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من التحاكم إلي غيرك وعدم الرضى بحكمك . ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ حين يصابون للاعتذاز ، عطف على أصابتهم . وقيل : علي يصدون ومابينهما اعتراض . ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ حال . ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين ، ولم نرد مخالفتك . وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلي عمر إلا أن يحسن إلي صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه .

الآيتان من ٦٣ : ٦٤

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم . ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ بلسانك وكفهم عما هم عليه . ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ اى فى معنى أنفسهم أو خاليًا بهم فإن النصح فى السر أنجع . ﴿ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ يبلغ منهم ويوثر فيهم ، أمرهم بالتجافى عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغب والترهيب ، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام ، وتعليق الظرف ببليغًا على معنى بليغًا فى أنفسهم مؤثرًا فيها ضعيف لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف ، والقول البليغ فى الأصل هو الذى يطابق مدلوله المقصود به .

استغفار الرسول للمؤمنين يوجب المغفرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بسبب إذنه فى طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه ، وكأنه احتج بذلك على أن الذى لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافرًا مستوجب القتل ، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافرًا مستوجب القتل . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت . ﴿ جَاءُوكَ ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أن وإذ متعلق به . ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص . ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعًا ، وإنما عدل الخطاب تفخيمًا لشأنه وتنبيهًا على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع فى كبائر الذنوب . ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة ، وإن فسر وجد بصادف كان توابًا حالاً ورحيمًا بدلا منه أو حالاً من الضمير فيه .

الآيات من ٦٥ : ٦٩

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾

﴿ فَلا وَرَبِّكَ ﴾ أى فوربك ، ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر لا فى قوله: ﴿ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنها تزاد أيضًا فى الإثبات كقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَٰذَا

البَلَدِ ﴾ [١] ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه . ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ ضيقًا مما حكمت به ، أو من حكمك أو شكًا من أجله ، فإن الشاك فى ضيق من أمره . ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ تعرضوا بها للقتل فى الجهاد ، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبلنا في معنى أمرنا . ﴿ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم ﴾ خروجهم حين استتيبوا من عبادة العجل ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب أن اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك ، أو أخرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ ﴾ [٢] وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل ووالباقون بضمهما إجراء لهمامجري الهمزة المتصلة بالفعل . ﴿ وَمَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيــلٌ مِّنْهُمْ ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون . لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم ، نبه على قصور أكثرهم ووهن إسلامهم ، والضمير للمكتوب ودل عليه كتبنا ، أو لأحد مصدرى الفعلين ـ وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعًا ورغبة . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فى عاجلهم وآجلهم . ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ فى دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفى الشك أو تثبيتًا لثواب أعمالهم ونصبه على التمييز . والآية أيضًا مما نزلت فى شأن المنافق اليهودى . وقيل : إنها والتى قبلها نزلتا فى حاطب بن أبى بلتعة خاصم زبيرًا فى شراج من الحرَّة كانا يسقيان بها النخل ، فقال ﷺ : « اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال حاطب : لأن كان ابن عمتك ؟ فقال ﷺ : أسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجدر واستوف حقك ، ثم أرسله إلى جارك » [٣] .

---

(١) البلد ١ (٢) البقرة ٢٣٧

(٣) رواه ابن كثير فى تفسيره جـ ٢ صـ ٣٠٦ دون أن يذكر اسم حاطب بن أبى بلتعة وقال : عن عروة : خاصم الزبير رجلا فى شريج من الحرة .

=

﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل : وما يكون لهم بعد التثبيت فقال : وإذا لو تثبتوا لآتيناهم لأن إذا جواب وجزاء .

﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب ، قال النبي ﷺ : « **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم** » .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ مزيد ترغيب فى الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً . ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ بيان للذين أو حال منه ، أو من ضميره قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم فى العلم والعمل ، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم ، وهم : الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل . ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقى النظر فى الحجج والآيات وأخري بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان ، حتي اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هى عليها . ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد فى إظهار الحق حتي بذلوا مهجهم فى إعلاء كلمة الله تعالي . ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته . ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان . والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباًوهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولا فيكونون كمن يري الشيء بعيداً وهم الصديقون ، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون فى العلم الذين هم شهداء الله فى أرضه ، وأما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون . ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ فى معنى التعجب ، ورفيقًا نصب على التمييز أو الحال ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق ، أو لأنه أريد وحسن كل واحد منهم رفيقا .

= وقال : رواه البخارى فى تفسير سورة النساء حـ ٦ صـ ٥٨

والشريج والشراج : المسيل . والحره : مكان فى المدينة

سبب النزول

روى (أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يومًا وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال : ما بى من وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً) فنزلت .

الآيات من ٧٠ : ٧٤

﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤) ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ إشارة إلي ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليم ، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم . ﴿ الْفَضْلُ ﴾ صفته . ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ خبره أو الفضل خبره ومن الله حال والعامل فيه معني الإشارة . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ بجزاء من أطاعه ، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله .

التحذير من العدو

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء ، والحذر والحذر كالأثر والأثر . وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح . ﴿ فَانفِرُوا ﴾ فاخرجوا إلى الجهاد . ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ جماعات متفرقة ، جمع ثبة من ثبيت على فلان تثبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ويجمع أيضاً علِ ثبين جبرا لما حذف من

عجزه . ﴿ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ مجتمعين كوكبة واحدة ، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظا وجوب المبادرة إلي الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات .

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين والمبطئون منافقوهم تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد ، من بطأ بمعنى أبطأ وهو لازم أو ثبطوا غيرهم كما ثبط ابن أبى ناساً يوم أحد ، من بَطَّأ منقولاً من بطؤ كثقل من ثقل واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر ، والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير : وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن . ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ كقتل وهزيمة . ﴿ قَالَ ﴾ أى المبطىء . ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ حاضراً فيصيبنى ما أصابهم .

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة . ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ أكده تنبيهاً على فرط تحسره ، وقرئ بضم اللام إعادة للضمير إلي معني من . ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ اعتراض بين الفعل ومفعوله وهو ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه ، وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال ، أو حال من الضمير فى ليقولن أو داخل فى المقول أى يقول المبطئ لمن يبطئه من المنافقين ، وضعفة المسلمين تضريباً وحسداً ، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم . وقيل : إنه متصل بالجملة الأولي وهو ضعيف ، إذ لا يفصل أبعاض الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنى وكأن مخففة من اثقيلة واسمها ضمير الشان وهو محذوف . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب تكن بالتاء لتأنيث لفظ المودة ، والمنادى فى يا ليتنى محذوف أى: يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع فأفوز نصب على جواب التمني وقرئ بالرفع على تقدير فأنا أفوز فى ذلك الوقت ، أو العطف على كنت .

من أوامر القتال ودواعيها

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ أى الذين يبيعونها بها ، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة ، أو الذين يشترونها ويختارونها علي الآخرة وهم المبطئون ، والمعنى حثهم علي ترك ما حكى عنهم . ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وعد له الاجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ ، ترغيبًا فى القتال وتكذيبا لقولهم ﴿ قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدًا ﴾ وإنما قال ﴿ فيقتل أو يغلب ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة حتي يعز نفسه بالشهادة أو الدين ، بالظفر والغلبة وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل ، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين .

الآيتان من ٧٥ : ٧٦

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر . ﴿ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حال والعامل فيها ما فى الظرف من معنى الفعل . ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفى سبيل المستضعفين ، وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو ، أو على سبيل بحذف المضاف أى وفى خلاص المستضعفين ، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير ، وتخليص ضعفه المسلمين من أيدى الكفار أعظمها وأخصها . ﴿ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين ، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين ، وإنماذكر الولدان مبالغة فى الحث وتنبيهاً على تناهى

ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان ، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية . وقيل : المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد . ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير ولى وناصر بفتح مكة على نبيه ﷺ ، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتي صاروا أعز أهلها ، والقرية مكة والظالم صفتها ، وتذكيره لتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه .

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ فيمايصلون به إلى الله سبحانه وتعالى . ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان . ﴿ **فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ** ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله : ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ أى إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين . ضعيف لا يُؤبه به فلا تخافوا أولياءه ، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه .

الآية ٧٧

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)** ﴾

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ** ﴾ أى عن القتال . ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به . ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كمايخشون الله أن ينزل عليهم باسه ، وإذا للمفاجاة جواب لما وفريق مبتدأ منهم

صفته ويخشون خبره وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول ، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى ، يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه . ﴿ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدراً فلا ، لأن أفعل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي : أوكخشية الله تعالى أو كشخية أشد خشية منه ، على الفرض اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم : جد جده على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى ، أو خشية أشد خشية من خشية الله . ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ استزادة في مدة الكف عن القتال حذراً عن الموت ، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكي الله تعالى عنهم . ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ سريع التقضى ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ أى ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه ، أو من آجالكم المقدرة . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى ولا يظلمون لتقدم الغيبة .